موقف الأعيان والزعامات المحلية بالجنوب الجزائري من مشروع فصل الصحراء عن الشمال

د. رضوان شافو

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية– جامعة الوادي

المقدمة :

بعد سقوط مدينة الجزائر في يد القوات الفرنسية سنة 1830م سعت فرنسا الاستعمارية بكل ما تملك من وسائل وإمكانيات بشرية ومادية لتمديد عملية التوسع والتغلغل نحو المناطق الصحراوية، وتعتبر سنة 1844م البداية الفعلية لتمديد العمليات العسكرية نحو الصحراء الجزائرية، وذلك بناء على القرار الذي أصدره البرلمان الفرنسي الذي يقضي بتقدم قواته نحو الجنوب، وإنشاء مراكز عسكرية خاصة في المناطق الإستراتيجية الرئيسة،تتحكم في مرور القوافل التجارية من جهة، وتضمن لهم الأمن للمعمرين وتسمح لهم بالتصدي لمقاومة سكان الصحراء من جهة ثانية،و منه بسط نفوذه على الشريط الواقع ما وراء الأطلس الصحراوي. وعليه فقد تم احتلال ما بين (1844 و 1908م) بسكرة و الجلفة والأغواط وعين الصفراء، وجبال القصور وعمُّور، وورقلة وتقرت ووادي سوف، وعين صالح وقورارة وتوات، وغيرها من المناطق الصحراوية.

وفي ذات السياق ازداد الاهتمام الفرنسي بالصحراء الجزائرية،وهذا بعد مشاورات حثيثة بين أفراد الحكومة الفرنسية،حيث أصدرت السلطة الاستعمارية يوم 24 ديسمبر 1902م قانونا تضمن تنظيم أقاليم الجنوب الجزائري، وإنشاء ميزانية خاصة ومستقلة بها، وقد أخذ تقسيم هذه الأقاليم شكلين حسب مرسوم 12 ديسمبر 1905م :فالشكل الأول قسم إلى دوائر وملحقات ومراكز، والشكل الثاني قسم إلى بلديات مختلطة وأخرى أهلية،وقد شملت هذه الأقاليم العمالات التالية : (عمالة تقرت وعاصمتها تقرت , عمالة الواحات وعاصمتها ورقلة , عمالة عين الصفراء وعاصمتها كولومب (بشار) , عمالة غرداية وعاصمتها الاغواط)1.

وفي منتصف الخمسينات بدأ يتبلور في الفكر السياسي الاستعماري مصطلحات تنادي بتثمين واستغلال ثروات الصحراء الجزائرية، خاصة بعد اكتشاف البترول والغاز ومناجم الذهب والنحاس، ولذلك سعت الإدارة الاستعمارية لتحقيق هذا الحلم الاقتصادي إلى اختراع فكرة فصل الصحراء عن الشمال، وانطلاقا من هذا الطرح وضعنا أسئلة محورية لدراستنا أبرزها: : ما هي دوافع اهتمام فرنسا الاستعمارية بالصحراء الجزائرية،خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية ؟ وما هي أهم الخطوات العملية لتحقيق مشروع الانفصال؟وكيف كان موقف الأعيان والزعامات

المحلية من مؤامرة الانفصال؟والى أي مدى تعاملت السلطة الاستعمارية مع المواقف الرافضة لمشروع الانفصال؟ وكيف كانت ردود الفعل الشعبية ضد مؤامرة الانفصال؟ ذلك ما سنجيب عنه في الفقرات القادمة:

أولا: أهمية الصحراء بالنسبة لفرنسا:

1- سياسيا : تعتقد السلطة الاستعمارية أن الصحراء الجزائرية أداة وصل بين شمال إفريقيا وجنوبها، وعليه فبهذه الخاصية ستلعب دورا كبيرا في مستقبل علاقات التضامن بالقارة الإفريقية، ويعطيها هذا الدور وضعها الجغرافي وإمكانياتها الاقتصادية، ومن هنا فهي تشكل في نظرها خطرا يجب إبطال مفعوله، وذلك بفصل الجنوب عن الشمال حتى تفقد الجزائر حدودها المشتركة مع الدول المجاورة، مع إقامة قواعد عسكرية في إفريقيا تكون مصدر تهديد دائم لكل محاولات التحرر والانعتاق الحقيقي2.

2- اقتصاديا : الاستحواذ على الثروات الطبيعية والمعدنية والطاقوية وتحقيق استثمار صناعي إلى أبعد الحدود في الصحراء الجزائرية، خاصة وأن فرنسا كانت تدرك أنها متخلفة صناعيا عن منافستها بريطانيا في تلك الفترة، زيادة على ما سبق استغلال الطرق التجارية الصحراوية للسيطرة على خيرات إفريقيا من جهة واستغلال الصحراء كسوق استهلاكية لمنتجات أوربا من جهة أخرى.

زيادة على ذلك ظهور عقب الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945م) دعاة ينادون باستغلال المناطق الصحراوية، منهم على الخصوص اريك لابون Erik Labonne 3 الذي اقترح مشروعا اقتصاديا وعسكريا للاستفادة من الثروات الطبيعية والطاقوية الصحراوية الجزائرية، كما كانت فرنسا تسعى إلى محاولة التخلص من التبعية الطاقوية التي كانت تعاني منها فرنسا، مما جعل لديها قناعة راسخة أنه لا يمكن تحقيق أي استقلالية طاقوية إلا باستغلال الموارد الطبيعية المخزونة بالصحراء الجزائرية.

3- عسكريا واستراتيجيا: احتواء الثورات المسلحة والحركات التحررية في مستعمرات فرنسا الإفريقية قصد جعل الصحراء الجزائرية القاعدة العسكرية التي تُموِّن أوروبا في حالة أي اعتداء أجنبي، والقاعدة السياسية التي تمارس منها فرنسا الضغوطات على مختلف الثورات في إفريقيا4، هذا بالإضافة إلى العمليات العسكرية التي وقعت بصحراء شمال إفريقيا خلال الحرب العالمية الثانية كشفت مدى الأهمية الإستراتيجية والحيوية التي تمثلها هذه الصحراء خاصة على الصعيدين الأمني والسلمي بالنسبة لأوروبا، وهذه الأهمية الإستراتيجية جعلت القيادة العسكرية الاستعمارية لديها قناعة في أن اتساع الرقعة الجغرافية للصحراء الجزائرية يصلح كميدان عسكري

لاختبار التجارب النووية والجرثومية، لكون أن مثل هذه الأسلحة تحتاج إلى ميادين خالية وشاسعة، ويمكن في ذات الوقت استحداث قاعدة عسكرية لفرنسا لتكون منطلقا لعمليات عسكرية في إفريقيا وأوروبا.

ثانيا: خطوات تجسيد مشروع الفصل:

1- إنشاء المنظمة المشركة للمناطق الصحراوية: وذلك بإصدار قانون رقم 27-57 المؤرخ في 10 جانفي 1957م،الذي ينص على إنشاء المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية،وهو مشروع يسعى إلى تحقيق تنظيم اقتصادي للصحراء، ويحتوي القانون على ثلاث عشرة مادة. وتجدر الإشارة إلى أن مشروع المنظمة المشركة للمناطق الصحراوية كان قد اقتراح من طرف السيد هوفوي بوانييHauphouet Boigny 5، الذي قدمه بدوره إلى مجلس الوزراء بعدما تم عرضه على المجلس الوطني ومجلس الجمهورية، حيث تمت المصادقة عليه في 10 جانفي 1957م 6.

2- إنشاء وزارة خاصة بالصحراء وتقسيم الصحراء إلى عمالتين: نظرا لعدم وجود إطار ادري يُسيِّر المناطق الصحراوية نتيجة لقرار إلغاء نظام الأقاليم في الجنوب الجزائري، أصدرت السلطة الاستعمارية قرارا في 10 جوان 1957م يتعلق بإنشاء وزارة خاصة بالصحراء، بهدف استمرارية الحفاظ على الصحراء الفرنسية، وقد تم تعين السيد ماكس لوجان Max lejeune وزيرا على رأس هذه الوزارة الصحراوية7.أما فيما يخص تقسيم الصحراء إلى عمالتين، فقد تم تقسيمها وفقا للمرسوم رقم57-903 المؤرخ في 7 أوت 1957م 8، فالعمالة الأولى هي الواحات وعاصمتها الاغواط ثم ورقلة (الجنوب الشرقي) بمساحة تقدر بـ1302000 كلم²، و348000 نسمة، والعمالة الثانية هي الساورة وعاصمتها بشار(الجنوب الغربي) بمساحة تقدربـ780000كلم²،و152000 نسمة، خلفا لما كان يعرف سابقا بأقاليم الجنوب الجزائرية.

3- السعي لإنشاء جمهورية صحراوية مستقلة: بدأت المحاولات الأولى لتحقيق هذا المشروع مند بداية 1957م ، وذلك من خلال الزيارات المتعددة التي قام بها مسؤولون كبار في الحكومة الفرنسية مثل :ماكس لوجان Max lejeune ، واليفي قيشارO.Guichar ، وميشال دوبري Michel Debré ..وغيرهم، بهدف جس النبض والبحث عن شخصيات وزعامات محلية توكل إليهم مهمة تنفيذ مشروع الانفصال، ومنهم حمزة بوبكر، والشيخ ابراهيم بيوض، والشيخ احمد التيجاني، والشيخ أخموخ باي، وفي هذا الصدد يذكر الشيخ بيوض :« أن الجنرال ديغول أوفد مسؤولا كبيرا إلى غرداية فجمع بعض الأعيان الميزابيين وقال لهم: إن فرنسا ترغب منكم أن توافقوا على تأسيس جمهورية صحراوية مستقلة على غرار جمهورية موريطانيا، وإنها تعدكم بالتأييد والحماية..» 9 ، وحسب التقارير الفرنسية فإن كل هذه الزعامات المحلية رفضت

العروض التي قدمت لها باستثناء حمزة بوبكر، وباسعيد عدون اللذين ساعدا الحكومة الفرنسية على تنفيذ مساعيها الرامية إلى إنشاء ماُ يسمى بالجمهورية الصحراوية المستقلة، وهذا ما سنتطرق إليه لاحقا.

4- تدويل الصحراء الجزائرية: في إطار المساعي الفرنسية لإنجاح مشروع الانفصال سعت فرنسا إلى تدويل الصحراء الجزائرية عن طريق طرح مناورة جديدة مفادها: أن الصحراء بحر داخلي تشترك فيه جميع الدول المجاورة، زيادة على ذلك خلق شبكة من المصالح الاقتصادية والإستراتيجية لأطراف أجنبية عديدة تكون لها المرجعية بينهم، مستعملة في ذلك البترول كورقة رابحة ، ورافعة في ذلك شعار" ثروات الصحراء لفائدة جميع الصحراويين"، كشعار زائف ومائع أريد من ورائه طمس حقائق سياسية وتاريخية ناصعة، يكون من نتائجه تجريد المناطق الصحراوية من كل انتماء سياسي لها 10.

وما يؤكد هذا الطرح وثيقة سرية مؤرخة في أول جانفي 1957م ترسم الخطوط العريضة لهذه السياسة ومنها نذكر:«...لذلك سيكون من الأنسب تجاوز الخلافات الحدودية للبلدان والأقاليم المحيطة بها- أي الصحراء الجزائرية- من خلال إنشاء مجموعة اقتصادية تسمح للبلدان المجاورة بان يكونوا شركاء فاعلين في عملية استغلال الثروات الصحراوية وفي تقاسم الأرباح التي ستدرها هذه العملية.مثل هذه الشراكة لن يكون من نتائجها فقط تحقيق استغلال آمن ومضمون لهذه الثروات، ولكن سيكون من نتائجها أيضا الإعداد والتمهيد لأفق سياسي أرحب ألا وهو بناء مجموعة أو كتلة فرنسية-افريقية، لذلك وضمن هذا المنظور سوف يكون من الأنسب إنشاء هيئة لتثمين واستغلال هذه الثروات يشترك في عضويتها كل من: المجموعة الفرنسية-الجزائرية، والمغرب،وتونس، والأقاليم المجاورة بإفريقيا السوداء...» 11.

ثالثا: مواقف الأعيان والزعامات المحلية بين التأييد والرفض لمؤامرة الانفصال:

عندما شرعت فرنسا في تطبيق سياستها لفصل الصحراء ولإنجاح هذه السياسة سعت هذه الأخيرة وبشتى الوسائل الإقناع والضغط إلى جرهم للسير في هذا المشروع،واعية في كل ذلك بضرورة وأهمية انخراطهم في سياستها كشرط لابد منه لنجاح مشروعها المعروف بالجمهورية الصحراوية المستقلة، ونظرا لأهمية المشروع لدى الحكومة الفرنسية ، قام رئيس الحكومة الفرنسية ميشال دوبري Michel Debré ، وأليفي قيشارO.Guichar المندوب العام للمنظمة المشركة للمناطق الصحراوية بزيارات متعددة إلى المناطق الصحراوية من أجل إعطاء المشروع دفعا جديدا،حيث اتصل بمجموعة من الزعامات المحلية التي تتمتع بمكانة سلطوية واجتماعية في الواحات الصحراوية ومن بينهم السيد حمزة بوبكر، والشيخ ابراهيم بيوض، والحاج باي أخموخ سلطان الهقار وغيرهم، وفي هذا الصدد سنستعرض موقف كل واحد على حِدة.

1- موقف الحاج باي أخموخ (سلطان الهقار): حاولت السلطة الاستعمارية مساومة الحاج باي أخموخ لقبول مشروع الانفصال، حيث تلقى أول عرض من الجنرال ديغول سنة 1958م، وقد تضمن هذا العرض منح الاستقلال لمنطقة التوارق التي كانت ستشمل على ما يبدو منطقة الهقار حتى الحدود الليبية شرقا بالإضافة إلى المناطق الشمالية الأهلة بالسكان التوارق لكل من مالي والنيجر.

وتلقى الحاج باي أخموخ ثاني عرض له في الموضوع خلال زيارته لباريس على رأس وفد من التوارق بدعوة من الجنرال ديغول لحضور احتفالات العيد الوطني الفرنسي في 14 جويلية 1960م، وبعد متابعة الوفد للعروض العسكرية استقبل من طرف الوزير الأول ميشال دوبري Michel Debré الذي عرض عليه بلهجة تجمع بين المساومة والتهديد مقترحا فصل الصحراء عن الجزائر، وتنصيب الحاج باي أخموخ سلطانا على الهقار، فما كان من هذا الأخير إلا الإجابة التالية :« قد لا أطالب باستقلال الجزائر، ولكن ما أطالب به هو عدم الاستقلال عن الجزائر»، وفي نفس السنة زار الوزير الأول ميشال دوبري Michel Debré تمنراست وأحضر معه توارق التشاد ومالي والنيجر، حيث جمعهم بالحاج باي أخموخ لمدة 7 أيام بفندق تنهينان، وعرض على أخموخ أن يكون سلطانا على الصحراء فرفض هذا الأخير.

2- موقف حمزة بوبكر(والي عمالة الواحات): استطاعت السلطة الاستعمارية أن تستميل السيد حمزة بوكر إلى صفها،وكلفته للقيام بعملية التعبئة والحشد لإنجاح مشروع الفصل ،حيث تمكن حمزة بوبكر من جمع عدد من الزعامات الصحراوية في لقاءات بالاغواط وورقلة سنة 1960م، من أجل إدخال مشروع الفصل حيز التنفيذ،والواقع إن نشاط حمزة بوبكر في خدمة هذا المشروع يرجع إلى سنة 1959م عندما وضعت بعض الأوساط الفرنسية مشروعها لبتر الجنوب تحت – الجمهورية الصحراوية المستقلة- وهو مشروع أقيم على ذات الأساس الذي أقام عليه الاستعمار البلجيكي مشروعه الذي أدى إلى انفصال كاطنغا 12.

بل وصل الأمر بحمزة بوبكر إلى تعين نفسه ممثلا لسكان الصحراء في زيارة إلى النيجر يوم 4 ديسمبر 1961م رفقة وزير الصحراء ماكس لوجان Max lejeune ، ووالي البوليس بايلو، والمحامي بياجي، بهدف تأسيس الجمهورية الصحراوية المستقلة، وحاول التحدث مع رئيس النيجر السيد حماني ديوري واستمالته لتأييد المشروع، لكن الرئيس النيجري واجهه برفض صارم، وقال فيما قال له: « لن أعين أبدا على خلق كاطنغا صحراوية» 13.

غير أن حمزة بوبكر لم تخفه إنذارات ولا تعليمات جبهة التحرير الوطني،حيث تحرك مرة أخرى من أجل جمع 24 شخصية ذات أصول صحراوية بمقر والي عمالة الواحات على هامش أشغال المجلس العام لعمالة الواحات في افريل1961م، مع فارق واحد هذه المرة، وهو:

أن حمزة بوبكر اضطر لجمع هذه الشخصيات مستعينا بالبوليس الفرنسي لإلزامها على الحضور،فلقد كان يعلم أنها لن تعود إلى تلبية ندائه بعدما عرفت نواياه ،لكن هذا اللقاء انتهى بالفشل مثل سابقه 14.

3- موقف الشيخ إبراهيم بيوض (من أعيان وادي ميزاب): حاولت السلطة الاستعماري مساومة الشيخ ابراهيم بيوض عضو مجلس عمالة الواحات العديد من المرات من خلال اللقاءات والاتصالات التي جرت بينه وبين بعض الشخصيات المحسوبة على الإدارة الاستعمارية بهدف جسن النبض حول رأيه في قضية الصحراء،ومن أهم اللقاءات التي جرت معه،اللقاء الذي جمعه مع وأليفي قيشار O.Guichar المندوب العام للمنظمة المشركة للمناطق الصحراوية، ومما جاء فيه مخاطبا الشيخ بيوض : « إني مبعوث إليك من رئيس الجمهورية الجنرال ديغول للمفاوضة معك في شأن مستقبل الصحراء واستقلالها،فهي تملك الموارد الضخمة من الغز والبترول وهي متاخمة لموريطانيا الجمهورية الإسلامية المستقلة،وبذلك تكون جارة وصديقة لها ونحن في عونكم جميعا، وأخبرك بأن الجنرال ديغول خط هاتفه مفتوح في الاليزي ينتظر الجواب..»15.

غير أن الشيخ ابراهيم بيوض حاول إجهاض العملية ،واتصل بالحكومة المؤقتة الجزائرية يحيطها علما بتفاصيل المشروع،ويستصدر الأوامر اللازمة لإفشال مساعي التقسيم،وبالفعل فإن جبهة التحرير الوطني قد وجهت إنذارا لجميع الشخصيات المعنية وجعلتها تبدي رفضها ومعارضتها لمحاولة التجزئة وذلك عندما انعقد الاجتماع الثاني في حي سانتوجان بالجزائر العاصمة سنة 1960م 16. وهو ما يؤكده المجاهد محمد شنوفي في قوله : «..مند مجئ ديغول إلى الحكم كثفت الثورة وقيادة الولاية الثالثة من جهود خاصة ومعتبرة لتعبئة الشعب وتوعيته،خاصة توعية الشباب المغرر بهم في الإدارات المحلية،حيث استغلتهم فرنسا في إطار المخطط الذي يعرفه الإخوان (المجاهدون)، وهذا حتى يحتاطوا من التوجيه الجهنمي الاستعماري الذي قامت به فرنسا من أجل فصل الصحراء عن الجزائر»17، زيادة على ذلك عملت قيادة الولاية السادسة على توزيع مجموعة من المناشير الدعائية لإفشال مؤامرة الفصل، بل تعدى الأمر إلى القيام بعمليات سياسية تمثلت في الاتصال بالجماهير وتوعيتهم بضرورة مقاطعة ونبذ أولئك الذين أرادت فرنسا أن تجعلهم إما قوة ثالثة، أو هيئة تتكفل بالصحراء 18.

ومن جملة ما قام به أيضا الشيخ بيوض لإحباط مؤامرة الفصل هو القيام بجولة بين ورقلة وتقرت انطلاقا من وادي ميزاب، وفي ذلك يقول:" في ربيع وصيف 1960 كثرت الاجتماعات والحديث والتناجي عن فصل الصحراء بين الحكام الإداريين عسكريين ومدنيين وبين النواب والأعيان لكنها سرية متكتمة، فاشتد خوفي من جعلنا أمام أمر الواقع، فاكتريت سيارة من القرارة... وذهبت إلى ورقلة ثم إلى دار القائد العيد الذي أثق بوطنيته فوصلت الدار الثانية بعد

الزوال، فقيل: لي إنه نائم، فقلت: أيقظوه فالأمر مستعجل، فقام إلي فحدثته عن خطورة الوضع في قضية فصل الصحراء فعاهدني على انه معي وبجانبي ضد الفصل وقال: قل ما شئت واكتب ما شئت فإني أمضيه بدون تردد،...فلويت عنان السيارة من ورقلة إلى زاوية تماسين فكلمت الشيخ(حفظه الله)فأجاب بما أجابه القائد العيد وتعاهدنا ثلاثتنا على التصلب في موقفنا ولو كلفنا حياتنا وعلى إفساد مناورات الانفصاليين.."19.

وعليه وقف الأعيان الثلاثة موقفا موحدا في الاجتماع الذي عقده حمزة بوبكر بخصوص "قضية فصل الصحراء" في خريف 1960م ضمن أعمال دورة مجلس عمالة الواحات في ورقلة وهم: الشيخ أحمد التجاني كممثل عن وادي ريغ، والشيخ ابراهيم بيوض ممثلا عن وادي ميزاب والقايد العيد بوسعيد ممثلا عن ورقلة، ،حيث تم الرد على حمزة بوبكر وبكل جرأة على لسان الشيخ ابراهيم بيوض قائلا: «...سيدي الرئيس إن مجلسنا مجلس اقتصادي بحت ينظر في ميزانية العمالة فاختصاصنا لا يخرج عن دائرة المكاتب والمياه والطرقات والمواصلات وما أشبهها، ولا حق لنا مطلقا في التكلم باسم الأمة في أمر سياسي مهم خطير، الحق فيه للأمة بأسرها،ثم من جهة أخرى سيدي الرئيس: إن فرنسا لم تستشرنا في سياستنا في هذه البلاد، فلم تستشرنا يوم قطعت الصحراء وجعلت لها نظام التراب الجنوبي، ولم تستشرنا يوم فصلت أجزاء من الشمال سمتها أحوازا ممتزجة ، فهي تصل وتفصل وتتحكم كما تريد بل أكثر من هذا كنا نطلب أشياء من حقنا ونرفع أصواتنا بها ، فلا تسمعنا حتى في تطبيق قوانين سنتها هي، ولا يخفاكم مواقفنا في المجلس الجزائري في المطالبة بتطبيق دستوره...الخ،فإذا أرادت فرنسا اليوم أن تستشير فلتستشر صاحب الحق وهو الشعب الجزائري كله...»20، وعليه كانت هذه الضربة قاضية للفصل والانفصاليين 21.

4- موقف الشيخ أحمد التيجاني (شيخ الزاوية التجانية بتماسين):

على الرغم من تضارب الآراء حول موقف الزاوية التيجانية من الاستعمار الفرنسي بين التأيد وموالاة من جهة، والمعارضة والمقاومة من جهة أخرى، إلا أنَّه خلال الثورة الجزائرية أثبت الشهادات الحية لبعض المجاهدين،وبعض الوثائق الأرشيفية على أن شيخ الزاوية التجانية السيد أحمد التيجاني كانت له مواقف ايجابية ومشرفة له وللزاوية التيجانية بتماسين خلال هذه الفترة،منها مساهمته في تشكيل لجان شعبية سنة 1955م لدعم وتموين الثورة، واستغلال علاقته بالسلطة الاستعمارية لخدمة أهالي المنطقة والثورة الجزائرية.

أما فيما يخص مشروع فصل الصحراء عن الشمال، فقد كان له ثلاثة مواقف مشرفة أولهما: كان خلال زيارة جاك سوستال Jacques Soustelle نائب وزير مجلس الوزراء(الوزير الأول) إلى ورقلة وتقرت في أول فيفري 1959م ، حيث وصل إلي ورقلة على الساعة الحادية

عشرة صباحا قادما من تمنراست، حيث زار برج فلاترس أين التقى بمجموعة من الأهالي ،ثم انتقل إلى إحدى الثكنات العسكرية وقام فيها بتكريم بعض الضباط العسكريين بتسليمهم أوسمة شرف، مع إلقاء كلمة مقتضبة أكد من خلالها وجود استمرارية تواجد الفرنسيين بالصحراء،وبعد وجبة الغداء اجتمع في فندق المدينة بمختلف رؤساء المصالح الإدارية لمناقشة موضوع الجمهورية الصحراوية 22، لينتقل بعدها في المساء إلى مدينة تقرت التي وصلها على الساعة الثالثة ونصف، حيث كان في استقباله القائد العسكري لإقليم تقرت، ومندوبين عن مختلق القطاعات الإدارية بالمنطقة، ورؤساء الملاحق التابعة لإقليم تقرت،أين قُدم له استعراض عسكري من قبل عناصر الجيش الجوي، وبعدها ألقى الشيخ أحمد التيجاني خطابا مطولا حول بعض المشاكل التي يعاني منها سكان الصحراء، وخصوصا وادي ريغ ووادي سوف ،وفي مقدمتها نقص المياه، ومشكلة تسويق التمور، وارتفاع تكاليف حفر الآبار الارتوازية، وكذا الضرائب المتزايدة التي أثقلت كاهل الفلاحين، وانتشار بعض الأمراض التي تصيب منتوج التمور، كما طالب الشيخ أحمد التيجاني في هذا الخطاب بتوقيف القتال، وحقن الدماء بين الفرنسيين والجزائريين، حتى يتحقق السلام بين الأفراد، وبعد سماع جاك سوستالJacques Soustelle إلى خطاب الشيخ أحمد التيجاني عقد جلسة عمل من جل دراسة المطالب التي جاءت في خطاب احمد التيجاني23.

وثانيهما : كان خلال دورة المجلس العمالي بورقلة التي انعقدت في خريف 1960م ، حينما طلب والي العمالة حمزة بوبكر رأي الشيخ أحمد التيجاني حول قضية الصحراء، حيث تكلم هذا الأخير بكلام حسن شرح فيه باختصار خطورة الموقف وأنه لاضمان لنا ولا آمان من تطورات الأحوال،وضرب المثل بقصة المغرب والسلطان محمد الخامس، وقضية ابن عرفة وما آل إليه أمر المغرب24. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على رفض الشيخ أحمد التيجاني مشروع الانفصال.

وثالثهما: الموقف الذي سبقت الإشارة إليه وذلك من خلال تأييد الشيخ أحمد التيجاني لإخوانه في مجلس عمالة الواحات وهما الشيخ ابراهيم بيوض والقايد بوسعيد على إفشال مؤامرة الانفصال في الاجتماع الذي دعى إليه حمزة بوبكر.

5- موقف باسعيد عدون (من منطقة بني ميزاب):

تجدر الإشارة هنا أنه من بين المحاولات السرية وغير الرسمية حسب ما أورده السيد حمو محمد عيسى النوري في كتابه: "دور الميزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا" تكليف الفرنسيين لشخصية تسمى "باسعيد عدون" وصفها هو بالشخصية المنبوذة في مجتمعها((أقول كلفت من قبل الفرنسيين بمهمة القيام بمساعي لدى بعض الشخصيات المحلية والأعيان لإقناعها

والحصول على انخراطها في المشروع الفرنسي لفصل الصحراء، وقد قامت هذه الشخصية بإجراء اتصالات مباشرة مع كل من ابن قانة بمنطقة الزيبان، ومع الشيخ بيوض بالقرارة، ولكنها لم تظفر بشيء))25.

هذا بالإضافة إلى أن أعضاء المجلس العام لعمالة الواحات وفي إطار المفاوضات الجزائرية الفرنسية كانوا يتابعون مجريات التفاوض بين الوفد الجزائري والوفد الفرنسي، وكانوا في حالة من الترقب والانتظار القلق لما ستسفر عنه هذه مفاوضات لوسارن التي جرت بسويسرا ما بين 20 فيفري إلى غاية مارس 1961م،والتي انتهت بالفشل نظرا لتشبث الوفد الجزائري بمبدأ السيادة الجزائرية على كامل التراب الوطني،حيث مباشرة بعد انتهاء هذه المفاوضات عقد أعضاء المجلس العام لعمالة الواحات جلسة استثنائية خلال يومي16و17 جوان 1961م،وقد خلص المجتمعون فيها إلى الالتزام بعدم إبداء أي موقف طالما بقيت الحكومة الفرنسية متمسكة بموقفها في الموضوع26.

رابعا: رد فعل السلطة الاستعمارية على المواقف الرافضة لمشروع الانفصال:

أمام هذه المواقف الوطنية الرافضة للسياسة الفرنسة الداعية إلى تمزيق التراب الوطني وتشتيت وحدة الصف الوطني،وبرهنة سكان الصحراء على ولائهم وتأييدهم لجبهة التحرير الوطني، عمدت السلطة الفرنسية إلى بث روح الفتنة والفرقة وإحياء النعرات الطائفية بين أبناء الشعب لتكريس وجودها الاستعماري، فمثلا في سبتمبر 1960م حرضت السلطة الاستعمارية بعض الأشخاص بورقلة بالسطو على دكاكين الميزابيين وممتلاكاتهم وبساتينهم، فأثأروا غوغاء العامة ممن لا خلاق لهم، فقتلوا وجرحوا ونهبوا وأشعلوا النار، وأفسدوا محاصيل النخيل، مما دفع بالسلطة الاستعمارية للظهور بمظهر النصح والتعاطف مع الميزابيين وذلك بتذكيرهم أن هذا ما سيفعله بهم العرب بعد حصولهم على استقلالهم في حالة إذا تخلوا عنهم27.

وفي5 سبتمبر1961م وجهت نفرا من جنود الحركة إلى مسجد من مساجد ورقلة،فداسوا حرمته ومزقوا المصاحف القرآنية والكتب الموجودة في مكتبته، ثم روّجوا لكون العملية من تدبير جمع من الميزابيين الإباضين، غير أن بعض العقلاء تفطنوا للمكيدة وأطفاؤا الفتنة في مهدها بعد أن كادت تأخذ حجما خطيرا،خصوصا وأن الأمر يمس مقدسات الشعب الجزائري وحرمة دينه 28، كما لجأت السلطة الاستعمارية إلى القمع المباشر والتهديد عندما قامت بمحاولة للقبض على أحد رؤساء الزاوية التجانية29.

بالإضافة إلى نقل ما لا يقل عن 1500 عامل من العمال في قطاع البترول في منطقة ورقلة للمحتشدات بالشمال الجزائري، هذا بالإضافة إلى أن رئيس بلدية ورقلة عمل على سجن كل الشخصيات الصحراوية وانتزع منها أملاكها 30.

زيادة على أن فرنسا لجأت إلى الضغط المالي على التجار الصحراويين المستقرين بالشمال، إذ تولى الإشراف على العملية مدير بنك الجزائر، وهددهم بالإفلاس إن رفضوا مشروع الفصل،كما ضيق مدير البنك الخناق على تعاملاتهم المالية، ثم أشهر إفلاسهم بعذلك،وصدرت الأوامر إلى المحاكم أن تحكم بإفلاس التجار الصحراويين وعلى الأخص أبناء وادي ميزاب، وفي ذات الوقت كانت البنوك ترفض إعطاءهم التسهيلات الإدارية، وتطالبهم بتسديد الديون في الحال، كما قامت منظمة الجيش السري بنسف90 متجرا بالعاصمة كان أصحابها من الجنوب .31

الخاتمة:

من خلال هذه الدراسة التاريخية التي تمحورت حول موقف الأعيان والزعامات المحلية بالجنوب من مشروع فصل الصحراء عن الشمال ،مع استعراض أهم الدوافع الحقيقة للاهتمام الفرنسي بالصحراء الجزائرية، واستعراض أيضا رد فعل السلطة الاستعمارية على المواقف الرافضة لمشروع الانفصال، خلصنا إلى أن السياسة الديغولية قد فشلت في تحقيق مشروعها الاستعماري بالصحراء الجزائرية، وذلك من خلال المواقف الوطنية والمشرفة لبعض الأعيان والزعامات المحلية الرافضة لمؤامرة الانفصال، وبرهنوا من خلال مواقفهم الوطنية على أنهم واعون بما كان يحاك من مؤامرات دسيسة ضد الجزائر،كما أكدوا أنهم لن تغريهم المغريات، ولن تنطلي عليهم حيّل الإدارة الاستعمارية، ولن ينساقوا وراء أي مشروع استعماري يسعى إلى سلخهم عن هويتهم الوطنية وحضارتهم الإسلامية،ويقضي على خصوصيتهم الاجتماعية والثقافية،وأنهم مع الثورة التحريرية التي شرفتهم ورفعت رؤوسهم أمام الأمم.

الهوامش:

[1] - R.Estoublon et A.Lefebure, Code de L'Algérie annoté, Alger, imp.Adolphe Jordan,1907,1902,p82

2- المجاهد، « أهداف الاستعمار في الصحراء »،ع98، 19جوان 1961،(ج4، طبعة خاصة 2007)، ص4

3- سفير فرنسا والمقيم العام الفرنسي السابق بكل من المغرب وتونس، والرئيس بالنيابة للجنة الدراسات لمناطق التنظيم الصناعي بإفريقيا

4- المجاهد،« أهداف الاستعمار في الصحراء »،المصدرالسابق ، ص 46 .

5- وفوي بوانيي*Hauphouet Boigny* : الوزير المنتدب لدى رئاسة مجلس الوزراء في حكومة قي موليبه، ورئيس جمهورية ساحل العاج فيما بعد.

6- J.O.R.F, du 11 Janvier 1957,p578
7- J.O.R.F. du 14 Juin 1957 ,p 5923
8- Décret n° 57-903. du 31 décembre 1959, J.O.R.F, du 12 Janvier 1960 ,p 339
9- ابراهيم بن عمر بيوض، أعمالي في الثورة، منشورات جمعية التراث، القرارة – غرداية، 1990، ص 80.
10- محمد بن دارة،السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية ما بين 1952- 1962م،رسالة ماجستير في التاريخ،جامعة الجزائر ، 1998-1999،ص 152.
11- محمد بن دارة، المرجع السابق، ص 152.
12- المجاهد،" مناورات في الصحراء"ع 113، 22 جانفي 1962،(ج4، طبعة خاصة 2007)،ص3

وللتوضيح أكثر فإن كاطنغا انفصلت عن الكونغو في جوان 1960 بعد وقوع تمرد عسكري كونغولي وإعلان لويس تشومبي انفصال كاطنغا، وقيام بلجيكا بإرسال قوات للدفاع عن مصالحها لاسيما فى مجال التعدين، وموافقة مجلس الأمن على إرسال قوات للمحافظة على استقرار الأوضاع في البلاد، بيد أن هذه القوات لم يسمح لها بالتدخل فى الشؤون الداخلية مما أدى إلى تأكد الانفصال

13- المجاهد،" مناورات في الصحراء"، المصدر السابق،ص5
14- المصدر نفسه،ص3
15- ابراهيم بن عمر بيوض، المصدر السابق، ص64.
16- محمد العربي الزبيري،« ديغول والصحراء »، أعمال الملتقى الوطني الأول بورقلة حول: "فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية"، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954،1998،ص 202
17- شهادة المجاهد محمد شنوفي (ضابط بالولاية السادسة التاريخية)، أعمال الملتقى الوطني الأول بورقلة حول: "فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية"، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954،1998،ص327
18- شهادة المجاهد محمد شنوفي ،المصدر السابق، ص328
19- ابراهيم بن عمر بيوض، المصدر السابق، ص 34
20- المصدر نفسه، ص ص:35-36.
21- المصدر نفسه، ص ص: 34-35.
22- C.D.A.W.O, B62 : Voyage au Sahara de M. le Ministre délégué de M. le premier Ministre du 3 Février 1959
23- C.D.A.W.O, B62 :Traduction de l'alloction prononcée le 01/02/1959 par le Cheikh SI AHMED TIDJANI à l'occasion de la visite de M. le Ministre SOUSTELLE
24- ابراهيم بن عمر بيوض، المصدر السابق، ص 115.
25- حمو محمد عيسى النوري، دور الميزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، باريس، دار الكروان، 1984، مج2، ص ص: 296- 300.
26- C.D.A.W.O , B298 ,Conseil Général des Oasis , procès verbal de la session extraordinaire 1961,seance des 16 et 17 Juin 1961, pp 5- 6.

27- ابراهيم بن عمر بيوض، المصدر السابق ، ص45.

28- المجاهد،" مناورات في الصحراء"، المصدر السابق،ص3.

29- مسعود كواتي ،«محاولات فرنسا لفصل الصحراء عن الجزائر مناورة أم حقيقة؟» ؛ ضمن أعمال الملتقى الوطني الأول بورقلة حول: "فصل الصحراء في السياسة الاستعمارية"،منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1998،1954،ص149.

30- الحاج موسى بن عمر، السياسة النفطية في الجزائر1952-1962، جمعية التراث،ط1، غرداية، 2004، 190-189

31- المجاهد، "مناورات في الصحراء"، المصدر السابق، ص 3.

قراءة في التغييرات الفكرية المعاصرة على ضوء التراث العربي

أ. آدبه ولد سيد محمد
جامعة نواكشوط

المقدمة:

بشكل عام يعتبر التراث نقطة رئيسة في التوازن القائم بين الجديد والقديم، ورابطا ثقافيا وفكريا بين إبداعات الماضي بكل ما فيه من عمق أو بساطة، وفق المعطيات القائمة في ذلك الوقت، وتعقيدات العصر بما فيه من وسائل التقدم التكنلوجي العلمي والرقي الفكري.

وقيمة التراث لا تقاس بالمعطيات الموجودة في الوقت الحاضر، ولكنها تأتي من عراقة وأصالة التجربة التي أبدعها الأوائل، ومهدوا من خلالها لإبداعات الحاضر، وبقدر ما يكون التواصل بين الجديد والقديم على مستوى التراث والمعاصرة، تأتي قيمة التراث في بعث الحركة الفكرية وانطلاقها نحو آفاق جديدة من الإبداع والمعرفة.

والتراث بصفة عامة لا يمكن التعامل معه مفصولا عن الحاضر الذي نعايشه، أو ننظر إليه على أساس أنه حلقة مفصولة عن حلقات الفكر التي نتواصل معها، لأنه المخزون الذي يشكل البدايات الأولى للنهايات التي وصلنا إليها، وبقدر ما يكون احترامنا للبدايات يكون احترامنا للنهايات، فالمنطق يفرض قاعدة لا يمكن تجاهلها وهي: أن المقدمات تفضي حتما إلى نتائج، والنتائج تصبح مع مرور الزمن مقدمات لنتائج تأتي مستقبلا وبقدر انسجام البدايات والنهايات تكون قيمة الأشياء التي نتوصل إليها مقرونة بالمخزون الحضاري والفكري الذي تسند إليه، وقديما قال ابن قتيبة: "لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص قوما دون قوم، بل جعل الله ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر وجعل كل قديم حديثا في عصره1".

فالحديث عن التراث هو حديث عن الوجود الإنساني والحضاري لأمة من الأمم في امتدادها الفكري وتواصلها المعرفي وليست القضية في تجريد مفهوم التراث والتعامل معه تعاملك مع فكرة، وإنما يكون التعامل معه من خلال استنباط مفاهيم جديدة ترسخ واقعا، وتحدد معالم مستقبل في ظل متغيرات فكرية تفرض نفسها من حين لآخر على الواقع المعيش.

والتراث ليس قيمة في ذاته إلا بقدر ما يعطي من نظرية علمية في تفسير الواقع والعمل على تطويره، فهو ليس متحفا للأفكار نفخر بها وننظر إليها بالإعجاب ونقف أمامها في انبهار وندعو العالم معنا للمشاهدة والسياحة الفكرية، بل هو نظرية للعمل وموجه للسلوك وذخيرة قومية يمكن اكتشافها واستغلالها واستثمارها من أجل إعادة بناء الإنسان وعلاقته بالأرض وهما حجرا العثرة اللذان تتحطم عليهما كل جهود البلاد النامية في التطور والتنمية2.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف تكون عملية توظيف التراث أو بمعنى آخر كيف يمكن أن نجمع بين المعاصرة والتراث في الوقت الحاضر، وهل يكون التعامل مع الأصالة والتراث على أنه شيء مقدس، وأن ما يصلح للقدماء الأولين لا بد حتما من أن يكون متلائما أو مناسبا لنا؟ أو أن ما توصلوا إليه هو حتما ما ينبغي أن نقف عنده أو ندور في فلكه على أنه خاتمة المطاف؟

والجواب لا يكون بهذا أو ذاك، لأن التراث يظل تراثا له ماله وعليه ما عليه، والفكر المنطقي الراسخ يفرض علينا أن نمحص ما نأخذ وأن نأخذ ما فحصناه أو محصناه لأن الأصل في الفكر إذا جرى مجراه الطبيعي المستقيم هو أن يكون حوارا بين "لا" و"نعم" وما يتوسطهما من خلال وأطياف فلا الرفض المطلق الأعمى يعد فكرا، ولا القبول المطلق الأعمى يعد فكرا، ففي الأول عناد الأطفال وفي الثاني طاعة العبيد3.

ونحن بدورنا نؤكد حقيقة احترام الفكر في تعاملنا مع التراث ولا يعني الفكر أو إمعان النظر فيه أننا نقلل من قيمته أو أننا نعيد النظر في ثوابته أو إعجاباته، ولكن هذا الإعجاب لا ينبغي أن يقودنا إلى التقديس، فما أسرع ما يتحول الأمر عند الإنسان من إعجاب بالقديم إلى تقديس له يوهمه بان ذلك القديم معصوم من الخطأ فعندئذ تنسدل الحجب الكثيفة بين الإنسان وبين ما قد جاءت به الأيام من تطورات في العلم والمعرفة"4.

ومن أجل تحقيق الفائدة المرجوة من التراث في مواجهة المتغيرات الفكرية والحضارية التي تتلاحق بشكل متسارع فإنه ينبغي علينا عدم إقحام التراث بشكل غير مسوغ في قضايانا المعاصرة، وإنما نأخذ من التراث ما يساعد حقيقة في مواكبة هذه المتغيرات التي نعايشها في مختلف مجالات المعرفة ولا يعني الاهتمام بالتراث مجرد تحقيقه أو إعادة نشره بل يعني الوعي به أيضا. فالتراث القديم ليس قضية لدراسة الماضي العتيق فحسب الذي ولى وطواه النسيان ولا يزار إلا في المتاحف، ولا ينقب عنه إلا علماء الآثار، بل هو أيضا جزء من الواقع ومكوناته النفسية، ما زال التراث القديم بأفكاره وتصوراته ومثله موجها لسلوك الجماهير في حياتها اليومية، إما بعاطفة التقديس في عصر لا يسلك الإنسان فيه إلا مداحا أو بالارتكان إلى ماض زاهر تجد فيه الجماهير عزاء عن واقعها المضني5.

وبناء على ما سبق يمكن أن نفهم التراث على أنه جزء مهم من مقومات كنوز الأمة الفكري والحضاري، وأنه يشكل اللبنات الأساسية التي يبنى عليها حاضر الأمة ومستقبلها، ولا يشترط أن تكون مراحل البناء متجانسة من حيث الهدف والمضمون، ولكنها من دون شك وثيقة الصلة يمهد السابق منها اللاحق، ويؤسس اللاحق لما يأتي بعده. وسوف تناول هذا الموضوع في المحاور الآتية:

1- ملاءمة التراث مع قضايا العصر:

عند الحديث عن التراث نواجه مصطلحات تفرض نفسها علينا في تعاملنا معه مثل: العراقة، الأصالة، النزاهة، القداسة... وهي مفردات تعطي لفظة التراث صفات مجردة أكثر مما تعطيها قيمة ومضمونا ودلالة، ويتناول التراث العربي كل ماكتب باللغة العربية وانتزع من روحها,بصرف النظر عن جنس كاتبه أو دينه أومذهبه، فإن الإسلام قد جبَّ هذ التقسيم وقطعه في جميع الشعوب القديمة التي فتحها وأشاع الإسلامُ لُغةَ الدِّين فيها وهي اللغة العربية التي لوَّنت تلك الشعوب بلون فكري واحد متعدد الأطياف هو الفكر الإسلامي وهو الفكر العربي ومع إيماننا بقيمة التراث العربي وأهميته وعدم انتقاصنا منه، إلا انه لا ينبغي أن نتعامل معه من خلال مفردات تفرض ذاتها على تفكيرنا وطريقة تعاملنا معه، وتظل المشكلة قائمة؛ كيف نقرب بين قضايا العصر والتراث مع بعد المسافة واختلاف المفاهيم ووسائل العلم والفكر؟ وإذن فسؤالنا الأساس هو: أي الأفكار التي يريدوننا أن نبعثها من تراث الأسلاف يمكن أن نعلق به الرجاء؟ وهل صحيح أننا واجدون في أفكار أسلافنا بالأمس مايمكن أن ينير أمامنا الطريق؟، لقد كانت أفكارهم وليدة مشكلاتهم، فهل تكون مشكلاتنا هي ذاتها مشكلاتهم بحيث نهتدى بحكمتهم في اقتراح الحلول؟ 6.

ونحن بدورنا نقرر حقيقة أن الحديث عن التراث لا يعني إعادته أو جمع مفرداته مع أهمية ذلك في مرحلة من المراحل، بل يعني الاستفادة منه وتوظيفه، وأما كيفية الاستفادة أو التوظيف، فينبغي أن تكون محور الحديث أو الدراسة، إذ كيف نوظف هذا التراث لخدمة قضايانا المعاصرة؟ وكيف نستفيد منه للتغلب على جوانب النقص والتقصير في حياتنا؟

وفي هذا السياق يجب أن ننبه إلى ضرورة عدم الدخول إلى التراث من بوابة الخروج من واقعنا، أو مداراة العجز الحاصل في تراجع الفكر وتخلف مناهج البحث، بالعودة إلى التراث بصفته وسيلة إرضاء للذات، أو الاتكاء على إنجازات الآخرين وفق ظروف خاصة بهم على أنها خلاصة ما يمكن أن يقدمه أو نتوصل إليه، معطين أنفسنا الحق في التقصير أو التراجع.

فالتعامل مع التراث يجب أن يبدأ من بوابة الدخول إلى واقعنا وليس العكس، بمعنى أن يكون التراث عاملا مساعدا على الابتكار والتجديد في فترة زمنية لها خصوصيتها، ولكنها تستفيد مما سبق ولا تكتفي به، والابتكار ليس معناه اختراع شيء من الهواء، ولكن معناه وجود مادة تتفاعل هي وشخصية قوية، فتتمثل خلقا جديدا، فلولا الأساطير القديمة، ما وجد كتاب المسرحية اليونانية، ولولا الأناشيد الدينية للشعب الألماني – الكورال – ما كتب باخ موسيقاه الرائعة7.

وما يبنى على التراث والأصالة لا يعني بالضرورة أنه الأفضل ولكنه بلا شك هو الذي يتجاوز مرحلة التأسيس أو البدايات الأولى للوصول إلى مرحلة أكثر تطورا في المفهوم والفكرة، تمهيدا لمرحلة جديدة يمكن أن تؤسس على ما تم التوصل إليه مستقلا: فأنا لا أعيش في الحاضرة فقط

مبديا ردود الفعل تجاه الماضي المباشر (كما يفترض التطوريون) بل في ثلاثة أزمنة معا: في الماضي من خلال الذاكرة، وفي الحاضر وفي المستقبل من خلال التوقعات والخطط والآمال، وقد أصل في أي لحظة إلى الماضي البعيد، أو إلى أبعد لحظة في التاريخ الإنسانية، إن هناك إمكانية دائمة للتزامن في تطور الإنسان العقلي، وهذا الترامن يشكل بنية تتحقق في أي لحظة8.

ولا يكون الحديث أو التغيير باستعادة التراث في كليته، أو الانتقاء منه، فلا الإعادة الكاملة معدية، ولا الانتقاء مفيد، بل يجب وضع فلسفة معينة في التعامل مع التراث من زوايا مختلفة، وتخصصات متنوعة، فإذا أردنا أن ندرس قضايا النقد الحديث على سبيل المثال فلا ينبغي أن ندور في دائرة القدماء، ولا ينبغي كذلك أن نأخذ كل ما هو مستورد من فكر الآخرين على أنه خلاصة ما يمكن أن نتوصل إليه من دون الوعي بما في التراث العربي من قضايا مسبوقة وهي قضايا بلا شك توصل إليها السابقون في نتائجهم الفكرية، ولم نحاول الاستفادة منها أو تطويرها، وتركنا لأنفسنا أخذ نتاج الآخرين على أنه من المعاصرة أو الحداثة، بينما هو في الحقيقة نتاج فكر توصل إليه الآخرون بعيدا عن تراث مسبوق لا يخصهم، وإذا كان تراثنا غريبا عنهم، فلا ينبغي أن يكون غريبا عنا، ولتأكيد هذه الفكرة يمكن المقارنة بين مفهوم الأسلوبية في النقد الحديث، وعلم المعاني في الموروث النقدي والبلاغي القديم، فالدراسة الأسلوبية تتناول بشكل رئيس دراسة العمل الأدبي بما يحويه من وسائل تتجاوز مجرد نقل المعنى، إلى عمق الاستعمال اللغوي المتمثل في وضع المفردات في صيغ وأنساق معنية وكيفية انتظامها وانتظام الجمل والفقرات ورسم الصور وانسجام ذلك كله مع المغني "فالكلمات والعبارات في الشعرية يقصد بها بعث صور إيحائية وفي هذه الصور يعيد الشاعر إلى الكلمات قوة معاينها التصويرية الفطرية في اللغة"9.

وإذا كانت الأسلوبية قد أفادت من الدراسات النقدية الحديثة واعتمدت في كثير من نظرياتها على ما توصل إليه علم اللغة الحديث، فإنها في الوقت نفسه قد أعادت ما توصل إليه الدارسون في تراثنا البلاغي والنقدي القديم، مثل رصد الأساليب الإنشائية والصور الفنية، وأساليب المجاز والتشخيص والتجسيم في محاولة منها للوصول إلى المعنى، ومع ذلك فإن الأسلوبية قد عجزت عن استكمال الملحوظات البلاغية في دراسة النص الأدبي لأنها انطلقت من بدايات جديدة، ولم تعتمد على بدايات في تراث غير التراث الذي نشأت فيه.

وإذا قلنا إن الأسلوبية بكشفها عن التباين الأسلوبي إنما تقودنا إلى عمليات التوصيل وتلفتنا إلى طبيعة الرسالة في النص الأدبي، إذا قلنا: هذا كله، فإن علينا أن نلاحظ أن الأسلوب في ذاته لا يمكن أن يكون مساويا لجميع الظواهر اللغوية للنص الأدبي، ومن الممكن أن نقول إن هناك ظواهر أخرى كثيرة لا تستطيع الأسلوبية بوصفها الحالي أن نتعامل معها، بسبب ما في مناهجها ذاتها من قصور.

ومن أهم الظواهر التي عجزت المناهج اللغوية المتمثلة في الأسلوب عن معالجتها ظاهرة الأبنية البلاغية التي تفوق التركيب الواحد, ومنها الأبنية العليا الشاملة في النصوص الأدبية10.

فانسجام التراث مع المعاصرة يفرض علينا أن لا نأخذ فكر الآخرين مقطوعا عن تراثنا الفكري، بل محاولة الاستفادة مما هو حاصل في التراث، مع ما يمكن أن نتوصل إليه نحن، أو يتوصل إليه الآخرون، وبذلك يتحول التراث من مجرد تراث إلى فكر مكمل وروافد لكثير من الأفكار والنظريات التي يظن كثيرون أنها من المعاصرة الخالصة، بينما هي تنطلق من عمق التراث، وتستفيد منه بوعي أو غير وعي، ولا يمكن أن يتحقق ذلك من دون الاطلاع الواعي على التراث ومحاولة ربطه بمناهج الفكر التي تم التوصل إليها، أو التي يمكن التوصل إليها، وبذلك تتحقق فكرة المعاصرة للتراث، وما يقال في علم الأسلوب يقال في كثير من العلوم النظرية والتطبيقية التي كان للرواد الأوائل فضل السبق في الحديث عنها، أو التوصل إلى بعض المعطيات الأولى حولها، مما شكل حلقة في سلسلة الحلقات المتواصلة في تاريخ الفكر المتصل بهذه العلوم.

فالتراث العربي غني في الكيفية، غني في الكمية أيضا، وما تزال آثار هؤلاء الأسلاف في التشريع والعلوم الفلسفية والرياضية .... والطبية والفنية وغيرها معدودة في قمة الإنتاج الفكري، ولا تزال النظريات الفلسفية والاجتماعية لعلماء العرب وفلاسفتهم أصلا وجذرا من جذور علم الاجتماع والفلسفة المعاصرة11.

2- التراث بين الأنا والآخر:

يعد أي تراث رصيدا معرفيا لأي أمة من الأمم، والناس أمام التراث احد اثنين؛ إما ممجد دون تمحيص، وإما ممحص دون تمجيد، ونحن لا نطلب من الباحث أن يكون مجرد مادح للتراث، لأنه في هذه الحالة لا يفيد التراث ولا يستفيد منه، بل نطلب منه أن يكون ممحصا ومستفيدا، فالتراث جزء من الماضي وليس له سيطرة على الحاضر لا ينظر الباحث إلى التراث إذن نظرة سائح إلى عالم الغيب، لأن التراث جزء من ثقافة الباحث الوطنية والباحث مسؤول عن مسؤولية قومية، فالأحكام الخاطئة لا ترصد بل تعاد صياغتها، وأوجه النقص في التراث لا تبرز أو تنفد، بل تكمل وتزاد، فالباحث على نفس مستوى مسؤولية المفكرين القدماء، وهم أترابه وليس غرباء عنه، فإذا انفصل الباحث عنهم وقع في الغربة وأصبحت مسؤوليته هو وليست مسؤولية التراث أن يقضي على اغترابه حتى يشعر بالانتماء وبأنه جزء من التراث وبأن التراث جزء منه، ولا ينقضي الالتزام بالقضية من حياد الباحث أو من نزاهته أو من موضوعيته12.

وأمام العجز الحاصل في الواقع العربي في مختلف قضايا العلم والمعرفة يحاول الباحثون الهروب من هذا الواقع باللجوء إما إلى التراث وإما إلى الثقافة الغربية، وهذا بدوره يقودنا إلى قضية مهمة وهي علاقة التراث بالثقافة الغربية، وعلاقتنا نحن بالتراث والثقافة الغربية على حد سواء.

وللإجابة عن هذه التساؤلات يجب علينا أن نميز بين نظرتنا نحن للتراث ونظرة الآخرين إلى تراثنا، فإذا كنا نحن ننظر إلى تراثنا بشيء من الإعجاب والتقدير فإن الآخرين لا يفترض فيهم أن ينظروا إلى تراثنا بالعين ذاتها التي ننظر بها نحن إليه لأنه عندهم مادة للبحث والدراسة والتقويم والنقد ولا ينبغي أن ننكر على الآخرين دراسة تراثنا الفكري بشيء من الموضوعية، ولا أن نقابل ذلك بالاتهام، بل علينا أن نقابل دراساتهم بدراسات مضادة – إن جاز التعبير – تتخذ الإقناع والعقل وسيله لإظهار التراث بالشكل العلمي الصحيح ردا على من يحاول أن ينظر إلى تراثنا من وجهة نظر خاصة به.

وعندما نسمح للآخرين بدراسة تراثنا، فإنه ينبغي علينا كذلك أن ندرس تراثهم، لا لمجرد الرد على دراساتهم أو المقارنة الإيجابية والسلبية، بل من أجل أن نستفيد ونفيد، ونجعل التراث فكرا للجميع، وإذا كان تراث الآخرين لا يتلاءم معنا أو لا يناسبنا أو يتفق مع تراثنا، فلا ينبغي أن نصرف النظر عن دراسته لأن الآخر يشكل مع الذات حلقة تواصل فكري لا يمكن الاستغناء عنها، فهو تطور دائري كما يصفه المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي، ونحن عند ما نتحدث عن الآخر، فنحن لسنا مقياسا، بل لسنا معيارا من يختلف عنا فليس شاذا، ليس ناقصا، ليس غريبا، تماما كما أننا نحن لسنا شاذين لسنا ناقصين لسنا غرباء بالمقارنة مع الآخر ببساطة ليست البشرية حجارة مصنوعة في قالب، بل أناس، بشر، والحقيقة أن كل واحد منا يختلف عن الآخرين جميعا13.

وفي هذا السياق ينبغي أن لا ننكر جهد الآخرين في تحقيق تراثنا ودراسته "إن الجهد العلمي الذي بذله المستشرقون في إحياء التراث العربي جهد لا يستطاع إنكاره، فهم كانوا أساتذة الجيل الحاضر في الطريقة العلمية التي جروا عليها"14. والقضية ليست مجرد تحقيق التراث، بل دراسته، فللآخرين فضل السبق في دراسة قضايا التراث أيضا، وهي قضية في تصوري لها إيجابياتها وسلبياتها، لأنهم تعاملوا مع تراثنا وفق أحكام مسبقة حاولوا تأكيدها، مستغلين بعض الثغرات هنا أو هناك، مما أثار الشكوك في بعض الأحيان من هدف دراستهم للتراث العربي، وجعلنا نتعامل مع الآخر بقدر غير قليل من الشك والريبة، وعندما نقف عند دراستنا لهم في هذا الجانب فإما أن نرفض من دون أن نسوغ هذا الرفض، أو نتهم من دون أن نستند إلى أحكام العقل والمنطق، وفي كلا الحالين يكون موقفنا ضعيفا، لأننا ندور في حلقة مفرغة مع دراسات الآخرين بين رفض واتهام، وهي حالة لا تسمح لنا بمراجعة التراث أصلا، والتعامل مع قضاياه بعيدا عن ضغوط الآخرين وآرائهم المتلاحقة تباعا، فالمنطق يفرض علينا أن نكون نحن المبادرين إلى دراسة التراث دراسة متأنية تعالج السلبيات وتستفيد من الإيجابيات، وترد التهم الموجهة إلى تراثنا بالحجة والمنطق، لأن الآخر ينظر إلى تراثنا على أنه شيء من الأساطير وأن الفكر العربي – تبعا لذلك – عاجز عن التجديد، ولا يتفق وأصول المنطق والعلم، ووصل

بهم الأمر إلى رد الإيجابيات في الفكر والتراث العربي إلى أصول غير عربية، كما يقول ديبور: "وإذا وجدنا العرب يصلون بين الأشياء، لا حين يحصونها إحصاء أو يجمعون بينها على غير نظام، فالراجح أنهم في كل ذلك متأثرون باليونان"15.

وإلى جانب هذه الاتهامات فإن الآخر يحاول أن يأخذ ما في التراث العربي على أنه واقع حقيقي من دون أن يربط الأحداث أو المواقف بعضها ببعض، وهذا يتطلب منا ليس مجرد رد التهمة أو تصحيح وجهة النظر، بل المبادرة في دراسة مواقف معينة أو أحداث مميزة لربط الأسباب بالمسببات، وإخراج الخبر في إطاره الصحيح، وفق الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية المصاحبة له، فإذا قرأنا مثلا خبرا عن مصعب بن الزبير برواية الشعبي، يتحدث عن إحضار مصعب للشعبي إلى بيته، وإظهار زوجه عائشة بنت طلحة أمامه، ثم يقول له: "لقد أتيت بك إلى بيتي، لترى جمال عائشة وتشهره بين الناس"16 أدركنا ما في الخبر من تشويه لشخصية سياسية مناوئة للدولة الأموية، فالزبيريون حزب سياسي معارض للحكم الأموي، وما قيل عنه برواية الشعبي لا يعكس حقيقة مصعب بن الزبير، وهو مضرب المثل في المروءة كما تقول عنه عائشة عبد الرحمن17، ولا حقيقة المرأة العربية في ذلك العصر، وإنما يؤخذ الخبر في إطار الحياة السياسية والعلاقات القائمة بين الأحزاب المتصارعة في ذلك الوقت، وفي مقابل هذا الخبر نقرأ شعراً لعبيد الله بن قيس الرقيات شاعر العرب الزبيري، وهو يتغزل غزلاً حسيا مكشوفاً بنساء الخلفاء الأمويين18.

الخاتمة:

فالآخر إذن يدرس التراث، وعلينا نحن أيضا أن ندرس التراث، فلا ننكر على الآخرين ما توصلوا إليه ولا نجعل ما توصلوا إليه خلاصة ما يمكن أن يُستقرأ من تراثنا، بل يجب التعامل مع التراث وفق مقاييس خاصة تحقق النظرة الشمولية المتكاملة للتراث، بعيدا عن الانتقائية الضيقة، أو المحاباة والمجاملة، والتعامل مع التراث وفق هذا المفهوم لا ينبغي أن يصرفنا عن دراسة فكر الآخر، كما أن دراسة فكر آخر لا ينبغي أن يصرفنا عن دراسة تراثنا، صحيح أن فكر الآخر يقابل بالإعجاب والقبول، ويلقى الدعم والتأييد من الجهات الرسمية وغير الرسمية، إلا أن هذا الفكر الذي يتخذ شكل الغزو والتأثير في مختلف مجالات العلم والمعرفة أصبح واقعا ملموسا في حياتنا لا يمكن تجاهله أو حتى الاستغناء عنه، ولكن ينبغي علينا مواجهته بشكل أو بآخر من خلال استلهام روح التراث وليس الانغماس فيه.

الهوامش:

1- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق وشرح د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 , 1983م، ص70.

2- حسن حنفي، التراث والتجديد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط 1 ، 1981م، ص.11

3- زكي نجيب محمود، تحديد الفكر العربي، دار الشروق، بيروت، ط5 , 1978م ، ص,30
4- زكي نجيب محمود، مرجع سابق، ص,53
5- حسن حنفي، مرجع سابق، ص,13
6- زكي نجيب محمود، مرجع سابق، ص,84
7- محمد مصطفى هداره ، مقالات في النقد الأدبي، دار القلم ، 1964م ، ص,50
8- رينيه ويليك، "مفاهيم نقدية" ، ترجمة د. محمد عصفور، سلسلة علم المعرفة، الكويت، العدد 110، 1987م، ص,40
9- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث ، ط . نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة ، ص,357
10 - محمود عياد، "الأسلوبية الحديثة.. محاولة تعريف"، مجلة فصول، المجلد الأول، العدد2 ، 1981، ص,129
11- عبد السلام هارون محمد، التراث العربي، دار المعارف,القاهرة,1978، ص,7
12- حسن حنفي، مرجع سابق، ص:21
13- سالم جبران، "هو الآخر بالنسبة لي أنا الآخر بالنسبة له". مجلة مشارف القدس وحيفا، العدد 2، 1995، ص,21
14- عبد السلام هارون، مرجع سابق، ص,49
15- محمد عبد الهادي أبو ريده ، تاريخ الفلسفة في الإسلام , ط 2، 1948م ، ص15
16- علي بن الحسين (الأصفهاني) الأغاني , دار الكتب المصرية , ج2, ص 310
17- عائشة عبد الرحمن، سكينة بنت الحسين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. ص .88.
18- ابن قتيبة, الشعر والشعراء, تحقيق أحمد محمد شاكر, دار المعارف, ص.539-540

منطقة توات في الجنوب الغربي الجزائري ودورها في تجارة القوافل الصحراوية بين القرنيين 15 و19 م

د. مبارك جعفري، جامعة أدرار الجزائر

تمهيد : كان لمنطقة توات حضور قوي ومتميز في التجارة الصحراوية بحكم موقعها الذي يتوسط الصحراء الكبرى الإفريقية وكونها همزة وصل بين مماليك السودان الغربي ومماليك شمال أفريقيا وسنتناول من خلال هذا المقال الأهمية التجارية للمنطقة وللتجارة القوافل التي لم تكن تنقل السلع والبضائع فحسب بل كانت لها أدوار على مختلف الأصعدة وساهمت في ربط العلاقة بين ضفتي الصحراء، كما ساهمت في نشر الإسلام والثقافة العربية والإسلامية في السودان الغربي.

وتكمن أهمية الموضوع وأهدافه في كونه يسلط الضوء على الجانب الحضاري للمنطقة ويبرز دور القوافل التجارية في التواصل بين الشمال والجنوب، كما يبرز لنا أهمية الحواضر الصحراوية مثل سجلماسة وولاته، ووادي مزاب، وورجلان، وغدامس... وغيرها. من خلال توات كأنموذج. ودورها في فك العزلة عن أفريقيا جنوب الصحراء ونقل مختلف المعالم الحضارية والمعارف والعلوم، وكل ذلك تم بفضل القوافل التي كانت بمثابة الشريان الذي يمدها بالحياة.

التعريف بمنطقة توات: (توات) منطقة تقع بالجنوب الغربي للجزائر، تتشكل من ثلاثة أجزاء أساسية هي: تيكورارين، وتوات الوسطى، وتيدكلت1. كما تضم أزيد من ثلاثمائة قصر على امتداد سبعمائة كلم، اختلف المؤرخون في أصل التسمية ومعناها. فبعضهم أرجعها إلى اسم مرض أصاب أصحاب سلطان مالي(كنكن موسى)2، في طريقه إلى الحج يعرف (بتوات) في لغة سنغاي، منعهم من إكمال السفر، فبقوا هناك وحمل المكان اسم المرض3. والبعض الآخر يرى أن توات اسم بربري يعني الواحات4، وغيرها من الآراء التي تتعدى العشرة، رغم اعتقادنا أن أصل الاسم بربري، لأنهم أول من سكن الإقليم. تعود عمارتها إلى ما قبل التاريخ حسب الشواهد والآثار5. كما استخدم الفينيقيون والرومان طريق توات في علاقاتهم مع الجنوب. ويعتقد البعض أن اليهود وصلوا المنطقة حوالي خمسين سنة قبل الميلاد، وبنوا قصورا هناك6. وبعد دخول الإسلام ازدادت أهمية المنطقة، خاصة بعد أن أصبحت الطريق الرئيسي للقوافل التجارية العابرة للصحراء نحو السودان الغربي، وقوافل حجيج جنوب بلاد المغرب وبلاد التكرور.

ورد اسم المنطقة في كثير من المصادر التاريخية مثل: تاريخ ابن خلدون (ت808هـ /1406م)7، كما زارها كثير من الرحالة مثل: ابن بطوطة سنة754هـ/1353م8، والتاجر الجنوي أنطونيو مالفانتي (Malfan Antonio) سنة 850هـ/1447م9، وحسن الوزان (ليون الإفريقي) سنة917هـ/1511م 10، وأبو سالم العياشي سنة1072هـ/ 1661م 11، والحاج ابن الدين الأغواطي سنة 1244هـ/1828م 12، والرحالة الألماني جير هارد رولفس سنة 1280هـ/1864م 13... وغيرهم. وحسب إحصاءات تعود لسنة 1319هـ/1901م بلغ عدد سكان توات حوالي

(52099) موزعين على قورارة (22889) نسمة، توات الوسطى (20388) نسمة، تيدكلت(8822) نسمة، وتضم ثلاثمائة وتسعة عشر قصرا و(1450185) نخلة حسب إحصاء رسمي، رغم أن البعض قدر العدد ب (2500000) نخلة 14.

. الأهمية التجارية لتوات : بدأت الأهمية التجارية توات منذ عهود قديمة وهو ما تؤكده المصادر والشواهد الأثرية والأبحاث15, التي تثبت بما لا يقبل مجالاً للشك, أن الصحراء الكبرى كانت دائماً محل اختراق تجاري منذ العهود القرطاجية, والرومانية القديمة بالمغرب. وقد لعبت القبائل البربرية والواحات الصحراوية بما فيها توات, دور الوسيط التجاري النشط بين بلاد السودان والمحطات التجارية في الشمال, ومن هذه المحطات كانت تسير القوافل محملة بالثياب, والمنسوجات, والملح, وببضائع أخرى, من جنوب أوربا, وغرب آسيا, إلى بلاد السودان، وكانت تعود منها بالذهب, والعبيد, والعاج, ومنتجات أخرى.

ولم تتوقف الأهمية التجارية للمنطقة بعد دخول الإسلام، بل على العكس من ذلك تواصلت وبوتيرة أقوى, خاصة مع قيام الدولتين الصفرية بسجلماسة، والإباضية بتيهرت, وازدهار علاقاتهما التجارية مع السودان الغربي16, واستمرار قيام المماليك في الشمال والجنوب ووقوع المنطقة في مفترق الطرق بينهما.

وزاد من أهمية الإقليم قيام دولة المرابطين في القرن الحادي عشر الميلادي, وسقوط مملكة غانا, وبالتالي تراجع الطرق التجارية الصحراوية الغربية بين مراكش وغانا, وتحول الأنظار إلى وسط الصحراء, خاصة بعد قيام مملكة مالي في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي, وبروز مدينة تمبكتو كعاصمة تجارية في الضفة الجنوبية, مما أصبح لزاما على القوافل الذاهبة جنوباً المرور بتوات.

ولابد من الإشارة بعد ذلك إلى الدور المبكر, الذي لعبه التجار التواتيون, في التجارة داخل الإقليم وخارجه, حسب شهادة التاجر الجنوي انطونيو مالفانتي (Antonio Malfante), هذا الدور الذي بدأ منذ القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي, وكان أحد الأسباب التي جعلت اليهود يستقرون في الإقليم ويمارسون التجارة, إلى جانب أنشطة أخرى سياسية, ودينية, توقفت بعد مجيء الشيخ بن عبد الكريم المغيلي لتوات سنة 891هـ/1488م, وانتفاضته ضد اليهود, رغم المعارضة الشديدة التي وجدها من طرف علماء المنطقة وخارجها, ولم يكتفي بمطاردتهم في توات بل تبعهم إلى السودان الغربي, وتمكن من وضع حد لنشاطهم التجاري هناك17.

ولم يكن الاهتمام بتوات مقتصرا على اليهود, بل تعداه إلى الأوربيون, الذين حاولوا اكتشاف القارة السمراء ابتداء من ق 9هـ/15م, والوصول إلى ذهب السودان انطلاقا من الصحراء

عامةً, ومن توات خاصة, لأنها مكان تجتمع فيه القوافل القادمة من مختلف الجهات, وبالضبط مدينة تمنطيط حسب ابن خلدون18, ومنها يخرجون إلى بلاد السودان.

ويأتي في مقدمة الأوربيون التجار الإيطاليون, خاصة الجنويون منهم, وقد تمكن التاجر الجنوي أنطونيو مالفانتي (Antonio Malfante), من الوصول إلى توات سنة850هـ/1447م, ثم العودة منها إلى جنوة, بعد أن أقام بها سنتين تقريبا, وورد على لسانه أن مضيفه في توات كان تاجراً مغربياً غنياً, عاش في بلاد السودان لمدة 14 سنة, وصرح له بأنه جمع ثروة تصل إلى مائة ألف دينار، أي حوالي 425 كلغ من الذهب19. لقد جمع مالفانتي (Malfante) معلومات كبيرة حول توات20, والمناطق القريبة منها عامة, وعن تجارة الذهب, والتجارة الصحراوية خاصة, وتمكن من إرسال رسالة من توات إلى محله التجاري في جنوة21.

ولم يكن (مالفانتي Malfant) الوحيد من أشار إلى هاته الأهمية, بل حذا حذوه الرحالة الذين زاروا المنطقة بعده, ومنهم الجغرافي الشهير الحسن الوزان عندما زار إقليم توات عام 917هـ/1511م, وأثناء حديثه عن تينجورارين في كتابه "وصف أفريقيا" يصف سكانها بالأغنياء, وأنهم يذهبون بسلعهم بكثرة لبلاد السودان, ثم يذكر أنه في توات تجتمع القوافل من البربر مع تجار بلاد السودان, وتقام هناك أسواق كبيرة, وذكر لنا بعض السلع التي تباع هناك كاللحوم, وقال أن أسعارها مرتفعة, ولهذا تراهم . يقول . يشترون لحم الجمال والشحم المالح, الذي يأتي به تجار فاس وتلمسان, وتحصل لهم منه أرباح كثيرة22.

أما أبو سالم العياشي, فقد اتخذ طريق توات في سفره إلى الحج, رغم وجود طريق بنفس المستوى شمالا, اقرب من طريق توات, لكن فضل هذا الأخير مع حجيج بلاده, لتوفره على الماء والكلأ, ولكثرة الواحات به, مما يوفر محطات للراحة منتظمة في الطريق, وهي أشياء أساسية للركب23. ويصف لنا العياشي الحياة التجارية بالإقليم خلال القرن 11هـ /17م, وبالضبط سنة 1072هـ/1661م بالمزدهرة, وأن أهل تسابيت أحد قصور توات, أصحاب تجارة, كما أن بلاد توات هي مجمع القوافل من بلاد السودان الغربي, وتقام هناك أسواق كبيرة عند قدوم القوافل التجارية, توجد بها كثير من السلع مثل: الخيل, الملابس, الحرير. كما أن الحجاج المغاربة يشترون ما يحتاجون إليه من التمر والذهب من توات, لآن أثمانها رخيصة, مقارنة مع المغرب, وكذلك سعر الصرف, فعدد المثقال فيها أربع وعشرون موزونة, وعندما وصل إلى اوقروت, إحدى القصور الشمالية لتوات, اشترى جميع ما يحتاج إليه قبل أن يكمل طريقه إلى الحج24. وفي القرن التاسع عشر ذكر بارث(Barth) انه شاهد قافلة كبيرة من توات وهي تغادر تمبكتو في شهر محرم 1270هـ/أكتوبر سنة 1853 25. ويقول رولفس(Rohlfs)، أن القوافل التواتية عادة ما تعود من السودان في كل مرة ومعها بين ستمائة إلى ألف وسبعمائة عبد، وحوالي

خمسين رطلا من التبر، وكميات من ريش النعام والعاج26. اما دوماس(Daumas) فيذكر أن هناك أسواقاً متعددة خصص كل واحد منها لبيع سلعة معينة، فهناك سوقا للسمن، وسوقا للسراجين، وسوقا للقماش، وسوق للعبيد، وسوق للعطارين، وسوق للأغذية، وسوق للتبغ، وسوقا للماشية27.

إن ما أشار إليه الرحالة من كثرة الأسواق والسلع بتوات, ورخص أثمانها, وانتظام قدوم وخروج القوافل منها, واجتماعهم بها, دليلا على التطور الاقتصادي, وازدهار النشاط التجاري بها, وتحولها من مجرد نقطة عبور في الصحراء إلى سوق تجارية مربحة, يقصدها التجار من كل حدب وصوب, وأن دل هذا على شيء فإنما يدل على الدور الاقتصادي والتجاري الكبير الذي لعبه إقليم توات ابتداء من القرن الثامن إلى غاية القرن التاسع عشر الميلاديين, ليس في شمال أفريقيا فحسب, بل ودون مبالغة في التجارة الدولية انطلاقا من البحر الأبيض المتوسط, التي ربطت القوافل مدنه الجنوبية: كالجزائر, وهران, تونس, طنجة, مع الصحراء. وكان الذهب محور التجارة ومحركها الأساسي, إلى جانب: العبيد, العاج, التوابل, التمر, الحبوب, الملابس, الفواكه الجافة..... الخ.

ـ عوامل ازدهار تجارة القوافل بتوات: ما كان لهذا الرخاء التجاري أن يتحقق, لولا تضافر مجموعة من العوامل توفرت في المنطقة نذكر منها:

. موقعها الإستراتيجي الذي يتوسط الصحراء, ويربطها بمختلف الجهات الشمال بالجنوب والشرق بالغرب.

. وجود الماء في منطقة جدبه, محاطة بالعروق والكثبان الرملية, مما يجعل إمكانية تجاوزها من طرف القوافل امرأ مستحيلا.

. كثرة قصورها, وامتدادها الجغرافي (أكثر من أربعة عشر يوما تقريباً المسافة بين أبعادها), مما يوفر للتجار والحجيج بيئة متصلة يسهل فيها الحصول على الماء والزاد, وسط صحراء قاحلة.

. وجود عدد كبير من السكان وتنوع أجناسهم, مما يوفر للتجار سوقاً استهلاكية واسعةً ومربحة.

. توفرها على الأمن, خاصة بالنسبة للأجانب, اللذين يجدون فيها كل احترام وعناية, وخير دليل على ذلك؛ وصول التاجر الجنوي لها وبقائه سنتين, ثم عودته منها سالماً دون أن يلحق به أذى, ويؤكد هذا الطرح الحسن الوزان بقوله عن أهل توات: "وكثيرا ما يتقاتلون بينهم ويتطاحنون, إلا أنهم لا يمسون الغرباء بسوء"28.

. وجود عدد كبير من التجار وانتشار النشاط التجاري بين السكان وتذكر بعض المصادر أنه كان في تمبكتو في سنة 1287هـ/1870م حوالي ستمائة تاجر تواتي مقابل خمسة وعشرين

تاجر من تافيلالت، وكان أغلب سكان أقبلي من الرجال قد سافروا إلى السودان مرة واحدة على الأقل29.

- وجود شبكة من الطرق التجارية تربط الإقليم بباقي المناطق, ومن مختلف الجهات, وغالبيتها عبارة عن مجاري الأودية الجافة30, التي بها ينابيع توفر الماء لسالكي الصحراء, وتمتاز بمتانة تربتها, مما يساعد على السير, وتضم معالم يسهل أتباعها, كما تنموا على جنابتها الأعشاب والحشائش, مما يوفر للإبل غذاءها.

أهم الطرق التجارية التي ربطت توات بمختلف الجهات:

أ . نحو الجنوب31:

1) توات ← حاسي حسده ← حاسي البوز ← المالح ← رقلة ← بير ذهب ← تنصر ← صبطي ← طرفية ← ندقوير ← تليق ← تاودسني ← تمبكتو.

2) توات ← أقبلي ← مراقن ← والن ← الأربعمائة ← تجنوت ← أشوراد شبي ← أنافيس ← أماهور.

3) توات ← مراقن ← والن ← تنزروفت ← البرج ← حاسي باكتليس ← تساليت ← أقاهوك ← أنافيف ← تبرشات ← تبنكورت ← تنقارا ← بوراغن ← غاو.

نحو الشمال 32:

1) توات ← ايقلي ← فيقيق ← عين الصفراء ← مشرية ← الخيثر ← ارزيو ← وهران.

2) توات ← أقبلي ← عين صالح ←ميزاب ←ا لأغواط ← المدية ← البليدة ← الجزائر وفي مزاب يلتقي مع طريق ورقلة ← توقرت ← بسكرة ← باتنة ← قسنطينة ← سكيكدة. ولهذا الطريق فرعا آخر, ينطلق من توات ← تيميمون ← ميزاب وهنا يلتقي بالطريق الأول, ومنه إلى العاصمة, وقد سلكه الشيخ عبد الرحمان بن إدريس بن عمر التنيلاني, في رحلته نحو مدينة الجزائر سنة1231هـ/ 1815م33 .

3) توات ← تبلكوزة ← المنقب ← الأبيض سيد الشيخ ← البيض ←الخيثر وفيها يلتقي بالطريق الأول.

نحو الغرب :

1) توات ← ايقلي ← ام دريبينة ← قصبة المخزن ← مكناس ← فاس.

2) توات ← ايقلي ← فيقيق ← سجلماسة ← تافلالات ← فاس.

3) توات ← تبلبالت ← قصبة تنزولين ← وادي درعة ← مراكش.

نحو الشرق34 :

1) توات ←ارسلمن ← الزريبة ← لمسقم ← البيد ← تنغين ← غدامس ← طرابلس ← برقة.

2) توات ← اغستن ← غزي وليد مسعود ← ارسلمن. وهنا يلتقي بالطريق الأول باتجاه غدامس .

3) توات ← تنجقن ← أمسارح ← غاريس ← أمغيدة ← انتفوسن ← خلغام ← تارسيت ← أركنيرا ← عيدو ← فايوت ← غات ← فزان.

ومن الطرق الرئيسية التي تمر بالإقليم, طريق الحج, يربط هذا الطريق فاس وتافيلالت, مع توات, وهنك يلتقي مع طريق الحجاج القادمين من السودان الغربي, ومنها إلى: عين صالح, غدامس, برقة, الإسكندرية, ثم البقاع المقدسة, وتستغرق هاته الرحلة سنة كاملة.

ويمكن ملاحظة أن توات تتوسط تقريبا أربعة مدن برزت في التجارة الصحراوية وهي:

1 . غدامس شرقاً, وتبلغ المسافة بينها وبين توات سبعة وعشرين يوما تقريباً.

2 . تمبكتو جنوباً, وبينها وبين توات تسعة وعشرين يوما من أقبلي.

3 . فاس غرباً, وبينها وبين توات اثنان وثلاثون يوما 35.

4 . مدينة الجزائر شمالاً, وبينها وبين توات ثلاثون يوما.

مع العلم أن المسافة بين تبلكوزة شمال توات وعين صالح جنوبها أربعة عشر يوما تقريبا.

الخاتمة:

يمكن القول أن منطقة توات لعبت دورا كبيرا في تجارة القوافل الصحراوية، بوصفها إحدى مراكز العبور الأساسية، خاصة بعد سقوط مملكة غانا وقيان مملكة مالي، وتدحرج محور التجارة نحو وسط الصحراء، كما ربطت مدن الشمال كبجاية وتلمسان وفاس وورجلان وغدامس بمدن الجنوب كتمبكتو وجني وقاو، كما لعبت التجارة دورا كبيرا في ازدهار المنطقة وتطورها في مختلف المجالات, وجعلت منها ملجأ للعلماء, والتجار, والحرفيين, ممن ضاقت بهم سبل العيش في أماكن أخرى, استقروا في توات, وأسهموا في نهضتها وتطورها. كما أن موقعها وأهميتها التجارية كانا احدي الأسباب الرئيسية وراء تزايد الأطماع حولها, ومحاولة ضمها والسيطرة عليها من طرف البعض.

الهوامش:

1- تشمل حاليا ولاية أدرار (محافظة) التي تضم 28 بلدية و11 دائرة، وأزيد من ثلاثمائة قصر، وحوالي 400 ألف نسمة. تبعد عن الجزائر العاصمة حوالي 1450 كم جنوبا. كما تشمل تاريخيا دائرة عين صالح التابعة إداريا لولاية تمنراست.

2- هو الملك منسا موسى أبو بكر. تولى مقاليد مملكة مالي الإسلامية سنة 712هـ/1312م، وعرف عصره بالازدهار والتوسع. اشتهر في المشرق الإسلامي برحلته الشهيرة إلى الحج سنة 725هـ/1325م. توفي سنة 738هـ/1337م، وقيل سنة 734هـ/ 1333م. ينظر: عبد الرحمن بن عبد الله السعدي: تاريخ السودان. طبعة

هوداس، باريس، 1981م، ص07 ؛ محمود كعت: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس. نشر هوداس، باريس، 1964، ص 32 وما بعدها. وأيضا:

Robert Cornevin: Histoire de l'Afrique, imprimerie Bussière, paris,1962, P.352.

3- عبد الرحمن السعدي: المصدر السابق، ص07.

4- Reclus Élisée: Nouvelle Géographie universelle, T.XI (L'Afrique septentrionale), Paris,1886, P. 845.

5- Camps. G : Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara, Doin, Paris, 1974. P. 219.

6- Bernard Saffroy: chronique de Touat, centre saharien, Ghardaïa, Algérie, 1994,P. 01.

7- عبد الرحمان ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر, تحقيق خليل شحادة ومراجعة سهيل زكار, 08 أجزاء, دار الفكر للطباعة, بيروت, لبنان,2001م,ج7, ص77.

8- ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. دار صادر، بيروت، 2001م، ص ص406- 407.

9- نياني ج .ت وآخرون: تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع (إفريقيا من ق 12 إلى ق 16) . اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1988م، ص671.

10- الحسن بن محمد الوازان (ليون الإفريقي): وصف إفريقيا، ج2. ترجمة محمد حاجي، ومحمد الأخضر، ط. 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م، ص 133.

11- عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية 1661م - 1663م. ج 1. تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 2006، ص 79 وما بعدها.

12- الحاج ابن الدين الأغواطي: رحلة الأغواطي في شمالي إفريقية والسودان والدرعية. ترجمها من العربية إلى الانجليزية ويليام ب .هودسون، وترجمها إلى العربية أبو القاسم سعد الله، وأوردها في كتابه أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج2. ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1990م، ص ص 257، 258.

13- إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ص 25.

14- Fillias Achille : Dictionnaire des communes de l'Algérie…, Alger, 1903, p210.

15- للمزيد حول الموضوع انظر: فريدة بن عزوز: أبحاث تادِيوش لفيتسكي في فجر العلاقات التجارية بين ضفتي الصحراء الكبرى, مجلة التاريخ العربي, مجلة علمية محكمة تعنى بالتاريخ العربي والفكر الإسلامي, تصدرها جمعية المؤرخين المغاربة, العدد20, خريف 2001م, ص17وما بعدها.

16- محمد الطمار: الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج, الشركة الوطنية للنشر والتوزيع, الجزائر, 1983, ص 96.

17- للمزيد أنظر: فوزي سعد الله: يهود الجزائر هِؤلاء المجهولون, ط2, دار الأمة, الجزائر, 2004م, ص 67 وما بعدها.

18- ابن خلدون: المصدر السابق، ج7, ص77.

19- محمد الشريف: الجالية المغربية ببلاد السودان الغربي (ق 8 هـ/ 14 م) ملاحظات حول دورها في التفاعل الحضاري بين ضفتي الصحراء, مجلة التاريخ العربي : المرجع السابق, قسم 54, ص09.

20- نياني ج .ت وآخرون: المرجع السابق. ص671.

21- نفسه, ص 620.

(22) الحسن الوازان : المصدر السابق, ج2, ص ص133, 134.

23- مولاي بالحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني, ط2, الشركة الوطنية للنشر والتوزيع, الجزائر, 1981م, ص 25.

24- العياشي: المصدر السابق، ج1، ص 80 وما بعدها.

25- Henri Barth(1821-1865) : voyages et découvertes dans l'Afrique septentrionale et centrale pendant les années 1849 à 1855, Paris, Bruxelles, 1863, t4, p54.

26- Deporter Victor Benjamin (1842-1893) : La Question du Touate au Sahara Algérien Gourara-Touat- Tidikelt, Imp Fontana, Alger, 1891, p42

27- Cid–El- Hadj-Abd al-Kader-Ben-Abou-Bekr at-Touaty : Le Sahara et le Soudan documents historiques et géographiques, traduits l'Arabe par M.L'Abbé Bargès, Paris, 1853, p 15.

28- الحسن الوزان: المصدر السابق, ج2, ص 134.

29- محمد أعفيف: مساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي والسياسي لواحات الجنوب الغربي توات في القرن 19، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، إشراف الأستاذ حرمان عياش، شعبة التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس الرباط، 1982، ص 143.

30- فرج محمود فرج: إقليم توات خلال القرنين 18و19م, ديوان المطبوعات الجامعية و المؤسسة الوطنية للكتاب, الجزائر. بدون تاريخ, ص 78.

31- محمد حوتيه: توات والقوافل التجارية, طريق القوافل: منشورات المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ, مطابع عمار قرفي, باتنة الجزائر,2001م, ص 35.

32- مياسي إبراهيم : الاهتمام الفرنسي بالصحراء, طريق القوافل , المرجع السابق, ص86.

33- عبد الرحمان بن إدريس التنيلاني: رحلة إلى الجزائر, مخطوط، د ر، خزانة تنيلان, ادرار, الجزائر.

34- حسين جاجوا: دور غدامس التجاري ما بين طرابلس والسودان الأوسط والغربي خلال1850/1881م, رسالة لنيل دبلوم الدراسات المعمقة, إشراف د عبد القادر زبادية, جامعة الجزائر ,1981م, ص52 وما بعدها.

35- نفسه, ص58.

الحركية السكنية في أنواكشوط : الفقراء الأكثر دينامية !

د. محمد ولد أعبيد

أستاذ جامعي

لا تقتصر دراسة الممارسات المجالية لسكان المدن على حركتهم اليومية بل تشمل جوانب أخرى تتعلق بالدينامية السكنية. وهو ما يسمح بتشخيص أحد أهم الجوانب الحياتية للسكان من خلال التعرض لآليات وميكانيزمات النمو الحضري وتباين المستويات في ظل وجود فوارق طبقية واضحة. تستمد الحركية المجالية جذورها من أوضاع اجتماعية متنوعة أهمها السكن، لما قد يصاحبه من مضاربات عقارية وتمييز فصلي1. وتساهم الحركية السكنية كممارسة مجالية في تشكيل المجال الحضري، كما تعبر إلى حد كبير عن إستراتيجيات وخيارات الأسر حيث تكشف عن علاقة السكان بالمجال2.

تكتسى دراسة الحركية السكنية أهميتها من التغيرات التي تعرفها مجالات المدينة الحديثة من تراتبية وتفاضل مختلف مناحي الحياة : الاقتصادية والاجتماعية التي يمثل الجانب السكني أحد محاورها الجوهرية. وترتبط معظم التحولات التي تعرفها المدن الحديثة بالحركية السكنية للأفراد إجبارية كانت أم إرادية حيث يمثل شقف حب السكن غير بعيد عن مكان العمل ومناطق تواجد الخدمات الحيوية، رغبة في تحسين مستوى ظروف الحياة، أحد المظاهر البارزة للحركية السكنية وإعادة التموضع ضمن المنظومة المجالية الحضرية3.

تشكل الحالة المادية أكثر المعايير تحكما في تباين الحركية السكنية داخل المجال الحضري بين سبل الارتقاء لهدف الحصول على سكن ملائم من الناحية المعمارية أو المحيط الطبيعي أو الوسط الاجتماعي لمن سمحت لهم ظروفهم الاقتصادية بذلك. في المقابل قد تنجم عن نفس الظروف حركية سكنية تراجعية أي الانتقال من مستوى أفضل إلى درجة أقل بفعل ضغوطات الإيجار أو الجيران أو ظروف العمل أو لغرض التملك العقاري إذ غالبا ما يدخل تغيير السكن ضمن حركية مجالية تعمل على تطابق المواقع المجالية والسسيو– اقتصادية4. فمن أي زاوية يمكن تصنيف الحركية السكنية لسكان العاصمة أنواكشوط بشكل عام وفئاتها الفقيرة تحديدا ؟ هل الممارسات المجالية لسكان هذه المدينة يغلب عليها الطابع الارتقائي أم أنها حركية تراجعية ؟ ما هي خصائصها ومظاهرها العامة ؟ كيف تتوزع أهم أدفاقها (Flux) واتجاهاتها مجاليا أي ما هي الوجهة الجغرافية لتلك المسارات السكنية؟ ما هي أبرز دوافعها ؟ كيف ترتسم خريطة الحركية السكنية للطبقة الفقيرة داخل المدينة ؟ وأخيرا أي علاقة بين هذه الحركية وديناميةالتنظيم المجالي للمدينة ؟. تسترعي الإجابة على هذه التساؤلات ضرورة تتبع تاريخ المسارات السكنية للمستجوبين عبر محاولة حصر عدد مرات تغيير السكن.

1. أهم المسارات السكنية في أنواكشوط

تعتبر ظاهرة تغيير السكن سلوكا مألوفا لدى سكان العاصمة أنواكشوط بصفة عامة إذ أعرب 72,07% (947 مستجوبا) من مستجوبي العينة عن تغيرهم لسكنهم، بمتوسط تنقل عام 1,9% للأسرة الواحدة. في المقابل ذكرت نسبة 27,93% (367 مستجوبا) أنها لم تغير سكنها (العمل الميداني، 2010)5.

تباينت الحركية السكنية بشكل واضح بين مناطق المدينة. ففي الوقت الذي يميل فيه سكان المقاطعات الغنية نحو الثبات والاستقرار السكني تتميز تلك الفقيرة بحركية سكنية نشطة. ذلك ما عكست مدى صحته بيانات العمل الميداني التي أظهرت أن معدل الحركية السكنية لم يتجاوز لدى أرباب العائلات المستجوبة بالمقاطعتين المركزيتين الغنيتين تفرغ زين ولقصر 4,4% و9,2% على التوالي، بينما شهد نفس المعدل ارتفاعا ملحوظا بالمقاطعات الطرفية الفقيرة : الرياض 90,8% ودار النعيم 85,2% وعرفات 77,8% والميناء 69,3%.

الجدول (01) : معدل الحركية السكنية ومتوسط التنقلات حسب الفئات السكانية (%)

المقاطعة	الحركية السكنية						متوسط نسبة التنقلات	
	الفقراء		غير الفقراء		المجموع		الفقراء	غير الفقراء
	العدد	%	العدد	%	العدد	%		
تيارت	43	%94,3	32	%50,7	75	68,8	%2,7	%1,3
لقصر	02	%20,2	06	%8,3	08	9,2	%0,5	%0,1
ت . زين	01	%9,5	03	%3,9	04	4,4	%0,1	%0,01
توجنين	60	%97,6	69	%74	129	83,2	%2,4	%2
السبخة	75	%98,1	124	%89,1	199	92,5	%2,8	%2,1
الميناء	63	86	34	%50,9	97	69,3	%2,6	%1,9
عرفات	68	%92,5	79	%68,5	147	77,8	%2,7	%1,5
دار النعيم	77	%97,4	73	%75,6	150	85,2	%3,01	%2,7
الرياض	86	%97,1	52	%80,6	138	90,8	%3,2	%2,8
المجموع	475	%92,4	472	%59,7	947	72,07	%1,9	0,9

المصدر : العمل الميداني، 2010

يُفَسَر انخفاض نسبة التنقلات على مستوى المقاطعات الأولى بجملة من العوامل المساعدة على الاستقرار. فبالإضافة إلى ميزة الموقع المركزي وما يرمز إليه من دلالة التقرب لمكان العمل، ومحاور النقل الأساسية، هنالك أيضا عامل ملكية السكن وسهولة الحصول على

الخدمات الحيوية المميزة، ثم معيار الأقدمية حيث شكلت هذه المقاطعات أولى محطات الاستقرار السكني بالمدينة.

في المقابل يعزى ارتفاع النسب في المقاطعات الثانية لحداثة نشأتها، كما أن أغلب من يسكنها نازحون جدد لم يستقر معظمهم بعد. بالإضافة إلى المكانة الهامة التي لا زال يمثلها السكن غير القانوني في حظيرتها السكنية، مما جعل مشكل ملكية المسكن أمر مطروح بإلحاح، حيث يعمل سكان المناطق غير القانونية على التنقل باستمرار من منطقة لأخرى طمعا في الحصول على قطعة أرض سكنية. وهي ظاهرة كثيرا ما ميزت مسار الإعمار بتلك المناطق الحديثة النشأة6. تشير معطيات الجدول السابق رقم (01) إلى أن سكان المقاطعات المركزية (تفرغ زين ولكصر) أكثر استقرارا، مقارنة بنظرائهم من المناطق الهامشية الأكثر حركية، مما يبرر عدم اندماجها مجاليا وارتباطها الضعيف بالمنظومة الاقتصادية للمدينة.

كما تُبيّنُ نفس المعطيات تفاوت عدد تنقلات الأسر، التي وصل متوسطها العام بكامل المدينة 1,9%، بين المقاطعات حيث سجلت الدراسة أقل متوسط بالمقاطعتين المركزيتين تفرغ زين (0,7%) ولقصر (0,9%) مقابل 3% بكل من الرياض ودار النعيم الطرفيتين (العمل الميداني، 2010).

الجدول (02) : التركيبة السكنية للفئات الفقيرة المستجوبة بأنواكشوط 2010

عدد التنقلات / المقاطعة	لم يتنقل		نقلة واحدة		تنقلان		ثلاث تنقلات		أربع تنقلات		أكثر		المجموع
	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	
تيارت	03	6,5	04	8,7	17	37	15	32,6	06	13	01	2,2	46
لقصر	08	80	01	10	01	10	–	–	–	–	–	–	10
تفرغ زين	07	87,5	01	12,5	–	–	–	–	–	–	–	–	08
توجنين	01	1,6	15	24,6	26	42,6	12	19,7	06	9,8	01	1,6	61
السبخة	01	1,3	13	17,1	20	26,3	24	31,6	14	18,4	04	5,3	76
الميناء	10	13,7	10	13,7	18	24,7	20	27,4	10	13,7	05	6,8	73
عرفات	06	8,1	03	4,1	24	32,4	21	28,4	16	21,6	04	5,4	74
دار النعيم	02	2,5	03	3,8	23	29,1	26	33	19	24	06	7,6	79
الرياض	01	1,1	05	5,7	23	26,4	43	49,5	12	13,8	03	3,4	87
المجموع	39	7,6	55	10,7	152	29,6	161	31,3	83	16,1	24	4,7	514

المصدر : العمل الميداني، 2010

تعكس مراجعة بيانات الجدول السابق (رقم 02) مستوى الحركية السكنية بالعاصمة أنواكشوط حيث جاءت نسبة الاستقرار السكني منخفضة (27,93%) مع وجود تفاوت واضح

بين مقاطعاتها. إذ تبدو النسبة منخفضة جدا (7,6%) بالمناطق الطرفية ذات الأغلبية السكانية الفقيرة كالرياض (1,1%) والسبخة (1,3%) وتوجنين (1,6%) ودار النعيم (2,3%)، مقابل ارتفاعها (نسبة الاستقرار) الملحوظ بالمقاطعتين المركزيتين تفرغ زين (87,5%) ولقصر (80%) ذات الفئات السكانية الميسورة (العمل الميداني، 2010).

ومن جهة ثانية تظهر تلك النتائج مدى أهمية نسبة تغيير السكن حيث أعرب 10,7% من أرباب الأسر الفقيرة (55 مستجوبا) عن تنقلهم سكنيا مرة واحدة و29,6% مرتين و16,1% (أي 83 مستجوبا) ثلاث مرات، وأخيرا 4,7% أزيد من ذلك. في المقابل ذكر 7,8% من مجموع أفراد العينة (البالغ عددها 1314) أنهم غيروا سكنهم مرة واحدة و14,9% مرتين و1,6% أزيد من أربع مرات (العمل الميداني، 2010).

عموما يبدو سكان المقاطعات الطرفية الفقيرة أكثر حركية سكنية لما تمتاز به من ديناميكية وسرعة في التحول، حيث لا زال معظمها في طور النشأة وأغلبية من يسكنها مهاجرون جدد. إضافة إلى المكانة الهامة التي لازال يمثلها السكن الفقير (غير القانوني)، مما جعلها مهيأة في أي لحظة للترحيل أو الهدم تحت غطاء عدم الشرعية. وهو ما جعل معظم سكانها يتنقلون عدة مرات بين مختلف الأحياء غير القانونية قبل أن ينتهي بهم المطاف في أحيائهم السكنية الحالية.

الرسم البياني (01) : عدد التنقلات السكنية للأسر الفقيرة المستجوبة على مستوى أنواكشوط 2010

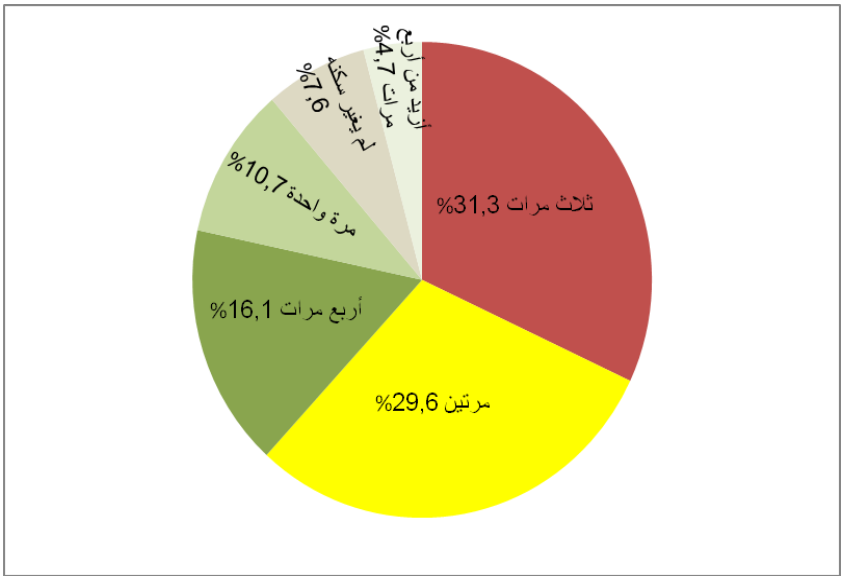

المصدر : العمل الميداني، 2010

ترتبط إذن نسبة تفاوت تغيير السكن وعدد تنقلات الأسر المستجوبة بعدة أبعاد أهمها المعيار الاقتصادي والاجتماعي والمهني.

أ. العامل الاقتصادي ودوره في تغيير السكن

تتحكم الظروف الاقتصادية للأفراد والأسر في اتخاذ القرار المناسب بتبديل محل سكنهم نحو مسار ارتقائي عبر التحول من مستوى ضعيف إلى آخر ملائم أو على العكس أن تتم تلك الحركة وفق مسار تراجعي7. ففي جل البلدان النامية يُجْبِرُ ضعف الدخل، جراء البطالة وعدم انتظام الشغل وانتشار الفقر والإقصاء، أعدادا هامة من سكان المدن إلى إعادة التموضع عبر تغيير السكن نحو الأسوأ 8. على مستوى العاصمة أنواكشوط تبين أن نسبة تغيير السكن تزداد طرديا مع مستوى انخفاض الدخل. فأغلبية من تعودوا على تغيير سكنهم باستمرار من ذوى الدخل المنخفض. وهو ما يظهر من خلال ارتفاع النسب بالمقاطعات التي سجلت أهم معدلات للفقر كالرياض التي لم تتجاوز بها نسبة الاستقرار (Stabilité) 1,1% ودار النعيم 2,5%. في المقابل تشكل زيادة الدخل حافزا على الاستقرار السكني كحال مقاطعتي تفرغ زين ولقصر الغنيتين اللتان جاءت بهما النسبة مرتفعة (87,5% و80%) على التوالي (العمل الميداني، 2010).

وبالمقابل يلعب مستوى الدخل دورا هاما في عدد التنقلات حيث أظهر العمل الميداني أن عدد هذه الأخيرة يسير عكسيا مع زيادة مستوى الدخل، إذ كلما زاد الدخل قل عدد مرات التنقل. فعلى سبيل المثال قلت تنقلات أصحاب الدخول المرتفعة (أزيد من 90 إلف أوقية) عن مثيلاتها لدى نظرائهم من أصحاب الدخول الضعيفة (أقل من 30 ألف أوقية)، حيث تبين من خلال السؤال شفهيا أن كثيرا من أرباب الأسر الفقيرة أجبرتهم حالتهم المادية المتردية على التحول صوب المناطق ذات الإيجار السكني الأرخص.

خريطة : الحركية السكنية بمختلف أحياء انواكشوط، 2010

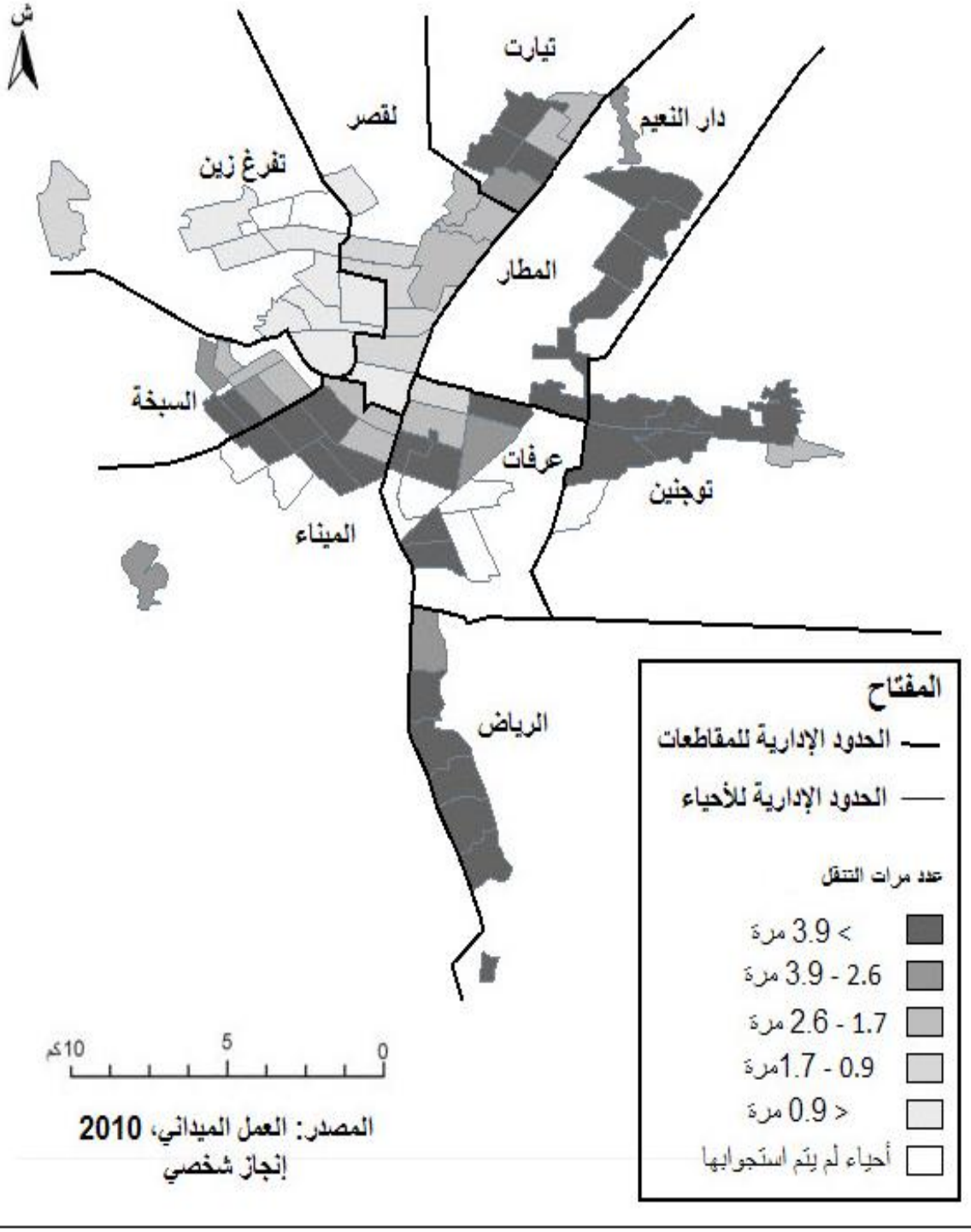

المصدر: العمل الميداني، 2010
إنجاز شخصي

الجدول (03) : عدد التنقلات السكنية حسب شرائح الدخل بمدينة أنواكشوط 2010

نسبة الحركية السكنية	% تغيير السكن		عدد التنقلات											
			لم يغير السكن		مرة واحدة		مرتان		ثلاث		أربع		أكثر		المجموع
شرائح الدخل الشهري	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	
أقل من 30 ألف أوقية	109	33,7	30	9,2	53	23	76	32,9	82	35,5	18	7,8	02	0,8	231
من 30 – 60 ألف	120	30,4	58	14,7	71	23,5	119	39,4	105	34,8	05	1,6	02	0,7	302
من 60 – 90 ألف	43	13,1	125	38,1	97	41,3	112	47,7	25	10,6	01	0,4	–	–	235
أكثر من 90 ألف	12	4,5	154	55,7	124	69,3	42	23,5	03	1,6	10	5,6	–		179
المجموع العام	947	72,07	367	27,93	345	36,4	349	36,9	215	22,7	34	3,6	04	0,4	947

المصدر : العمل الميداني، 2010

تشير البيانات السابقة إلى أن أصحاب الأجور المنخفضة (أقل من 30 ألف أوقية) يشكلون الفئة السكانية الأكثر دينامية، إذ وصلت نسبة الاستقرار لديهم 9,2%، حيث غير 23% سكنهم مرة واحدة و32,9% مرتين و44,1% من ثلاث مرات فما فوق. في المقابل يبدو ذوى الدخل الشهري (30– 60 ألف أوقية) أكثر استقرارا (14,7%)، بينما غَيّر 37,1% سكنهم من ثلاث مرات فما فوق و(39,4%) مرتين و(23,5%) مرة واحدة (العمل الميداني، 2010).

وفي نفس السياق تبين أن الشريحة الثالثة ذات الدخل (60– 90 ألف أوقية) أكثر استقرارا (38,1%)، إذ غيّر (11%) سكنهم أزيد من ثلاث مرات و(47,7%) مرتين و(41,3%) مرة واحدة. وأخيرا تبين أن الشريحة التي يزيد دخلها الشهري على 90 ألف أوقية الأكثر استقرارا (55,7%) حيث غيّرَ (7,2%) سكنهم أزيد من ثلاث مرات و(23,5%) مرتين بينما لم يغيره (69,3%) سوى مرة واحدة (العمل الميداني، 2010).

تفسَر زيادة عدد مرات تغيير السكن لدى شرائح الدخل الضعيف مقارنة بمثيلاتها من الدخول المرتفعة بعدة عوامل أبرزها تدني الحالة المادية جراء انتشار البطالة ونقص الشغل وعدم استمرار يته لدى الفئة الأولى : نصفها (48,5%) إما عمالة يومية أو موسمية أو باحثين عن العمل. بينما يعزى انخفاض النسبة لدى الفئة الثانية إلى تحسن المستوى المادي جراء تعدد مصادر الدخل والاستمرارية في العمل القار.

ب. تباين تغيير السكن حسب الوضعية المهنية

تلعب الوضعية المهنية دورا هاما في تفاوت نسبة الاستقرار وتباين عدد مرات تغيير السكن. فقد تبين أن موظفو الدولة أكثر الشرائح المهنية استقرارا (36,2%)، مقابل (21,9%) لمأجوري القطاع الخاص. في المقابل يعتبر أصحاب الأنشطة الحرة أكثر دينامية سكنية (84,6%) (العمل الميداني، 2010).

بصفة عامة يبدو أفراد الشريحة المهنية الفقيرة بكافة أنواعها أكثر تغييرا لسكنهم مقارنة بنظرائهم من غير الفقراء. فعلى سبيل المثال أشارت نتائج العمل الميداني إلى أن نسبة الاستقرار لدى الفقراء الموظفون بالدولة أقل بحدود الضعف من مثيلاتها لدى غير الفقراء (11,8% للفئة الأولى مقابل 21,3% للثانية). وينطبق نفس الشيء على بقية الفئات المهنية الأخرى الفقيرة مقارنة بغير الفقراء كحال أصحاب المهن الحرة الذي تبين أن متوسط عدد تنقلاتهم السكنية يفوق ضعف نظرائهم من غير الفقراء (3,1 مقابل 1,8) (العمل الميداني، 2010).

ج. العامل الاجتماعي كمعيار لتغيير السكن

تختلف الأهداف والإستراتيجيات التي تؤدى بالأفراد والأسر إلى تغيير محل سكنهم إذ عادة ما يكون الذكور أكثر دينامية سكنية من الإناث اللاتي تملن غالبا إلى الاستقرار 9 لقد تبين أن درجة الاستقرار ومتوسط عدد التنقلات السكنية يختلفان بين أرباب الأسر المستجوبة، من مختلف الفئات السكانية على مستوى العاصمة أنواكشوط، حسب معيار التركيبة الجنسية حيث كان الرجال مصدر 72,7% من إجمالي الحركية السكنية مقابل 27,3% للنساء. وتتفاوت النسب بين العائلات الفقيرة إذ أن 85,1% ممن غيروا سكنهم رجال مقابل 14,9% نساء (العمل الميداني، 2010).

كما يتفاوت عدد التنقلات السكنية هو الآخر حسب الجنس، ففي الوقت الذي لم يغير فيه (22,4%) من النساء ربات البيوت سكنهن سوى مرة واحدة و(40,4%) مرتين و(11,5%) ثلاث مرات والبقية (6,5%) أزيد من ذلك؛ غَيّر (5,6%) من الرجال سكنهم مرة واحدة و(24,9%) مرتين و(40%) ثلاث مرات و(27%) أزيد من ثلاث مرات (العمل الميداني، 2010) مما يدل على أن النساء الفقيرات أكثر استقرارا من نظرائهم الرجال.

الجدول (04) : نسبة التنقلات السكنية لدى أرباب الأسر الفقيرة حسب الجنس

عدد التنقلات / النوع	لم يتنقل		مرة واحدة		مرتان		ثلاث مرات		أربع تنقلات		أكثر		المجموع
	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	
الرجال	09	2,5	20	5,6	89	24,9	143	40	76	21,2	21	5,8	358
النساء	30	19,2	35	22,4	63	40,4	18	11,5	07	4,5	03	2	156
المجموع	39	7,6	55	10,7	152	29,6	161	31,3	83	16,1	24	4,7	514

المصدر : العمل الميداني، 2010

إذا كان الجنس عاملا هاما في مدى تباين الحركية وعدد التنقلات السكنية يعتبر العمر هو الآخر معيارا محددا. فقد تبين من خلال العمل الميداني تفاوت نسبة الاستقرار وعدد التنقلات السكنية لدى الفئات الفقيرة عبر المجال باختلاف الفئات العمرية، حيث يتناسب عامل الاستقرار السكني طرديا مع معيار السن، أي كلما زاد العمر كان ذلك حافزا أكثر على الاستقرار السكني. فإذا كان الفقراء من فئة الشيوخ (+60 سنة) يميلون إلى الاستقرار وانخفاض عدد مرات التنقل السكني يظهر نظرائهم من الشباب (أقل من 60 سنة) دينامية سكنية أكثر، حيث لم تتجاوز سن (71,9%) من الذين غيروا سكنهم خمسين سنة، بينما تراوحت أعمار (17,7%) بين الخمسين وستين، أما البقية (10,4) فزادوا على 60 سنة (العمل الميداني، 2010).

الجدول (05) : عدد التنقلات السكنية لأرباب الأسر الفقيرة حسب الفئات العمرية بأنواكشوط

عدد التنقلات / الفئة العمرية	لم يتنقل		تنقل واحد		تنقلان		ثلاث		أربع		أكثر		المجموع
	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	
أقل من 30 سنة	01	2,3	06	14	13	30,2	16	37,2	07	16,3	–	–	43
من 30 – 45 سنة	11	5	03	1,4	65	29,9	78	35,7	48	22	13	6	218
من 45– 60 سنة	10	5,4	19	10,3	57	30,8	62	33,5	27	14,6	10	5,4	185
أزيد من 60 سنة	17	25	27	39,7	17	25	05	7,3	01	1,5	01	1,5	68
المجموع	39	7,6	55	10,7	152	29,6	161	31,3	83	16,1	24	4,7	514

المصدر : العمل الميداني، 2010

مكنت دراسة المسارات السكنية للأسر الفقيرة بالعاصمة أنواكشوط من معرفة حجم تلك الحركية، مما يسترعى الحديث عن توزيع الأدفاق المرتبطة بتلك الحركية وأهم مساراتها العامة. وهو ما سيمكِنُ من تحديد مستوى الاندماج الحضري لهذه الشريحة السكانية ببقية فئات المجتمع العاصمي الأخرى. فكيف تتوزع أهم أدفاق الحركية السكنية في أنواكشوط بصفة عامة وفئاتها الفقيرة خاصة ؟ ما هي أبرز مساراتها العامة ؟.

2. توزيع الأدفاق السكنية وأهم مساراتها العامة لدى المستجوبين

تتطلب عملية فهم المسارات السكنية داخل المدينة تحديد المرجعيات المجالية التي تنتظم وتتهيكل من حولها تلك المسارات. وهو ما يتم من خلال معرفة وتحديد توزيع الأدفاق الاستقبالية وتلك المُوفَدَةُ عبر المحطات التنقلية أي مقارنة المحطة السكنية الحالية بسابقتها10. ومن هذا المنطلق تبين بعد معرفة توزيع الأدفاق السكنية للمستجوبين وأهم مساراتها العامة، من خلال مقارنة المحطة السكنية الحالية بسابقاتها، أن 56,3% من تلك الأسر تنقلت عبر مقاطعتين مختلفتين و26,9% بين حيين مختلفين من نفس المقاطعة و9,2% داخل نفس الحي السكني، بينما لم يغير البقية 7,6% سكنهم_(العمل الميداني، 2010).

الرسم البياني (02) : أبرز محطات التنقلات السكنية للفئات الفقيرة بأنواكشوط 2010

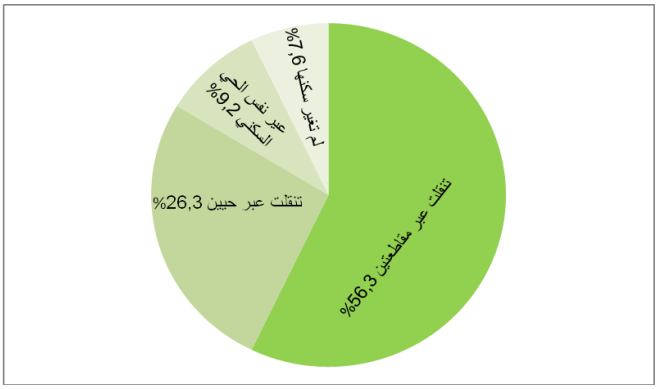

المصدر : العمل الميداني، 2010

الجدول (06) : تغيير المستجوبين لسكنهم حسب المستوى الاقتصادي للأحياء في أنواكشوط 2010

إلى / من	أحياء فقيرة جدا		أحياء فقيرة		أحياء متوسطة		أحياء غنية		المجموع
	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	
أحياء فقيرة جدا	308	72,3	88	20,6	30	7,1	–	–	426
أحياء فقيرة	82	21,9	252	67,1	41	11	–	–	375
أحياء متوسطة	02	1,2	09	8,5	88	82,7	08	7,6	107
أحياء غنية	–	–	–	–	02	3,9	41	96,1	43
المجموع	392	41,2	349	36,7	161	16,9	49	5,2	951

المصدر : العمل الميداني، 2010

يمكن انطلاقا من تحليل معطيات الجدول (06) الخروج بملاحظة أَوْلَوِيَة الحركية المجالية السكنية بين الأحياء التي تنتمي إلى نفس المستوى الاجتماعي– الاقتصادي، فباستثناء انتقال نسبة بسيطة (7,6%) من سكان الأحياء المتوسطة نحو تلك الغنية؛ ومن الأخيرة إلى الأولى (3,9%)، ظلت حركية تغيير السكن تتم بين أحياء متجانسة ذات نفس الخصائص الاقتصادية والاجتماعية. بل وأكثر تتم أغلبية تلك الحركية وفق معيار أثني حيث أشارت بعض الدراسات السابقة حول العاصمة أنواكشوط 11 إلى أن هذه الأخيرة أصبحت مؤخرا تتهيكل عرقيا وتنتظم طبقيا بصفة واضحة. إذ يتكون مجالها الحضري الحالي من وحدات سكنية متجانسة عرقيا واجتماعيا متباينة اقتصاديا ومجاليا12. فمن جهة يقطن العرب أصحاب البشرة البيضاء والسمراء (البيظان)، الأحسن ماديا، المناطق الشمالية والشرقية، في المقابل يغلب على سكان المناطق الجنوبية العرب ذوى البشرة السوداء (لحراطين)، بينما يتمركز الزنوج (لكور) في الجهة الغربية من المدينة. ويُعتبر العرقان الأخيران الأقل حظا من الناحية الاقتصادية حيث تتحدر أغلبية الفقراء. الأمر الذي جعل البعض يرى أن مجتمع هذه المدينة ينتظم وفق بنية اجتماعية متخلخلة، مما قد يبعث على تنامي مظاهر التمييز العرقي والمجالي بين مختلف نطاقات المجال

الحضري. وهو ما قد يتولد عنه من جهة أخرى نوع من الحقد يوحي بتمييز عنصري اتجاه الآخر وعدم تقبله 13. وفي هذا الصدد أشارت بعض الدراسات الإنثروبولوجية الحضرية إلى أن العديد من كبريات مدن البلدان النامية تنتظم قطاعيا وفق عوامل مختلفة أهمها البعد الديني والعرقي والقبلي والاجتماعي والاقتصادي، مما تطلب من بعض الفئات الاجتماعية ذات نفس المستوى التواجد في حيز مشترك والالتحام ببعضها البعض 14. فعلى سبيل المثال لعبت العوامل الاقتصادية والاجتماعية والديمغرافية دورا هاما في تحديد التنظيم المجالي لتونس العاصمة15.

على مستوى العاصمة أنواكشوط كانت الحركية السكنية بين الأحياء المتباينة 16 ضعيفة جدا، مما يجعل مسألة تفاوت توزيع الأدفاق تتم وفق حركية مجالية دائمة تعمل على تطابق المواقع المجالية مع المستويات الاقتصادية– الاجتماعية للأفراد كنوع من تكريس التراتبية الاجتماعية. إذ قلما تنفصل الدينامية المجالية عن التطورات العامة التي تشهدها البنيات الاجتماعية الناجمة عنها 17. وفي نفس السياق تبين، خلال العقود الثلاث الأخيرة أن العاصمة الجزائر تنتظم وتتهيكل مجاليا، بصفة لافتة للنظر، وفق معيار اقتصادي– اجتماعي وعقائدي خاصة بعد فوز حزب الجبهة الوطنية للإنقاذ في الاستحقاق الانتخابي نهاية سنة 1989، 18 أما مدينة ديربان بجنوب إفريقيا فتتهيكل عرقيا بصفة واضحة تسبب في تمفصل نسيجها العمراني وتباين تنظيمها المجالي19. في مدينة أنواكشوط جاءت نسبة معدلات الحركية بين المقاطعة الواحدة، قوية جدا 82,3%، ومتوسطة 15,8% بين المقاطعات المتجاورة ثم ضعيفة جدا 1,9% بين تلك التي لا تشترك في نفس الحدود. فعلى سبيل المثال أتضح أن 90,7% من الأدفاق السكنية على مستوى مقاطعة الرياض، الأفقر، كانت وجهتهم أحياء من نفس المقاطعة، مقابل 7,1% اتجهوا لمقاطعات مجاورة (تشترك معها في الحدود) : عرفات (4,3%) والميناء (2,8%)، بينما توجه البقية (2,2%) صوب مقاطعات أخرى غير مجاورة لكنها فقيرة أهمها توجنين والسبخة. أما تفرغ زين (الغنية) فكادت تقتصر الحركية السكنية فيها داخليا، فباستثناء 4,2% تحولوا للقصر المجاورة، امتصت هذه المقاطعة كافة أدفاقها السكنية حيث لم تسجل أية مغادرة منها نحو بقية المقاطعات الأخرى. وهو ما يُعبّر عن نوع من ضعف التواصل والصلة بين المقاطعات الغنية من المدينة وتلك الفقيرة (العمل الميداني، 2010). وفي سياق متصل أعرب 48% من سكان الأحياء الفقيرة بالعاصمة السعودية الرياض أنهم ظلوا يسكنون نفس الأحياء الفقيرة مقابل 45% انتقلوا لأحياء شعبية مشابهة 20.

عموما تعكس الأحياء السكنية المستوى الاقتصادي لسكانها (الدخل، درجة تجهيز المساكن، نوعية السكن ...). فغالبا ما يسعى الأفراد من ذوى الخصائص المشتركة (الاقتصادية– الاجتماعية والمهنية والثقافية...) للسكن في نفس الحي، مما يؤدى إلى تباين

أجزاء المجال الحضري من خلال ظهور أحياء سكنية راقية تقطنها طبقات غنية وأخرى من فئات متوسطة وأخيرا أحياء تقطنها أغلبية ضعيفة فقيرة ومحدودة الدخل.

تشير خريطة توزيع الأدفاق السكنية، على مستوى أنواكشوط، إلى ضعف معدلات الإرسال بين المقاطعات الفقيرة وتلك الغنية، حيث تكاد تستأثر كل مقاطعة بالنصيب الأوفر من حجم أدفاقها السكنية، بينما تستقطب المقاطعات المجاورة وتلك المتشتركة في نفس الخصائص السسيو– اقتصادية بقية الحركية السكنية الصادرة. وهو ما يعني أن المقاطعات الفقيرة لا زالت أقل اندماجا ببقية المناطق الأخرى ذات الشرائح السكانية المتوسطة والميسورة، أي أن تغيير السكن في المدينة خاضع لمعيار الفوارق الاقتصادية – الاجتماعية. ذلك ما يتجسد من خلال تفاوت نسبة تغيير السكن حسب نظام حيازته. ففي ظل غياب سياسة حكومية هادفة تضمن توفير السكن للجميع، خاصة الفئات الضعيفة والمحرومة، زادت إلى حد لافت للنظر نسبة المؤجرين على مستوى العاصمة (32,2%) مقابل (40,1%) نسبة المالكين. وهو ما يعزى إلى طلب كبير يوازيه عرض هام في المساكن الموجهة للكراء لما تدره من مكاسب مالية معتبرة على أصحابها 21. أجبرت هذه الوضعية العديد من رؤساء العائلات الفقيرة، بسبب شح الإمكانيات المادية، على التوجه صوب المقاطعات الطرفية إما للإستلاء على أراضي بصفة غير شرعية؛ أو للاستفادة من تدني أسعار الإيجار قصد تأمين السكن في ظل ظروف غلاء أسعار الإيجار ببقية المناطق الأخرى. بينما سعى أغلبية أرباب الأسر المتوسطة الدخل لإيجار مساكن غير بعيدة من أماكن عملهم وقريبا من محاور المواصلات الرئيسية. أخيرا توجهت أعداد هامة من ميسوري الحال إلى امتلاك المساكن أو إيجارها.

الجدول (07) : تغيير السكن حسب وضعية الحيازة لمختلف الشرائح الاجتماعية في أنواكشوط 2010

من – إلى	كراء – كراء		كراء– ملك		كراء– مجان		مجان – ملك		مجان – مجان		ملك– ملك [22]		أخرى		المجموع
الشريحة	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	
الفقيرة جدا	92	21,6	72	16,8	14	3,2	75	17,5	60	14,2	106	24,9	07	1,8	426
الفقيرة	88	23,5	70	18,7	10	2,6	76	20,2	48	12,9	79	21	04	1,1	375
المتوسطة	47	44,5	25	23,9	01	1,1	01	0,3	03	2,8	29	27	01	0,4	107
الغنية	13	31,3	11	26,1	–	–	–	–	–	–	18	42,5	01	0,1	43
المجموع	240	25,2	178	18,7	25	2,6	152	16	111	11,7	232	24,4	13	1,4	951

المصدر : العمل الميداني، 2010

إذا كانت هذه أهم خصائص المسارات السكنية لدى مختلف الفئات السكانية بالعاصمة أنواكشوط عموما وفئاتها الفقيرة خاصة، فما هي إذن أهم دوافعها ؟.

3. الدوافع السكنية لدى أرباب الأسر المستجوبين بمدينة انواكشوط

تتعدد دوافع تغيير السكن وتتفاوت باختلاف أنواع الأفراد وتباين مستوياتهم الاقتصادية– الاجتماعية والديموغرافية والمهنية وحسب التركيبة الجنسية. ويجسد اتخاذ قرار تغيير السكن حالة من عدم الرضا وبالتالي محاولة الحصول على ما هو أكثر ملائمة. وذلك إما للتقرب من مكان العمل أو ملائمة الوسط الطبيعي أو سعيا للحصول على سكن يتناسب مع القدرات الاقتصادية، أو نتيجة لتطور دورة الحياة كزيادة عدد أفراد الأسرة أو عامل الارتقاء إلى الملكية السكنية أو المحافظة على استمرارية التواصل عن قرب مع من تربطهم صلة اجتماعية معينة. بالإضافة إلى رغبة البعض في إعادة التموضع قريبا من الخدمات الأساسية ومحاور المواصلات...

في البلدان المتخلفة تدفع ضعف الأحوال المادية ببعض السكان، خاصة من الفقراء ومحدودي الدخل وأصحاب البطالة وغيرهم من ذوى المستويات الهشة، إلى تغيير سكنهم أكثر مقارنة بأصحاب المستويات المتوسطة والميسورة الذين يميلون غالبا إلى الارتقاء لامتلاك مساكنهم، مما يجعلهم أقل دينامية سكنية 23 للوقوف على أبرز الدوافع الضمنية وراء تغيير مختلف الشرائح السكانية على مستوى مدينة أنواكشوط وفئاتها الفقيرة تحديدا تضمن العمل الميداني أسئلة خاصة بهذه الجوانب. وهكذا تلخصت أبرز دوافع تغيير السكن لدى المستجوبين فيما يلي :

أ. غلاء النفقات السكنية

شكلت مسألة غلاء النفقات السكنية أبرز الدوافع وراء تغيير 39% من أرباب الأسر المستجوبة أماكن إقامتهم مما يعزى إلى زيادة في الطلب على المساكن بالعاصمة نظرا لمكانتها الإستراتيجية ودورها التنموي. ففي هذا الإطار لوحظ، خلال العقد الأخير، وبشكل لافت للنظر تهافت العديد من الشركات الأجنبية على العاصمة أنواكشوط سعيا للاستثمار في مجالات حيوية كالتنقيب عن النفط والمعادن الثمينة بالإضافة إلى قطاع الخدمات كالبنوك والنقل العمومي والتجارة الراقية. وهو ما تسبب في غلاء المساكن نظرا لقلتها وهشاشة المنظومة السكنية أصلا للمدينة التي يفوق فيها الطلب على المساكن المجهزة أضعاف ما هو معروض منها 24. وقد تسبب ذلك في إقصاء بعض الأسر الضعيفة نحو الأطراف حيث ظلت أسعار الإيجار السكني أقل ارتفاعا 25.

أظهرت نتائج العمل الميداني تباين النسب بين الفئات السكانية، إذ تعتبر الشريحتان الفقيرة جدا وتلك الفقيرة أكثر معاناة من غلاء أسعار الإيجار السكني : (43,5% و42,2%) على التوالي؛ مقابل (22,8% و9,9%) للفئتين المتوسطة والغنية (العمل الميداني، 2010). وهو ما قد يبرر باستفادة عدد من أفراد الفئتين الأخيرتين من خدمات السكن الإداري، الذي كانت الدولة

توفره لعمالها من أطر وفئات عمالية متوسطة. في المقابل تتجه نسبة هامة من الأسر المحدودة الدخل والفقيرة إلى الإيجار السكني 26.

هكذا أفادت نتائج العمل الميداني أن غلاء أسعار الإيجار السكني كان دافعا وراء تغيير (51,3%) من رؤساء العائلات المستجوبة على مستوى أفقر مقاطعات المدينة (الرياض) لمحل إقامتهم السكنية و(50,8%) لدى نظرائهم بدار النعيم. بينما جاءت النسبة بفعل نفس الدافع ضئيلة جدا بمقاطعتي تفرغ زين ولقصر الغنيتين : 2,7% و4,9% على التوالي (العمل الميداني، 2010). وفي نفس السياق كانت الطبقات الفقيرة بالحاضرة الوهرانية (الجزائرية) خلال العشرية الأخيرة من القرن الماضي أكثر الفئات السكانية حركية سكنية بفعل غلاء النفقات السكنية التي حتمت على أعداد كبيرة من الأسر المهمشة والمقصية اجتماعيا واقتصاديا التوجه إلى الضواحي والفضاءات الفارغة قصد تعميرها 27.

ب. ظروف العمل

نال هذا الدافع المرتبة الثانية كسبب وراء تغيير 37,8% من الأسر المستجوبة لسكنهم. وبشكل عام تعاني مدينة أنواكشوط من تمييز واضح بين فصل مكان العمل والسكن إذ تتركز أغلبية وظائف الشغل، باستثناء عدد محدود من الأنشطة الشاطئية والصناعية، بمركز المدينة والأحياء المحيطة به التي يتزايد إقبال العديد من أفراد الشريحة المتوسطة عليها قصد التواجد قريبا من مكان العمل ولتوفير الاقتصاد في تكاليف النقل. ففي هذا الإطار أظهرت نتائج العمل الميداني أن (34,6%) ممن غيّروا محل سكنهم على مستوى المقاطعات الثلاث الأفقر (الرياض ودار النعيم والميناء) لم يقدموا على ذلك إلا بعد تحررهم من البطالة (7,1%) أو بفضل حصولهم على فرصة عمل مواتية (4,6%) أو نتيجة لتحسين الدخل (3,8%) (العمل الميداني، 2010).

عموما جاءت النسب متقاربة بين بقية الشرائح السكانية، فباستثناء الشريحة الغنية التي بلغت فيها النسبة (23,1%) تجاوزت هذه الأخيرة بين بقية الفئات الأخرى (35%) مما يعني أن الحركية المجالية السكنية في المدينة لا تتم في كثير من جوانبها بمعزل عن ظروف العمل.

ج. دوافع أخرى

جاءت في المرتبة الثالثة (8,1%) مع اختلافها من فئة لأخرى. فهي أعلى لدى الفئات الغنية التي تمثلت أبرز الدوافع الأخرى لديها في الرغبة في التطلع إلى ملكية المسكن (44,8%) والثراء العقاري (30,2%) وتحسن الظروف المادية (13,7%) وفك التساكن الأسري وتغيير

الجو العام (11,3%). في المقابل تمثلت أبرز الدوافع الأخرى بالترتيب لدى الفئات الوسطى في تحسن الظروف المادية (39,5%) وحجم السكن (27,8%) والتطلع إلى ملكيته (16,2%) ومحاولة القرب من الخدمات الأساسية، ثم دورة الحياة (16,5%). أخيرا انحصرت أبرز الدوافع الأخرى لدى الفئات الفقيرة في الحصول على الملكية العقارية (41,6%) خاصة الاستيلاء غير الشرعي على الأراضي السكنية بأطراف النسيج العمراني؛ والقرب من الخدمات الأساسية (36,9%) ثم الحصول على مسكن مجاني (17,5%) وفك الترابط الأسرى وتحسن الظروف المادية (4%) (العمل الميداني، 2010).

الجدول (08) : أهم دوافع تغيير السكن حسب مختلف الشرائح السكانية في أنواكشوط 2010

الدافع	نفقات غالية		ظروف العمل		المحيط الاجتماعي		العزلة		آخر يحدد		المجموع
الشريحة	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	العدد	%	
الفقيرة جدا	185	43,5	167	39,1	21	4,9	31	7,3	22	5,2	426
الفقيرة	158	42,2	145	38,7	15	4,1	25	6,5	32	8,5	375
المتوسطة	24	22,8	39	36,1	26	24	11	10,2	07	6,9	107
الغنية	04	9,9	09	21,3	12	29,6	02	3,1	16	36,1	43
المجموع	371	39	360	37,8	74	7,8	69	7,3	77	8,1	951

المصدر : العمل الميداني، 2010

د. المحيط الاجتماعي

كان سببا وراء تغيير (7,8%) من أصحاب العينة لسكنهم. ويبدو هذا الدافع ضعيفا لدى أرباب الأسر الفقيرة (4,9% عند الفقراء جدا؛ 4,1% الفقراء). بينما يمثل المحيط الاجتماعي سببا وراء تغيير (24%) و(29,6%) على التوالي من أفراد الطبقتان المتوسطة والغنية لإقامتهم. وهو ما يعزى إلى كون الشريحة الأولي كثيرا ما تختار مواقعها السكنية وفق معايير مبنية على روابط القرابة الدموية أو العرقية أو القبلية أو الجهوية، مما يجعلها نادرا ما تواجه مشكل الجوار السكني. فقد أصبح من اللافت للنظر، منذ انطلاق المرحلة الديمقراطية والتعددية الحزبية في البلاد مطلع التسعينات من القرن الماضي، تجمهر أعداد هامة من الوافدين على العاصمة أنواكشوط في شكل أحزمة أمان وفق أسس مبنية على معايير قبلية وعرقية وجهوية واضحة قصد الظهور كتكتل سياسي ذي وزن انتخابي 28. وهي خاصية تمتاز بها بعض كبريات المدن النامية، التي تبدو بعض أحيائها في عزلة ليبقي أهم ما يربط بين سكانها المصالح والأهداف المشتركة 29. في المقابل أظهرت نتائج العمل الميداني أن معايير المجاورة لدى الفئات

المتوسطة والميسورة غالبا ما تكون نابعة من علاقة العمل أو الصدفة، خاصة أن السواد الأعظم من أفراد تلك الشريحتين كانت حركتهم السكنية ارتقائية.

شكلت العزلة الجغرافية دافعا وراء تغيير (7,3%) من المستجوبين أماكن إقامتهم السكنية، لكن طبيعة العزلة المعبر عنها اختلفت من شريحة لأخرى. ففي الوقت الذي يعاني فيه الفقراء من عزلة مجالية جراء تواجدهم في الأطراف الجيبية من النسيج العمراني وما يرمز إليه ذلك من محدودية الخدمات والمرافق الحيوية. تتجسد أهم أنواع العزلة المعبر عنها من طرف الفئات المتوسطة في البعد عن أماكن العمل والمرافق الحيوية.

الجدول (09) : أهم الدوافع الأخرى بالترتيب لدى مختلف الشرائح السكانية في أنواكشوط 2010

الدافع الشريحة	1	2	3	4
الفقيرة جدا	الملكية العقارية	التقرب من الخدمات الأساسية	السكن مجانا	الترابط الأسرى
الفقيرة	الملكية العقارية	السكن مجانا	التقرب من الخدمات الأساسية	الترابط الأسري
المتوسطة	تحسن الظروف المادية	حجم المسكن	التطلع إلى ملكية السكن	التقرب من الخدمات الأساسية
الغنية	التطلع إلى ملكية السكن	الثراء العقاري	تحسن الظروف المادية	فك الترابط الأسرى

المصدر : العمل الميداني، 2010

أخيرا ترتبط دوافع تغيير السكن بالوضعية المهنية للأشخاص، إذ يشكل تحسن الظروف المهنية حافزا على تغيير الأفراد لأماكن إقامتهم السكنية. في المقابل غالبا ما يصاحب الاستقرار المهني ثبوت سكني؛ بينما يحد تراجع الوضع المهني من فرص التنقل خاصة إلى مستويات أفضل (الارتقاء السكني). بشكل عام ساهمت عمليات تخطيط الأحياء العشوائية، التي دأبت عليها الدولة طيلة العقود الأربع الأخيرة، في تسارع وتيرة الحركية السكنية بأنواكشوط خاصة المقاطعات الطرفية الفقيرة التي لا زال معظمها في طور النشأة.

عكست دراسة الحركية السكنية على مستوى العاصمة أنواكشوط مدى ارتباط تلك الحركية في كثير من جوانبها بمتغيرات عدة أهمها: الوضعية الاقتصادية والاجتماعية والحالة المهنية للأفراد. وهو ما أظهر نوعا من تراتبية مجتمع المدينة التي تفاوتت فيها إلى حد كبير الأدفاق السكنية ومساراتها العامة كتعبير صادق عن تكريس الفوارق الطبقية. فعلى سبيل المثال تبين من خلال تتبع المسارات السكنية ضعف الروابط بين المقاطعات الغنية وتلك ذات الأغلبية الفقيرة، مما جعل المدينة تنتظم وفق وحدات سكنية متجانسة عرقيا واجتماعيا، متباينة اقتصاديا ومجاليا. وفي ظل هذه الوضعية بقيت الشرائح السكانية الفقيرة أكثر دينامية سكنية.

الهوامش:

1- BASSAND. (M) et BRULHARDT. (M-C), 1983 : La mobilité spatiale : un processus social fondamental, Espace, population, société, n°1;
2- FREMONT. (A), al; 1984 : Géographie sociale, Masson, paris, 412p;
3- RHEIN. (C), 1990 : Mobilité résidentielle et dynamique urbaine . Revue de géographie de Lyon, Vol. 65, n° 3;
4- SEYS. (B), 1987 : Les groupes socioprofessionnels, in Données Sociales, INSEE;

5- البيانات المستخدمة في هذا المقال مستوحاة في الأصل من أطروحة دكتوراه في الجغرافيا تحت عنوان " الفقر في مدينة أنواكشوط : دراسة في الجغرافيا الاجتماعية "، قدمها الباحث سنة 2013 إلى كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية – 9 إبريل– جامعة تونس الأولى، تونس.

6- (ولد مولاي. س، 2007).

7- LEVY. (J-P), 2001 : Parcours d'habitant, in, Du domicile à la ville, vivre en quartiers anciens, Collection Ville, Anthropos, paris, pp.21- 29;
8- GRANOTIER. (B), 1980 : La planète des bidonvilles, perspectives de l'explosion urbaine dans le tiers monde. Edit. du seuil;
9- WALTER. (F), 1986 : Propriété privée, équilibre social et organisation de l'espace. Rev. Géographica Helvetica. n° 1;
10- Lévy.J-P,2001.
11- Ould El-Barra .Y et Ould Cheikh.A-W(1996);Choplin.A(2003) Jourde.C(2001); Taine-Cheikh.C(1998);
12- CHOPLIN. (A), 2009 : Nouakchott, au carrefour de la Mauritanie et du monde, paris, Karthala, 366p ;
13- Choplin.A,2009
14- HAUMONT. (N) et Levy. (J-P), 1998 : La ville éclatée : Quartiers et peuplement, Collection « Habitat et société », L'Harmattan, paris, 216p ;

15- الرويسي. (إ)، 2008 : الضواحي الساحلية الجنوبية لتونس العاصمة من مقرين إلى برج السدرية : الدينامية وتنظيم المجال. أطروحة دكتوراه في الجغرافيا قدمت إلى كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية –9 إبريل– تونس؛

16- اقتصاديا وعرقيا وثقافيا ... الخ .

17- BERTAUX. (D), 1985 : La mobilité Sociale. Edit. Hatier;
18- MOUZOUNE. (A), 1997 : Alger : conflictualités urbaines et nouvelle éco- genèse territoriale . L'Espace géographique, n° 1;
19- HINDSON. (D), 2002 : Fragmentation et intégration dans une ville de L'Après Apartheid : le cas de Durban; , in Navez- Bouchanine. F, La fragmentation en question : Des villes entre fragmentation spatiale et fragmentation sociale ?, édit. L'Harmattan;

20- النعيم. (ع– الله، ع)، 2009 : الفقر الحضري وارتباطاته بالهجرة الداخلية : دراسة اجتماعية لبعض الأحياء الشعبية الداخلية في مدينة الرياض(السعودية). مركز دراسات الوحدة العربية. سلسلة أطروحات الدكتوراه (75). بيروت؛

21- DESTREMEAU. (B) et TANGUY. (P),2006: "Projet de régularisation et création d'un marché foncier à Nouakchott, Mauritanie : que sont les pauvres devenus ? " . Maghreb-Machrek, n° 189, PP111-124;

22- في الغالب تعني قضية الملك بالنسبة للشريحتين الفقيرة جدا والفقيرة الإستلاء على الأراضي بصفة غير شرعية

23- BEHAR. (D), 1995 : Banlieues ghettos, quartiers populaires où ville éclatée ?. Les Annales de la recherche urbaine, n° 68- 69, sept- décembre;
24- CHOPLIN. (A), 2006a: " Le foncier urbain en Afrique : entre informel et rationnel . l'exemple de Nouakchott, Mauritanie", Les Annale de géographie, n° 647, p.69-91;
25- CHOPLIN. (A) et RICCARDO(C), 2008: Marges de la ville en marge du politique ? Exclusion, dépendance et quête d'autonomie à Nouakchott (Mauritanie). ARTICLE ON LINE , autre part (45), pp 73-89;
26- DESTREMEAU. (B) et TANGUY. (P),2006: "Projet de régularisation et création d'un marché foncier à Nouakchott, Mauritanie : que sont les pauvres devenus ? " . Maghreb-Machrek, n° 189, PP111-124;

27- بن جليد. (ع)، 2008 : كيفيات الاندماج الاجتماعي في صيرورة التنظيم الحضري بالبلدان المغاربية : حالة مدينة وهران (الجزائر). إنسانيات، المجلة الجزائرية للإنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، العدد 42 أكتوبر- ديسمبر، وهران؛

28- VILLASANTE. (M), 1998 : Parentés et politique en Mauritanie, Paris, L'Harmattan. 282p.
29- SASSEN. (S), 2002 : Topographies urbaines fragmentées et interconnextions sous-jacentes. . in, Navez- Bouchanine. F, La fragmentation en question : Des villes entre fragmentation spatiale et fragmentation sociale ?, édit. L'Harmattan;

قائمة المراجع

1- بن جليد. (ع)، 2008 : كيفيات الاندماج الاجتماعي في صيرورة التنظيم الحضري بالبلدان المغاربية : حالة مدينة وهران (الجزائر). إنسانيات، المجلة الجزائرية للإنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية، العدد 42 أكتوبر- ديسمبر، وهران؛

2- الرويسي. (إ)، 2008 : الضواحي الساحلية الجنوبية لتونس العاصمة من مقرين إلى برج السدرية : الدينامية وتنظيم المجال. أطروحة دكتوراه في الجغرافيا قدمت إلى كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية -9 إبريل- تونس؛

3- النعيم. (ع- الله، ع)، 2009 : الفقر الحضري وارتباطاته بالهجرة الداخلية : دراسة اجتماعية لبعض الأحياء الشعبية الداخلية في مدينة الرياض(السعودية). مركز دراسات الوحدة العربية. سلسلة أطروحات الدكتوراه (75). بيروت؛

4- ولد أعبيد (م)، 2013 : الفقر في مدينة أنواكشوط : دراسة في الجغرافيا الاجتماعية. أطروحة دكتوراه في الجغرافيا، قدمت إلى كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية -9 ابريل- تونس، 594 ص.

5- ولد مولاي ولد أحمد الشريف (س)، 2007 : التحضر غير القانوني ودوره في دينامية مدينة أنواكشوط، أطروحة دكتوراه في الجغرافيا، قدمت إلى كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية-9 إبريل- تونس 508 ص.

6- BASSAND. (M) et BRULHARDT. (M-C), 1983 : La mobilité spatiale : un processus social fondamental, Espace, population, société, n°1;
7- BEHAR. (D), 1995 : Banlieues ghettos, quartiers populaires où ville éclatée ?. Les Annales de la recherche urbaine, n° 68- 69, sept- décembre;
8- BERTAUX. (D), 1985 : La mobilité Sociale. Edit. Hatier;
9- CHOPLIN. (A) et RICCARDO(C), 2008: Marges de la ville en marge du politique ? Exclusion, dépendance et quête d'autonomie à Nouakchott (Mauritanie). ARTICLE ON LINE , autre part (45), pp 73-89;
10- CHOPLIN. (A), 2006a: " Le foncier urbain en Afrique : entre informel et rationnel . l'exemple de Nouakchott, Mauritanie", Les Annale de géographie, n° 647, p.69-91;
11- CHOPLIN. (A), 2009 : Nouakchott, au carrefour de la Mauritanie et du monde, paris, Karthala, 366p ;

12- DESTREMEAU. (B) et TANGUY. (P),2006: "Projet de régularisation et création d'un marché foncier à Nouakchott, Mauritanie : que sont les pauvres devenus ? " . Maghreb-Machrek, n° 189, PP111-124;
13- FREMONT. (A), al; 1984 : Géographie sociale, Masson, paris, 412p;
14- GRANOTIER. (B), 1980 : La planète des bidonvilles, perspectives de l'explosion urbaine dans le tiers monde. Edit. du seuil;
15- HAUMONT. (N) et Levy. (J-P), 1998 : La ville éclatée : Quartiers et peuplement, Collection « Habitat et société », L'Harmattan, paris, 216p ;
16- HINDSON. (D), 2002 : Fragmentation et intégration dans une ville de L'Après Apartheid : le cas de Durban; , in Navez- Bouchanine. F, La fragmentation en question : Des villes entre fragmentation spatiale et fragmentation sociale ?, édit. L'Harmattan;
17- LEVY. (J-P), 2001 : Parcours d'habitant, in, Du domicile à la ville, vivre en quartiers anciens, Collection Ville, Anthropos, paris, pp.21- 29;
18- MOUZOUNE. (A), 1997 : Alger : conflictualités urbaines et nouvelle éco- genèse territoriale . L'Espace géographique, n° 1;
19- RHEIN. (C), 1990 : Mobilité résidentielle et dynamique urbaine . Revue de géographie de Lyon, Vol. 65, n° 3;
20- SASSEN. (S), 2002 : Topographies urbaines fragmentées et interconnextions sous-jacentes. . in, Navez- Bouchanine. F, La fragmentation en question : Des villes entre fragmentation spatiale et fragmentation sociale ?, édit. L'Harmattan;
21- SEYS. (B), 1987 : Les groupes socioprofessionnels, in Données Sociales, INSEE;
22- VILLASANTE. (M), 1998 : Parentés et politique en Mauritanie, Paris, L'Harmattan. 282p.
23- WALTER. (F), 1986 : Propriété privée, équilibre social et organisation de l'espace. Rev. Géographica Helvetica. n° 1;

التنمية في موريتانيا من منظور سوسيولوجي

د. الحسين ولد بديدي، جامعة نواكشوط

مقدمة:

ظلت التنمية . ولا تزال . محل اهتمام الكثير من العلماء والمفكرين والسياسيين، وذلك لما عانته وتعانيه الكثير من الدول والمجتمعات، وكذا لاتساع الهوة بين واقع التنمية في الدول المتقدمة وواقعها في الدول النامية. غير أن جل المقاربات اقتصر تصورها للتنمية على الجانب المادي وارتبط إلى حد بعيد بزيادة الإنتاج والاستهلاك، وأصبحت حضارات الأمم تقاس بمستوى دخل الفرد، ومدى استهلاكه السنوي للمواد الغذائية والسكنية... الخ، وهو ما يعني اختزال التنمية في صورة مؤشرات كمية (مستوى الثروة، التحضر، التعليم... الخ). في حين، أن التنمية في جوهرها، عملية مجتمعية، تهدف إلى إحداث تغيير شامل في مجتمع معين، من خلال إحداث نقلة معينة في مختلف قطاعاته، ومن ثم فهي عملية تهدف إلى تحريك المجتمع وتفعيله ودفعه لأن يتقبل التغيير ويقوم به ويتحمل تكاليفه وأعباءه، وبذلك فهي خطاب ثقافي اجتماعي شامل يتم توجيهه إلى المجتمع لإقناعه وتحويل تلك القناعات إلى مفاهيم وإدراكات، ثم إلى سلوكيات وأنشطة واقعية والحال هكذا، فلابد أن يكون هذا الخطاب قابلا للفهم يمكن للمجتمع فك رموزه واستبطانها. في موريتانيا تظهر التحليلات ذات الطابع السوسيولوجي، أن الديناميكية الواضحة للتنمية في المجتمع الموريتاني، قد بدأت مع حصول البلد على الاستقلال و تطبيق المخططات الإنمائية المختلفة، و التي آلت إلى هيكلة البنية الاجتماعية. و لذا يمكن لمتتبع حركية المجتمع منذ الاستقلال . على امتداد أكثر من خمسة عقود من الزمن . أن يلحظ الانتقال النوعي، المتمثل في عملية التحول التنموي المرتبط بالأبعاد المختلفة لحياة المجتمع، الاقتصادية منها و السياسية و الاجتماعية و الثقافية.

1 . التنمية: المفهوم والمصطلح

تباينت الآراء ووجهات نظر العلماء والمفكرين والباحثين حول تحديد مفهوم التنمية، وترجع صعوبة الاتفاق إلى اختلاف التوجيهات الفكرية والأيديولوجية، وكذلك اختلاف التخصصات للعلماء والباحثين وبالتالي استخدامهم وتوظيفهم لهذا المفهوم في تحقيق أهداف معينة 1. ومن أبسط التعريفات التي قدمت له، ذلك الذي يقول أنها عملية مخططة لخلف ظروف التقدم الاجتماعي والاقتصادي بالنسبة للمجتمع ككل 2، كما يشير مفهوم التنمية، بمعناه العام، إلى محاولة الإنسان بفكره وفعله تغيير الواقع وظروفه لتحقيق وضع مستقبلي تم تصوره سلفا، فعملية التغيير هنا قصدية أساسها الإرادة الإنسانية، وما يرتبط بها من وعي ودراية وقدرات وتخطيط وأساليب مختارة وتنظيمات. فالتنمية عملية مدروسة منظمة يوجهها الإنسان ولو نسبيا بما يحقق

غاياته 3. وقد استعمل مصطلح التنمية في اللغتين الفرنسية والانجليزية للدلالة علي زيادة الشيء وتوسعه عبر مراحل مختلفة، وفي مجالات معرفية متعددة، منها علم الاقتصاد لوصف الحالة الاقتصادية للدولة من حيث الدخل القومي وإنتاج السلع وأداء الخدمات والتقدم الصناعي والتكنولوجي، وقد أثار ظهور مفهوم التنمية جدلا كبيرا علي المستوي النظري والتطبيقي بعد استخدامه لأول مرة سنة 1949 كبديل لمرادفات التطور والتقدم والتصنيع 4.

وعلى الرغم من كثرة ما كتب عن هذا الموضوع إلا أنه ليس هنالك اتفاق تام بين الباحثين على مفهوم التنمية أو على مقاييسها، فقد استخدم بعض الباحثين مقاييس تنموية دون التعرض لمفهومها أو تعريفها، والواقع أن قياس التنمية دون التعرض لمفهومها أمر لا معنى له، وفي هذه الصدد يرى هارفي (Harvey 1969) أن أفضل قياس للتنمية هو ما اعتمد علي تحديد واضح لمفهوم التنمية، وقد يعود عدم تعرض الكثير من الباحثين لمفهوم التنمية لعدم وجود تعريف مقبول من قبل الباحثين وأن يراد تعريف شامل أمر ليس سهلا.

ومن التعريفات التي أعطيت للتنمية هي أنها عبارة عن وضع معين للمجتمع في فترة زمنية معينة، بحيث يعكس هذا الوضع تقدما ملموسا في النواحي الاقتصادية والاجتماعية، وقد عرّف خبراء هيئة الأمم المحتدة (UNRISD1972) التنمية بتقدم مستمر في المستوى المعيشي والرفاهي للسكان، وهناك من ذهب إلي تعريف التنمية بأنها عملية معقدة تشمل التحول في مرحلة متميزة بخصائص تكنولوجية ومستويات معيشية وتعليمية إلي مرحلة متقدمة في الخصائص، فعملية التنمية هي حصيلة عوامل متعددة مترابطة مع بعضها البعض يؤثر ويتأثر كل منها بالآخر، وتنعكس هذه العملية في نتائج اقتصادية واجتماعية وسياسية 5.

ولأن المجال لا يتسع لتتبع خيوط التحولات التي طرأت علي هذا المفهوم منذ الثورة الصناعة وحتى الآن، إلا أن الحلقة البارزة في هذا المسار شكلتها الأوضاع التي ظهرت عقب سنة 1945 عندما كانت الأمم تتلمس طريقها بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وكان من الواضح آن ذاك وجود نمطين متغايرين، يتصف أحدهما بمستوى جيد من التصنيع، ويتصف الآخر بكونه مستوردا ومستهلكا للإنتاج الصناعي، و ظهرت الفجوة كبيرة بين هذين العالمين، مما اقتضى البحث عن تقريب للهوة وتقليل لحدة "التخلف" بالنسبة للمجموعة الثانية، ومن هنا يتضح أن مفهوم التنمية (Développement) قد التصق بمغايره "التخلف" نظرا لأن تعريف التنمية حمل في طياته السمات النقيضة، والتي هي في الوقع سمات التخلف، حيث أطلقت علي مجموعة من الدول، البلدان التي لا تمتلك ناصية الصناعات، أوصافا ونعوتا اتسمت ب (الوضوح) أحيانا مثل الدول المتخلفة أو الأقل نموا، و(بالمجاملة) أحيانا أخرى مثل البلدان السائرة في طريق النمو ودول العالم الثالث. وكان الأمر في البداية قد اقتصر على هذه المجموعة باعتباره الأكثر تضررا في الميدان الاقتصادي .وقد قامت الأمم المتحدة بتصنيف الدول النامية بناء على مقاييس

اقتصادية واجتماعية أقرها المجلس الاقتصادي والاجتماعي للمنظمة. ومن هذا التصنيف اتضح أن هناك تفاوتا شاسعا في درجات النمو بين هذه الدول 6.

ولقد ظهر هاجس التخلف منذ فترة في الدراسات كنقيض للتنمية، واقتربت بعض التعريفات من القول بأن التنمية هي عكس التخلف، وعددت أربعة سمات أو عوامل كأبرز السمات لدول العالم الثالث، واعتبرت أن نقيضها سمة للتنمية حيث (أن السمة الأساسية للدول المتخلفة هي التباين الفاحش بين السكان، إذ توجد أقلية صغيرة ثرية وأغلبية ساحقة فقيرة)، ومن هنا أخذت الأبعاد الاجتماعية للتنمية طريقها إلى الظهور.

وبصورة عامة فإن المفاهيم في هذه المرحلة كانت ركائزها اقتصادية في المقام الأول 7. حيث اتسم الحديث عن التنمية بنوع من التركيز على بعدها الاقتصادي، وعليه لم يتضح الفرق جليا في بداية الأمر بين النمو والتنمية، ثم ظهرت بعد ذلك تفسيرات تربط النمو بالمنحى الكمي، في حين تعتبر التنمية تعبيرا نوعيا في الاقتصاد، عن طريق تنوع الأنشطة الاقتصادية وتعددها وتنامي الحيز الذي يحتله قطاع الصناعة التحويلية. و (كانت الفرضية التي يعتمد عليها هي أن التنمية الاقتصادية ستفضي حتما للتنمية الاجتماعية والتقدم العلمي والثقافي، وبذلك يكون التحديث، ومع ذلك ظل المقياس الأساس للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، هو معدل الزيادة في الناتج المحلي الإجمالي، وهو مقياس كمي يقتصر على الإحاطة بتغييرات بنية الاقتصاد)8.

الجدول (1) مراحل تطور مفهوم التنمية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية

المراحل	الفترة	مفهوم التنمية
1	نهاية الحرب العالمية الثانية إلى منتصف القرن العشرين	التنمية = النمو الاقتصادي
2	منتصف الستينات إلى منتصف سبعينات القرن العشرين	التنمية = النمو الاقتصادي = التوزيع العادل
3	منتصف السبعينات إلى منتصف ثمانينات القرن العشرين	التنمية الشاملة = الاهتمام بجميع الجوانب الاقتصادية والاجتماعية
4	منذ سنة 1990 وحتى وقتنا الحاضر	التنمية البشرية = تحقيق مستوى حياة كريمة وصحية للسكان

المصدر : مراد ، ناصر ، التنمية المستدامة وتحدياتها في الجزائر ، المجلة العربية للبحوث الاقتصادية ، الصادرة عن الجمعية العربية للبحوث الاقتصادية بالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية ، العدد 46 ، 2009 ، ص 108

2 . الإطار السوسيولوجي في تفسير التنمية

إن المتتبع لمسار التنمية يلاحظ أن الاهتمام بها ليس وليد اللحظة بل على العكس من ذلك له جذوره في الماضي، وقد حظيت إشكالية التنمية باهتمام العلوم الاجتماعية وبخاصة منها علم الاجتماع، الذي عرف بمجموعة من النظريات السوسيولوجية والمقاربات المعرفية للإشكالية ذاتها، وتدخل هذه المقاربات في إطار النظريات السوسيولوجية الكبرى9. ولأن البحث في

تفاصيل ما ذهب إليه أصحاب هذه النظريات وغيرها من نظريات علم الاجتماع متشعب ومتعدد، فسنقتصر وبإيجاز على أهم هذه الاتجاهات وهي:

أ . الاتجاهات لكلاسيكية: ينظر أصحاب هذا الاتجاهات إلى التنمية بمعنى التطور، فالتنمية هي عملية تطورية يتعرض لها المجتمع الإنساني عبر الزمن، وتتم عبر مراحل، ويمثلها أوجست كونت وهربرب سبنسر وأميل دوركايم وماكس فيبر .

إذ تضمنت فكرة كونت عن التطور، فكرة التقدم التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر حيث النظام لا يظل ثابتا، إنما هو خاضعا للتغيير والتبديل باستمرار نحو التقدم، وفق قوانين ثابتة وضرورية. وعرف عنه تقسيمه للإنسانية إلى ثلاثة مراحل هي: " اللاهوتية والميتافيزيقية والوضعية"، واعتبره القانون العام للتطور الذي يمر به المجتمع من مرحلة التفكير اللاهوتي في تفسيره لمظاهر الحياة، إلى مرحلة التفكير الوضعي.

أما هربرت اسبنسر فقد صاغ قانونه للتطور من خلال دراسة طبيعة المجتمعات وتصنيفها حسب درجة التركيب، وعلى أساس المماثلة بين الكائن الحي والمجتمع، للكشف عن أوجه الاختلاف والتشابه بينهما، وتقوم النظرية على أساس فكرة التباين، وهي الانتقال من التجانس إلى اللاتجانس وفكرة التكامل، ويرى أن الحقيقة الأساسية للتطور تتمثل في الانتقال من المجتمعات البسيطة إلى المركبة. والتنمية من منظوره هي عملية تطورية مستمرة في خط مستقيم بدرجات مختلفة، من التعقيد والتباين في الوضع والبناء في درجة الاعتماد المتبادل بين المكونات .

أما دور كايم فقد صنف مراحل تطور المجتمع، بثنائيته المشهورة عن التضامن الآلي، القائم على التجانس الثقافي والاجتماعي الذي يسود المجتمعات البسيطة، في مقابل التضامن العضوي القائم على أساس الاختلاف والتباين والتعقيد نتيجة لتزايد التخصص في الأعمال في المجتمعات الحديثة، والتنمية هي التحول من المجتمعات البسيطة إلى المجتمعات الصناعية عن طريق التحول من التضامن الآلي إلى التضامن العضوي.

واتجه ماكس فيبير اتجاها مغايرا عن الاتجاه التطوري، وركز على العوامل النفسية في إحداث التنمية، من خلال دراسة الأخلاق البروتستانتية وروح الرأس مالية، وقد حاول وهو بصدد معالجة نشأة النظام الرأسمالي الغربي كأسلوب للتنمية، تحليل العلاقة بين الظاهرة الدينية والاقتصادية، وكشف أن هناك علاقة اعتماد و تأثير متبادل، ويذهب إلى أن الرأسمالية ظاهرة حديثة مميزة ، خصائصها التنظيم الرشيد، والرأسمالية والإدارة العلمية والإنتاج من أجل السوق والكسب المادي والروح الجماعية والكفاءة. ويرى أن التنظيم الاقتصادي والرأسمالي، يتطلب وجود أفراد يتميزون بخصائص سيكولوجية وأنماط سلوكية وظروف اجتماعية معينة .

وبالمجمل اهتمت النظريات التطورية سالفة الذكر بتطور المجتمع الإنساني عبر مراحل تطورية محددة، باعتبار أن كل مرحلة تمهد لمرحلة لاحقة أكثر تقدما، وأن التنمية وفقا للمضمون السابق تعني الانتقال من مرحلة معينة إلى مرحلة أخرى أكثر تطورا وتقدما.

ب . الإتجاهات الحديثة: ويمثلها فريق العلماء ماكيلاند، ايفرت هاجن، دانيل لير نر في الاتجاه السيكولوجي، ويمثلها ولت روستو في الاتجاه التطوري الحديث، والاتجاه الانتشاري، واتجاه النماذج.

. الإتجاه السيكولوجى: يرى أصحاب هذا الاتجاه أن عملية التنمية رهن بتغيير أفراد المجتمع، قيما وحوافز وسلوكا، كما يذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى القول بأن المجتمعات التي حققت تنمية في الماضي أو التي تحققها في الحاضر كان قدرها أن يوجد بها عدد كبير من الأفراد، يتصفون بالرغبة في الانجاز والقدرة على التصور لأدوار وإمكانيات مستقبلية، وإذا كان المجتمع لا يضم هذا النوع من الأفراد بأعداد كافية فعليه أن يزيد من إعدادهم بوسائل مختلفة 10.

ومن أهم منظري هذا الاتجاه في السنوات الأخيرة . كما سبقت الإشارة . دافيد ماكليلاند David Macllelland وافريت هيجن Everett Hagen بالإضافة إلى لير نر الذي قدم تصوره لدور القوى السيكولوجية في عملية التنمية، في أن هذه القوى تتمثل في الاندماج والمشاركة في عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتحول من قيم التوكل والسلبية، إلى قيم الطموح والمشاركة الفعالة 11.

وكخلاصة فإن الدافع للإنجاز الذي جاء به ما كيلاند ، ونمط الشخصية عند هاجن ، وتمثل الأدوار عند لير نر، هي خصائص نفسية لها دور في إحداث التنمية، إلا أنها ليست وحدها في عملية التنمية، ربما هي عناصر ثانوية تساعد على الانطلاق الاقتصادي حينما تتوفر العوامل الأساسية للتطور الاقتصادي في قوى الانتاج وعلاقات انتاجية بعيدة الاستغلال.

. الاتجاه التطوري الحديث: ينظر أصحاب الاتجاه التطوري الحديث، إلى نظرية روستو الاقتصادية الاجتماعية لإحداث التنمية كبديل لنظرية ماركس في تطور التاريخ، وتمر فيها المجتمعات بخمس مراحل هي : المجتمع التقليدي . التهيؤ للانطلاق . الانطلاق . النضج . الاستهلاك الوفير. وربط بين التنمية وبين ظهور البنوك والمؤسسات وزيادة المدخرات والاستثمارات وازدهار الصناعة والتجارة وانتشار التعليم وغيرها من الأمور التي تعتبر ضرورية في إحداث التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

. الاتجاه الانتشاري: يرى أصحاب هذا الاتجاه أن التنمية تتحقق عبر انتقال العناصر الثقافية السائدة في البلدان المتقدمة إلى البلدان المتخلفة، التي يجب عليها أن تشهد عملية تثقيف، وتستوعب العناصر الثقافية الوافدة وتستفيد منها في التنمية، ويعني هذا الاتجاه أن نجاح عملية التنمية يكون بتقليد ومحاكاة المجتمعات الغربية من حيث مسارات التنمية.

. اتجاه النماذج: يدعو أصحاب اتجاه النماذج إلى الأخذ بنموذج أو نمط مثالي يساعد على تحقيق أهداف التنمية الاقتصادية والاجتماعية، يتحول بموجبها المجتمع من النمط التقليدي إلى الحديث، وتصبح الخصائص العامة لاقتصاد البلدان المتقدمة نموذجا مثاليا في مقابل نموذج آخر للاقتصاد المتخلف.

ويعتمد هذا الاتجاه على مؤشرات كمية مثل متوسط الدخل القومي، ودخل الفرد، وعدد سنوات الدراسة، وعدد المستشفيات، وعدد الأطباء لكل ألف من السكان، أما المؤشرات الكيفية فهي اكتساب خصائص أو سمات معينة ، يعتقد أنها خصائص التنمية 12.

ج . الاتجاهات المادية (النظرية الماركسية): نظر ماركس للإنسان كموجود واقعي نوعي خلاق، ورأى أن للمجتمع مسارا ديناميا متغيرا، وأنه يجب التدخل لإصلاح المسار وتغيير وجهته تغييرا مقصودا وهذا هو معنى التنمية في معظم الأدبيات المعاصرة 13.

كما خرج ماركس في دراسته لهيجل بنظريته التي تقوم على النظر إلى الأشياء كحقائق مادية في حركة دائمة، ويفسر هذا التقدم الذي يحدث في المجتمع من خلال القوى الاجتماعية المتناقضة، والتي تحاول تأكيد ذاتها من خلال صراع طبقات، حيث في كل مجتمع نظم إنتاج قديمة وأخرى جديدة ، والصراع الطبقي هو الوسيلة التي ينتقل بها المجتمع من حالة لأخرى.

وقدم ماركس نموذجا لتطور المجتمعات من "المشاعية البدائية . الرق . الإقطاع . الرأسمالية . الاشتراكية . الشيوعية".

تنطلق الماركسية في تحليلها لعملية التنمية من المادية التاريخية، حيث النظام الاجتماعي انعكاس للحالة الاقتصادية القائمة وأي تغير في الأساس الاقتصادي يؤدي بالضرورات إلى تغيرات شاملة لكافة العناصر التي ينظمها البناء الاجتماعي 14.

3 . التنمية البشرية:

تتوخى التنمية البشرية المستديمة خلق بيئة يتسنى في إطارها لكل تنمية قدراته وتوسيع خيارته دون تعريض الأجيال للخطر. والتنمية البشرية المستديمة عبارة عن مقاربة شمولية يتمثل هدفها النهائي في تحسين ظروف حياة البشر من خلال إنتاج وتوزيع الثروات بكيفية منصفة. وكما يعبر James Gustave Speth الإداري السابق لبرنامج الأمم المتحدة للتنمية، فإن التنمية البشرية المستديمة عبارة عن تنمية لا تؤدي إلى النمو فحسب، بل توزع ثمار النمو فحسب بكيفية منصفة وتجدد البيئة بدلا من تدميرها وتحمل الناس المسؤولية بدلا من إقصائهم 15.

لقد شهد الفكر التنموي تحولا حينما اعتبر رأس المال البشري أداة من أدوات الإنتاج مثل رأس المال المادي، وكهدف نهائي للتنمية يتمثل في محاربة الفقر، وعدالة التوزيع، وإشباع الحاجات الأساسية للسكان. غير أن أزمة الديون في الثمانينيات أدت لتراجع البعد البشري في التنمية حتى

لا يكون عائقا في سبيل تحقيق الكفاءة الاقتصادية، وجاء عقد التسعينيات بمعالجة أكثر شمولا للبعد البشري لتزايد الاهتمام به ليس باعتباره أداة أساسية للتنمية الاقتصادية بل لأنه الغاية والهدف النهائي للتنمية 16. فالعنصر البشري يتمثل في العمل ويعتبر العنصر الحاكم في التنمية. لأن الموارد الاقتصادية تعتمد إلى حد كبير على المهارات والخبرات الفنية والإدارية، ومعنى ذلك أن عنصر العمل من أهم عوامل الإنتاج ويتميز على غيره من عناصر الإنتاج بميزات من أبرزها أن الموارد البشرية غير قابلة للشراء والتخزين أو الاستبدال، وتحتاج إلى فترات أطول لإعدادها وهي مصدر للمعرفة والمعلومات، وقادرة على الإبداع ومهيأة لأي جانب. ومن المؤكد أن التنمية لا يمكن أن تتحقق بمجرد توفير الأموال أو استيراد التكنلوجيا، إلا إذا رافق ذلك العمل الدءوب وتنمية المهارات والقدرات وتغيير نوعية الحياة 17.

لقد أطلقت موريتانيا منذ سنة 1995 مبادرة التنمية البشرية المستديمة بدعم من برنامج الأمم المتحدة للتنمية وقطاع الشؤون الاقتصادية و المالية والاجتماعية للأمم المتحدة واليونسكو، واستهدفت هذه المبادرة المساهمة في ترقية التنمية البشرية المستديمة معتمدة علي محوري الحكم الرشيد ومكافحة الفقر، وتشكل التقارير الوطنية حول التنمية البشرية المستديمة الأدوات الرئيسية لترويج مقاربة التنمية البشرية المستديمة وتبني مبادئها والمساهمة في تعميم التجارب الناجحة في مجال تفعيل هذه المقاربة ويتعلق الأمر بنشرات سنوية تستند إلي تحليل نقدي مستقل لوضعية البلاد في مجال التنمية البشرية المستديمة مع التركيز علي التقدم المحقق و النواقص التي يتعين تلافيها في هذا المجال،كل ذلك من أجل أن تحقق موريتانيا أهداف الألفية للتنمية.

4 . مؤشر التنمية البشرية: يتضمن هذا المؤشر ثلاثة عناصر:

- مدة الحياة، وتقاس باعتماد العمر المتوقع عند الولادة.
- مستوى التعليم، ويقاس باستعمال باستعمال مؤشر يتكون من ثلثي معدل تعليم الكبار (محو لأمية) وثلث المعدل الإجمالي للدارسين (كل مستويات التعليم).
- مستوى المعيشة، ويقاس باعتماد الناتج القومي الإجمالي بالنسبة لكل ساكن 18.

5 . مسار تطور مؤشرات التنمية البشرية في موريتانيا:

ارتفع مؤشر التنمية البشرية في التقارير الوطنية من 0.507 سنة 2000 إلى 0.533 سنة 2004، وهو ما يمثل تقدما قدره 26 نقطة خلال أربع سنوات وخلال هذه الفترة سجلت جميع مكونات المؤشرات تطورا ايجابيا باستثناء معدل محو الأمية، ويفسر هذا التطور تحسن مستويات محو الأمية و التعليم والصحة نتيجة للسياسات المنتهجة في السنوات الأخيرة والمتركزة أساسا على ترقية القطاعات الاجتماعية، تحسن أيضا مؤشر النفاذ إلى الموارد مستوى المعيشة معبر عنه بتكافؤ القوة الشرائية . وقد سجل أكبر نمو على مستوى تعادل القوة الشرائية في حين ظلت

ضعيفة معدلات النمو المسجلة في مجال التمدرس في جميع المستويات، أما تطور أمل الحياة عند الولادة الذي ارتفع من 53,8 عاما سنة 2000 إلى 57,45 عاما سنة 2004 أي بزيادة 3,65 نقاط في أربع سنوات، فليس دالا بالنظر الى الجهود والوسائل التي تم تكريسها لقطاع الصحة خلال العقدين الآخرين، ويعني ذلك أن مازال يتعين على موريتانيا تخصيص استثمارات ضخمة لتعميم التعليم والصحة اللذين لم يتمكن قسم كبير من الموريتانيين من النفاذ إليهما بعد، كما أن الإجراءات التي ينبغي اتخاذها لرفع التحديات والقيام بتخطيط مدروس ومركز علي المناطق ذات الأولوية (جيوب الفقر) في البلاد، يجب أن تجسد من خلال تسيير محكم للموارد البشرية والمادية فضلا عن الإشراك الفعلي للسكان والمجتمع في تصميم وتنفيذ جميع الأنشطة الرامية إلي تطوير المنظومتين التربوية والصحية. وبخصوص مؤشر التنمية البشرية19، ووفقا للتقارير الدولية، فقد سجل نمو مستمر من سنة 1975 إلي 2003، حيث أرتفع من 0,346 إلي 0,477، وهو ما يمثل زيادة قدرها 131 نقطة خلال 28 عاما بواقع متوسط زيادة سنوية قدرها 4,67، ووفقا لتقرير التنمية البشرية الصادر عن برنامج الأمم للتنمية في 2007 حول (IDH) تحتل موريتانيا المرتبة 137 من بين 177 دولة الواردة في التقرير. فيما صنفت سنة 2011 في الرتبة 159 من أصل 187 بلدا. وهي تنتمي إلى فئة البلدان المتدنية مستوى التنمية البشرية. وعلى مدى الفترة 2000 . 2011 شهدت قيمة مؤشر التنمية البشرية في البلد تطورا بنسبة نمو سنوية تبلغ في المتوسط 0.92% . وهذا المستوى من النمو مشابه لما هو ملاحظ في البلدان العربية (0.94%) لكنه أشد بطئا مما سجل في إفريقيا جنوب الصحراء(1.31%) 20.

الجدول (2): تطور مؤشر التنمية البشرية

	قيمة مؤشر التنمية البشرية				
	2000	2005	2009	2010	2011
موريتانيا	0.410	0.432	0.447	0.451	0.453
البلدان العربية	0.578	0.609	0.634	0.639	0.641
إفريقيا جنوب الصحراء	0.401	0.431	0.456	0.460	0.463

المصدر: التقرير العالمي حول التنمية البشرية 2011

6 . دليل التنمية الخاص بالنوع الاجتماعي:

عمل تقرير التنمية البشرية الصادر عن برنامج الأمم المتحدة سنة 1994 على إبراز دليل يتضمن مؤشرات للتنمية خاصة بالنساء، يساهدف تحليلا عميقا لأوضاعهن في مختلف البلدان وكذا تحليلا للتمايزات القائمة على أساس الجنس بين الرجال والنساء 21. ويتميز هذا الدليل بأنه يتكون من ثلاثة أدلة فرعية، لكل بعد من الأبعاد الثلاثة التي يتكون منها دليل التنمية البشرية، وبها يتم حساب دليل التنمية البشرية، الخاص بالنوع الاجتماعي على النحو التالي:

طول العمر: ويعتمد على مؤشرين: متوسط العمر المتوقع للأثاث عند الولادة، ومتوسط العمر المتوقع للذكور عند الولادة ، ويعتمد عليهما في الوصول إلى العمر المتوقع الموزع بالتساوي.

المعرفة: دليل تعليم الإناث، ويقاس بمعدل إلمام الإناث البالغات بالقراءة والكتابة، ونسبة إجمالي التحاق الإناث بالتعليم ، وبين دليل تعليم الإناث ودليل تعليم الذكور يتكون المعرفة بالتساوي.

مستوى العيش اللائق: دليل الخاص بالإناث، ودليل الدخل المكتسب للذكور، وبينهما يتكون دليل الدخل الموزع بالتساوي.

لقد ارتفعت قيمة مؤشر التنمية البشرية المرتبطة بنوع الجنس في موريتانيا من 0.428 سنة 1999 إلى 0.471 سنة 2003. أي بزيادة إجمالية قدرها نقطة أو 8.6 نقاط في المتوسط، ويدل هذا التطور على تحسين مستمر في وضعية المرأة في مجالات التربية والصحة ومحو الأمية والنفاذ إلى الموارد كما ترجع أيضا الى الجهود التي بذلتها الدولة وشركائها في التنمية، واستهدافهم بصورة خاصة للترقية النسوية من خلال تصور وتنفيذ أنشطة مرتبط بالتحسيس والتهذيب والصحة وإيجاد المداخيل المجزية.

7 . العلاقة بين جهود التنمية ومكافحة الفقر

إن الحق في التنمية هو حق من حقوق الإنسان الأساسية، وعلى جميع الدول أن تضع السياسات الإنمائية والتدابير اللازمة لضمان هذا الحق، وعليها السعي لتفعيل قيم التضامن والتعاون فيما بينها، وعلى المستوى الدولي للقضاء على الفقر وتحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية، وبموجب هذا الحق فلكل مواطن المشاركة والاهتمام في تحقيق التنمية والتمتع بمزاياها وثمارها. بينما المادة الثامنة والثلاثون تقرر أن لكل شخص الحق على مستوى معيشي كاف له ولأسرته يوفر الرفاه والعيش الكريم من غذاء وكساء ومسكن وخدمات، وله الحق في بيئة سليمة. وعلى الدول الأطراف (22 دولة عربية) اتخاذ التدابير اللازمة وفقا لإمكانياتها لإنفاذ هذه الحقوق 22. ويرتبط الفقر بالتنمية ومدى نجاحها أو إخفاقها في تحقيق أهدافها، إذ يشكل الفقر ظاهرة متعددة الأبعاد ومعقدة. وينظر إليه باعتباره يعني محدودية في الموارد يقترن بها عادة شعور بالعسر والإحباط والتهميش . ويتخذ الفقر صورا وأشكالا مختلفة منها على

الخصوص:الفقر النقدي الذي يظهر من خلال انعدام أو نقص مصادر للمداخيل النقدية. ويقاس هذا الشكل من الفقر انطلاقا من المؤشرات النقدية لمستوى المعيشة أو الرفاهية على أساس استهلاك الأفراد الجاري ومصاريفهم، فقر ظروف الحياة المعروف أيضا بالفقر البشري الذي يرتبط بمستوى إشباع الحاجات الأساسية من تهذيب وصحة وسكن وماء شروب،الخ...ويحدد هذا الشكل من الفقر انطلاقا من سلسلة مؤشرات ترتبط بالنفاذ إلى التهذيب والصحة والسكن والماء الشروب والتغذية.

وفي موريتانيا ميدان الدراسة دخلت الحكومة الموريتانية منذ سنة 1985 في تنفيذ برنامج واسع للإصلاح الاقتصادي والهيكلي. ومن أجل تدعيمه وخلق ظروف نمو عادل يحسن جوهريا من مستوى معيشة السكان، تم إنجاز سلسلة دراسات اجتماعية واقتصادية معمقة في سنتي 1993/1992، في إطار برنامج البعد الاجتماعي للإصلاح الهيكلي الذي يضم كذلك مجموعة من المعطيات المتعلقة بالظروف المعيشية للأسر.

وفي يوليوز 1993، أفضت هذه الدراسات التي غطت جميع الأوجه المتعلقة بتوزيع وعمق الفقر والتشغيل والقطاع غير المصنف وكذلك استهداف المجموعات الضعيفة Vulnérables وإعادة توجيه النفقات العمومية والإطار المؤسسي الملائم، إلى وضع إستراتيجية لمحاربة الفقر وللتنمية القاعدية 23.

أطلقت السلطات العمومية إستراتيجية وطنية لمكافحة الفقر وللتنمية القاعدية ابتداء من سنة 1992 وأشفعت هذه الإستراتيجية بالمصادقة سنة 1998 على برنامج وطني لمكافحة الفقر استهدف تخفيض هذه الظاهرة بشكل كبير عن طريق تنفيذ إصلاحات الغاية منها تأمين تراجع ملموس للفقر مع تعزيز المكتسبات في مجال التوازنات الاقتصادية الكبرى والمحافظة على نمو الاقتصاد .ومنذ سنة 2000، أعدت الحكومة الإطار الإستراتيجي لمكافحة الفقر الذي مثل، منذئذ فصاعدا، إستراتيجية البلد في ميدان مكافحة الفقر التي تواصل وتكمل وتوسع جميع التدخلات والأنشطة المقام بها في هذا المجال.

إن زيادة سرعة الحد من الفقر تتطلب وسيلة لزيادة النمو، ونمطا للنمو أكثر انحيازا للفقراء، والنجاح في التقليل المسبق للتفاوتات التي تحد من الفرص الاقتصادية المتاحة أمام الفقراء، حتى العمليات المحايدة لتوزيع النمو يمكن أن تترك كثيرا من الفقراء في الخلف، ويكمن التحدي في الفهم الأفضل للعوامل المحددة التي تعوق بعض الفقراء عن الإستفادة من فوائد الاقتصاد النامي، واستخلاص الدروس المستفادة من أنماط السياسات المطلوبة للحد السريع من الفقر 24.

الخاتمة:

عرفت موريتانيا منذ استقلالها إلى الآن أربع استراتيجيات للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، غطت الفترة الممتدة بين 1963 – 1985 مع وجود بعض الانقطاعات الجانبية، ثم تبعتها بثلاثة

برامج على شكل خطط لإصلاح الهيكل الاقتصادي استمرت حتى نهاية 2000، ثم طورت الدولة رؤيتها الشاملة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية على المدى الطويل وأسفرت هذه الرؤية في يناير سنة2001، عن المصادقة على الإطار الاستراتيجي لمكافحة الفقر، الذي يمثل الوثيقة الرئيسة لتوجيه السياسات الحكومية في مجال التنمية خلال الفترة 2001 . 2015.

وعلى الرغم من تعدد أهداف هذه البرامج والاستراتيجيات ومن ضخامة حجم الاستثمارات التي خصصت لها، إلا أن نتائجها على أرض الواقع في النهاية كانت محدودة بل وضئيلة جدا في أحايين كثيرة. إذ تراوحت ما بين التقصير المخل والحد الأدنى في بعض الحالات. وبعيدا عن البحث في تفاصيل العوامل والمعوقات التي أدت إلى هذا الإخفاق الجلي في تحقيق الأهداف التي كانت مسطرة سلفا، يمكن أن نورد منها على سبيل المثال الحصر، الاعتقاد السائد لدى كثيرين، بأن التغيير الاجتماعي يتوقف على حجم مقومات التقدم المنقولة من البلدان المتقدمة (المعرفة العلمية، رأس المال، القيم الغربية...الخ)، وإغفال طبيعة البناء الاجتماعي، وتجاهل الخصوصيات التاريخية والثقافية للمجتمع، ناهيك عن الفشل في تهيئة المناخ الاجتماعي لعملية التنمية، بإثراء وعي الأفراد والجماعات وإدراكهم بواقع المجتمع بمشكلاته وقضاياه الملحة، واستثارة بواعث التغيير (التنمية) لديهم من خلال رفض الواقع المحلي(المتخلف) والتأكيد على قدرات المجتمع وإمكانياته بالعزيمة ولإرادة والعمل الجاد لبلوغ التقدم المنشود، بالإضافة إلى العجز البين عن تغيير القيم البالية والمعتقدات والعادات والتقاليد والاتجاهات والسلوكيات الخاطئة التي تعوق التنمية، واستبدالها بأخرى تتلاءم مع التنمية ومع متطلباتها وتدعمها.

الهوامش:

1- طلعت مصطفى السروجي، التنمية الاجتماعية المثال والواقع، مركز نشر وتوزيع الكتاب الجامعي، جامعة حلوان 2001، مصر، ص 14

2- غريب عبد السميع غريب، علم الاجتماع: مفهومات . موضوعات . دراسات، مؤسسة شباب الجامعة، 2009، الإسكندرية، مصر، ص 206

3- إبراهيم ، عثمان ، مقدمة في علم الاجتماع ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى 2007 ، عمان ، الأردن ، ص 334

4- خالد الزقوزي مفيدة ، التنمية : مراجعة للمفهوم والأبعاد ومنهجية القياس ، مجلة الجامعة المغاربية، العدد السابع 2009، طرابلس، ليبيا.

ص 92

5- حرب الخيطي ، الأنماط التنموية والإقليمية في الوطن العربي ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العد التاسع، المجلد الثالث 1983 الكويت، ص 49

6- سيدي عبد الله ولد المحبوبي، الهجرة الداخلية والتنمية في موريتانيا "الثنائي الحرج ، صندوق الأمم المتحدة للسكان بموريتانيا ، بالتعاون مع جامعة نواكشوط ، 1997، موريتانيا.، ص 28

7- عبد الكريم ، الأرياني ، التنمية الاقتصادية والخطة الخمسية الأولى ، في الجمهورية العربية اليمنية " دراسة تحليلية ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد الثاني والعشرون ، الكويت ، ابريل 1980 ، ص 87

8- سيدي عبد الله ولد المحبوبي ، الهجرة الداخلية والتنمية في موريتانيا "الثنائي الحرج ، مرجع سبق ذكره ص 29

9- عزيزة ، خرازي ، الاتجاهات النظرية الحديثة في سوسيولوجيا التنمية ، الحوار المتمدن ، العدد 2175 . 29\1\2008 ، الرابط http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=123261

10- ثروت محمد شبلي، تنمية اجتماعية، المستوى الأول، جامعة بنها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ص 53

11- خالد الزقوزي مفيدة ، التنمية : مراجعة للمفهوم والأبعاد ومنهجية القياس ، مرجع سبق ذكره ص 97

12- نفس المرجع ص 99

13- عبد الباسط ، عبد المعطي ، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع ، عالم المعرفة ، العدد 44 ، المجلس الوطني للثقافة والآداب ، الكويت 1981 ص 73

14- مفيدة ، خالد الزقوزي ،التنمية : مراجعة للمفهوم والأبعاد ومنهجية القياس ، مرجع سبق ذكره ص 100

15- وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية ، وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية في موريتانيا ، التقرير الوطني حول التنمية البشرية المستديمة والفقر 2005، ص 21

16- مفيدة ، خالد الزقوزي ، التنمية : مراجعة للمفهوم والأبعاد ومنهجية القياس ، مرجع سبق ذكره ص 103

17- جمال حلاوة، دور البحث العلمي في دعم التنمية المستدامة" دراسة حالة جامعة القدس في الضفة الغربية، أماراباك، مجلة علمية محكمة تصدر عن الأكاديمية العربية للتكنولوجيا، العدد الربع ، 2011، ص 4.

18- برنامج الأمم المتحدة لإنمائي للمرأة، المكتب الإقليمي للدول العربية، التنمية والنوع الاجتماعي ، الطبعة الرابعة، عمان . الأردن، 2001 ص 3

19- En ce qui concerne les calculs du Rapport Mondial sur le Développement Humain 2007 et2008 de Développement Humain de la Mauritanie est de 0,550 avec une position de l'IDH 137 ème rang . Cet indicateur est toujours supérieur à ceux du Niger (0,374), du Mali (0,380), du Tchad (0,388) et du Burkina Faso (0,370). Il est aussi également supérieur à celui de l'Afrique subsaharienne (0,493) moyenne des pays arabes (0,699). Mais, inférieur à ceux du Maroc (0,646), de l'Algérie (0,733) et de la . Source : Issa Ould Bellal , Analyse de la situation et des perspectives du développement humain durable et de l'atteinte des OMD en Mauritanie ; Centre Mauritanien d'Analyse de Politiques (CMAP), 2009 page30

20- وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية وصندوق الأمم المتحدة للسكان، التقرير الوطني حول تنفيذ خطة عمل المؤتمر الدولي السكان والتنمية، نوفمبر 2012، ص 13

21- العربي وافي ، مقاربة النوع والتنمية ، المعرفة للجميع ، العدد 35 ، منشورات رمسيس ، 2008، الرباط، ص 158

22- صليحة مقاوسي، الفقر الحضري : أسبابه وأنماطه، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في علم اجتماع التنمية، جامعة منتوري قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم علم الاجتماع و الديمغرافيا، 2008، الجزائر، ص 109

23- ج. إ . م ، الفريق الاستشاري الخاص بموريتانيا، البرنامج الإطاري للتنمية القاعدية ومكافحة الفقر، وثيقة خاصة 1994، ص 1

24- ستيفن بي وجون مايكلريت منظور جديد للفقر والتفاوت، ترجمة بدر الرفاعي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، العدد 363 ، 2009 ص 73 العنوان الاصلي للكتاب Inequality and poverty Re-Examined

المراجع

1- إبراهيم عثمان، مقدمة في علم الاجتماع، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2007، عمان، الأردن.

2- برنامج الأمم المتحدة لإنمائي للمرأة، المكتب الإقليمي للدول العربية، التنمية والنوع الاجتماعي، الطبعة الرابعة2001، عمان، الأردن.

3- البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، أعداد متعاقبة من تقارير التنمية البشرية (2004 . 2014).

4- ج. إ . م، الفريق الاستشاري الخاص بموريتانيا، البرنامج الإطاري للتنمية القاعدية ومكافحة الفقر، وثيقة خاصة 1994.

5- حرب ، الخيطي، الأنماط التنموية والإقليمية في الوطن العربي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد التاسع ، المجلد الثالث 1983 الكويت.

6- خالد الزقوزي، مفيدة ، التنمية : مراجعة للمفهوم والأبعاد ومنهجية القياس ، مجلة الجامعة المغاربية، العدد السابع 2009، طرابلس، ليبيا.

7– خرازي عزيزة، الاتجاهات النظرية الحديثة في سوسيولوجيا التنمية، الحوار المتمدن، العدد 2175، 2008.
8– ستيفن بي وجون مايكلريت منظور جديد للفقر والتفاوت، ترجمة بدر الرفاعي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، العدد 363 ، 2009 ،العنوان الأصلي للكتاب Inequality and Poverty Re-Examined
9– السروجي طلعت مصطفى، التنمية الاجتماعية المثال والواقع، مركز نشر وتوزيع الكتاب الجامعي، جامعة حلوان 2001، مصر.
10– صليحة مقاوسي، الفقر الحضري : أسبابه وأنماطه، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في علم اجتماع التنمية، جامعة منتوري قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم علم الاجتماع والديمغرافيا، 2008، الجزائر.
11– عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، عالم المعرفة، العدد 44، المجلس الوطني للثقافة والآداب، 1981 الكويت.
12– عبد الكريم الأرياني، التنمية الاقتصادية والخطة الخمسية الأولى، في الجمهورية العربية اليمنية " دراسة تحليلية، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد الثاني والعشرون، إبريل 1980، الكويت.
13– غريب عبد السميع غريب، علم الاجتماع: مفهومات . موضوعات . دراسات، مؤسسة شباب الجامعة، 2009، الإسكندرية، مصر.
14– مال حلاوة، دور البحث العلمي في دعم التنمية المستدامة" دراسة حالة جامعة القدس في الضفة الغربية، أماراباك، مجلة علمية محكمة تصدر عن الأكاديمية العربية للتكنولوجيا، العدد الربع، 2011.
15– محمد شبلي ثروت، تنمية اجتماعية، المستوى الأول، جامعة بنها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية مصر
16– مراد، ناصر، التنمية المستدامة وتحدياتها في الجزائر، المجلة العربية للبحوث الاقتصادية، الصادرة عن الجمعية العربية للبحوث الاقتصادية بالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية، العدد 46، 2009.
17– وافي العربي، مقاربة النوع والتنمية، المعرفة للجميع، العدد 35، منشورات رمسيس،2008، الرباط. المغرب.
18– وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية وصندوق الأمم المتحدة للسكان، التقرير الوطني حول تنفيذ خطة عمل المؤتمر الدولي السكان والتنمية، نوفمبر 2012
19– وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية، وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية في موريتانيا، التقرير الوطني حول التنمية البشرية المستديمة لسنة 2002.
20– وزارة الشؤون الاقتصادية والتنمية، وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية في موريتانيا ، التقرير الوطني حول التنمية البشرية المستديمة والفقر 2005.
21– ولد المحبوبي سيدي عبد الله، الهجرة الداخلية والتنمية في موريتانيا "الثنائي الحرج"، صندوق الأمم المتحدة للسكان بموريتانيا بالتعاون مع جامعة نواكشوط، 1997، موريتانيا.
22- Issa Ould Bellal, Analyse de la situation et des perspectives du développement humain durable et de l'atteinte des OMD en Mauritanie ; Centre Mauritanien d'Analyse de Politiques (CMAP), 2009.

د. أنس الصنهاجي، ظهر المهراز– فاس، المغرب

وطّأ ميناء الجديدة – الذي كان أحد المراسي الثمانية المفتوحة للتجارة الأوربية بالمغرب إبان القرن التاسع عشر الميلادي– للاختراق الأجنبي وتسرباته الرأسمالية، ما فرض واقع الحماية القنصلية، وربط المخالطات في الفلاحة والتجارة، وتسخير المحميين المغاربة لخدمة البراغماتية الأجنبية بالمغرب، وقد أسهم القواد والشيوخ والأمناء، ذوو الأطماع والطموحات المتعارضة مع الأعيان1 في حبك الحيل، لتوريط المغرب في ربقة السيطرة الأوروبية، كما عمدوا إلى تقويض عرى الحاكمين بالمحكومين، ونسف كل إصلاح يؤمل نجاحه، وفي خضم ذلك، عاش الدكاليون في فوضى عارمة، قادتهم إلى رفض الامتثال لسلطة المخزن، ما حدا بالمولى عبد العزيز إلى تقليد عمه الأمير العمراني قيادة الحركة، من أجل تأديب المتمردين وإخضاعهم من جديد، لكنه أخفق في إنجاز ما أنيط به، فاضطر إلى التقهقر إلى أزمور، وبعد سنة عاود الكرة، لكنها منيت بالفشل، فانكفأ عند ارحامنيين انتظارا للفرصة المواتية للوثب من جديد، غير أن الهزيمة لازمت ركابه، فانسحب نهائيا من المهمة معلنا فشله الذريع، وقد عزز من موقف الدكاليين، وقوفهم إلى جانب المولى عبد الحفيظ، الذي طالبت شريحة واسعة من المغاربة، توليته خلفا لأخيه بعدما كره الناس تماديه في إقرار مجموعة من الامتيازات القنصلية، التي فتّت في عضد الدولة وعمقت من هيمنة الأجنبي، الأمر الذي دفعهم إلى إذكاء الثورة ضد قواد العونات وأولاد بوزرارة الموالين للمولى عبد العزيز، وعند إرسال هذا الأخير للقائد العيادي بغية استعادة سلطة المخزن على المنطقة، أقنعه الدكاليون بالاستقلال بالشاوية، ومنحوه 50000 دورو 2.

وفي الرابع من غشت سنة 1907م، كتب المكلف بالأشغال الفرنسي "سان أولير" Saint (Oulir) إلى وزير خارجيتهم "بيشون" (S.Pichon)، يطلعه على الوضع بمدينة الجديدة، وعلى ضرورة التحرك لحماية الأجانب من ردود فعل الأهالي بعد قنبلة الشاوية، ملتمسا منه إرسال سفينة حربية لمرسى الجديدة، باعتبار فرنسا هي المخولة بحماية الأجانب، وفي الوقت ذاته، طلب القنصل الفرنسي بالجديدة من قائد الأسطول الفرنسي بالدار البيضاء، إرسال قوات لاحتلال المدينة التي أصبح فرسانها خطرا على الأجانب، خاصة مع إعلان المولى عبد الحفيظ الجهاد إثر بيعته بمراكش يوم السادس عشر من غشت سنة 1907م،3 وسيطرة مناصريه على بادية الجديدة ومدينة أزمور، غير أن السفن الحربية الرابضة قبالة المدينة اقتصرت على المراقبة، وبمجرد اعتلاء المولى عبد الحفيظ رسميا سدّة الحكم، تخلت فرنسا عن الخيار العسكري، وعوضته بسلاح الاستثباب السلمي عن طريق التحالف مع القواد الضعاف الذين في حاجة إلى من يعزز مكانتهم ويقوي حضورهم، ومن هؤلاء القواد الذين رصدوا لإنجاز هذه المهمة، القائد عيسى بن عمر، الذي عملت فرنسا مع أمثاله

على توسيع نفوذهم وتجميع عدة مناطق تحت سلطتهم. وفي إطار السياسة نفسها استغلت فرنسا الطاعون الذي ضرب إحدى مناطق دكالة، وعينت بعثة صحية لمحاصرة المرض والقضاء عليه، بمعيّة فيلقين يتكونان من الكوم، وعساكر بأحصنة 4.

وهكذا ساقت الظروف الداخلية والخارجية التي استبدت بالمنطقة إلى إجهاض مشروع الاحتلال المباشر لمدينة الجديدة سنة1907م، والتي من أهمها:

- تقيّد الحكومة الفرنسية بمعاهدات دولية تثنيها عن التوسع والاحتلال.
- نقض قواد الجديدة لبيعتهم للمولى عبد الحفيظ، واعترافهم من جديد بالسلطة العزيزية.
- الخوف من تأذي الجالية الأوربية واليهودية جراء القصف وانتقام الأهالي.
- تكبّد القوات الفرنسية لخسائر جسيمة في حربها مع قبائل الشاوية 5.

وقد عاشت مدينة أزمور السياق التاريخي نفسه الذي شهدته مدينة الجديدة، حيث كانت من المدن السباقة إلى مبايعة المولى عبد الحفيظ، الأمر الذي جعل المجال الأزموري حلبة ملبّدة بالصراع بين أنصار الإخوة الأعداء، هذا الوضع، دفع الجنرال" داماد" (Damad) إلى استغلال الفرصة والتفكير إجرائيا في جعل أزمور في تماس مباشر مع قوات الاحتلال الفرنسي على طول واد أم الربيع، وتأمين الحدود الشمالية الغربية للشاوية 6، فخرج يوم السابع والعشرين من يونيو سنة 1908م، يقود طابورا فرنسيا من البيضاء وبرشيد قوامه ألفا جندي، وبعد وصوله في الثلاثين من يونيو وجد أبواب المدينة مغلقة، والمراكب المستخدمة في عبور النهر مربوطة على ضفته اليسرى. وقد شهدت أزمور قبيل وصوله، هجوما في صباح اليوم نفسه من قبل وحدات عزيزية، غير أن المدافعين عن المدينة ردوها على أعقابها، وغنموا ما كان معها من مدافع ومعدات7. وقد آزرت قوات "داماد" (Damad) طرادة فرنسية رابطت على مصب النهر بقيادة الأميرال "فلييير" (Filiper)، وبعد مفاوضات قصيرة، اضطر القائد الحفيظي حسي الكلاوي إلى مغادرة المدينة صحبة جنوده إلى مراكش، بعد إعلان عزل قائد الحوزية محمد التريعي. وهكذا فتح المجال إلى دخول القوات الفرنسية دون قتال.

وقد استند التدخل الفرنسي في مدينة أزمور، على مجموعة من المسوغات، والتي من أبرزها:

- تجفيف منابع الأسلحة المهربة لصالح الثورة الحفيظية.
- مساعدة المخزن العزيزي لاستعادة أزمور.
- تأمين الاتصالات والمبادلات التجارية بين الجديدة والبيضاء.
- حماية مصالح الأجانب ومحمييهم المغاربة على وجه الخصوص 8.
- التضييق الذي أصبح يتعرض له الفرنسيون بأزمور 9.

وما لبثت قوات "داماد" أن دخلت المدينة حتى انسحبت منها، بعد ما جاءها الأمر بالعودة فورا إلى قاعدتها بالشاوية، وبالفعل ففي السادس من يوليو سنة 1908م تحركت القوات في اتجاه خط العودة 10، بعدما تركت حراسة بحرية مستقدمة من الرباط، ومحلة عسكرية مخزنية قوامها أربعمائة عسكري11، هذا بالإضافة إلى مجلس بلدي محلي، يضم ثلاثة عشر عضوا مهمته مساعدة العامل الجديد على تسيير شؤون المدينة.

وكان من بين أبرز البواعث التي دفعت "داماد"، إلى الانسحاب من المدينة هي:

- اعتبار هذا الاحتلال نقضا لمبدأ الحياد الذي التزمت به فرنسا في إطار الصراع بين الأخوين.
- خرق فرنسا للفصل الأول من ميثاق الجزيرة الخضراء، الذي يجيز للشرطة الفرنسية التدخل في ميناء أزمور12.

كما أصدرت الحكومة الفرنسية مجموعة من المبررات، التي حاولت من خلالها إخلاء مسؤوليتها المباشرة وهي:

- إصدار تقرير يبين فيه عدم رضاها عن عمل قائدها "داماد".
- مراسلته وتذكيره أنه لا يسمح له بعبور أم الربيع.
- الانسحاب فورا من المدينة والدخول في مركز أعماله (الشاوية).

لكن يظل السبب الرئيس والمنطقي لانسحاب "داماد" من أزمور، هي الأزمة التي كانت ستتفجر بين فرنسا وألمانيا جراء ذلك 13، الأمر الذي أجبر القيادة الفرنسية 14 إلى تسفيه عمل "داماد"، واعتباره خارج حدود الأوامر والاتفاق.

وفي غمرة ذلك، استغل القائد التريعي هذه الأحداث المستجدة، وقام بقيادة هجوم ضد العزيزيين في المدينة، تكلل بإسقاط سلطتهم والقضاء على عاملهم الذي قتل مع نجله، ثم مثل برأسيهما على أبواب مدينة أزمور15، كما قام القائد التريعي باعتقال ثلاثة أفراد من قبيلة الحوزية كانوا يوالون غرماءه، حيث رمى الأول في بئر سحيق، وأحرق الثاني، وقتل الثالث رميا بالرصاص 16، ولم يقف عند هذا الحد، بل نكّل بكل من ثبت تورطه مع السلطة المندحرة17. وهكذا أصبحت أزمور مركزا سياسيا وعسكريا متقدما لمواجهة العدو الفرنسي من جهة الشاوية 18، بعدما فشلت محاولة الاحتلال، الأمر الذي فرض واقع سياسة شد الحبل بين السلطات الفرنسية والمقاومين الدكاليين، حتى فرضت الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1912م 19. ليبدأ فصل جديد من الصراع الفرنسي– الدكالي، تصدر مشاهده القائد التريعي. ففي الثالث والعشرين من يوليوز من السنة ذاتها احتل الكولونيل "مانجان" (Mangin) مدينة أزمور، وجعلها نقطة مركزية لعمليات "التهدئة" بدكالة، حيث استهل إجراءاته بالمنطقة بـ:

- جعل دكالة والشاوية تحت إدارة واحدة.

- إخضاع المنطقة بالطرق السياسية.
- تجنب قدر الإمكان التدخل العسكري بها.
- القضاء على القائد التريعي وشيعته 20.

فقبل غزو"مانجان" (Mangin) بشهرين ونيف مدينة أزمور، دخل القائد التريعي تحت حماية القنصلية الإسبانية، بمساعدة كاتب القنصلية "ديجول" (Dujol)، ووساطة اليهودي المغربي "جوزيف راهون" (Joseph Rahon)، ورغم المعارضة التي أبدتها الإدارة الفرنسية، ووزراء مغاربة أمثال محمد الجباص، فإن إسبانيا رفضت بشدة سحب هذه الحماية21.

وبمجرد ولوج "مانجان" المدينة 22، اتجه مباشرة صوب قصبة القائد التريعي لإسقاط آخر معقل يمكن أن يهدد الوجود الفرنسي بالمنطقة 23. غير أن رد فعل القائد التريعي كان سريعا، حيث تسلل إلى دار اليهودي"سيكسو" (Siksou) التي كانت على مقربة من مدينة الجديدة، ليلة الثالث من غشت سنة 1912م 24، ما دفع "مانجان" إلى تعقبه ومحاصرة ملجئه، هذا الإجراء جعل القنصل الإسباني يستشيط غضبا ويحتج بشدة على الخارجية الفرنسية، بحكم أن القائد التريعي هو محمي إسباني، وأي تصرف ضده هو فعل خارج عن القانون 25.

وفي يوم الخامس من غشت، حاول مؤيدو القائد التريعي على الساعة التاسعة ليلا اقتحام الجديدة لتخليصه من الحصار، فوقعت اشتباكات بينهم وبين الرماة الفرنسيين، استمرت زهاء إحدى عشرة ساعة 26، وفي اليوم الموالي قاد "مانجان" حركة ضد المهاجمين، معززا في الوقت نفسه حصاره بفرقة من الرماة 27، وفي التاسعة ليلا عاود الغريمان التراشق بالرصاص لمدة عشر دقائق، دون أن يُسفر ذلك عن أي نتيجة 28.

وفي السادس من الشهر نفسه، أصبحت جل المتاجر والمؤسسات البنكية والتجارية والإدارية خدماتها معلقة، وسكان المنطقة متقوقعون في منازلهم، بعدما توجسوا من الاستعدادات الحربية المتأهبة لاقتحام ملجأ القائد التريعي، لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، فبعدما نال التعب والقيظ والنوم من انتباه الجنود المحاصرين، اندفع الفارس المغربي في الواحدة بعد الزوال، وهو يشق صفوف جنود "مانجان"، حاملا ابنه الصغير في إزار معقود بحزامه بمعية بعض رجاله 29، ونظرا للمفاجأة والارتباك الذي أصاب الجنود، خابت كل الطلقات النارية التي سددت صوبه 30، وهكذا تمكن القائد التريعي من الإفلات من قبضة "مانجان"، غير أن بعض أتباعه قبض عليهم، فحكم على خمسة منهم بالقتل، واثنين بالسجن 31، في حين ظل مصير القائد التريعي يكتنفه الغموض، فهناك من أورد أنه انخرط في الجهاد ضد الفرنسيين إلى جانب أحمد الهيبة، وشارك في معركة سيدي بوعثمان، وهناك من أشار إلى مشاركته في الجهاد إلى جوار موحا أوحمو الزياني بالأطلس المتوسط 32، ثم انتقل بعد ذلك إلى سوس ونزل في ضيافة القائد العربي الدردوري، لكن ملاحقة الباشا الكلاوي له دفعته للفرار إلى تزنيت ثم إلى الصحراء وبعدها إلى كرسيف، ليحط رحاله

أخيرا في بني ملال وبالضبط بمنطقة بواوزغت، حيث وافته المنية بها سنة 1929م 33.

يبدو أن تصفية القائد التريعي والمقاومة التابعة له، كانت من أولويات الحملة العسكرية على دكالة، وذلك من أجل تصفية الأجواء للمشروع الكولونيالي بالمنطقة وصرف النظرعما قامت به فرنسا من خروقات حيال ميثاق الجزيرة الخضراء، ومن تعسفات اتجاه الساكنة 34.

وبعد أن نجح "مانجان" في تصفية أو إبعاد خصومه من جهة دكالة، بدأ يتطلع إلى إخضاع كل هوامشها المتاخمة لمدينة مراكش، منتهجا سياسة بقعة الزيت المعتمدة على التوغل السلمي، وقد استهل عمله بالاتصال بعم السلطان الشريف العمراني، لإقناع القواد الناشزين الامتثال لسلطة الحماية، مقابل مبالغ مالية وامتيازات سياسية 35. لكنه لم يكن في مستوى المهمة، حيث كان يقضي معظم وقته في أبناك الجديدة يعد الدورو 36.

مجمل القول، إن تضافر مجموعة من العوامل والحيثيات، جعلت منطقة دكالة على وجه الخصوص، تسقط لقمة سائغة في متناول المستعمر الفرنسي، ويعزى ذلك بالأساس إلى واقع الإمكانيات المتباينة بين الغريمين على أكثر من صعيد، ما فرض خضوع منطقة دكالة لإدارة الاحتلال بمنطق الغالب.

وإذا كانت مناطق مغربية معروفة، استنسرت في الدفاع عن مجالها مثل منطقة الريف، الأطلس المتوسط... فلأن ظروفها أنتجت أولا قيادة حصيفة واعية بقضيتها وإمكاناتها، ثانيا استقرارها بمناطق تغلب عليها الحواجز الجغرافية، ما يجعلها صعبة الاختراق، وهذا ما يفتقده المجال الدكالي، فالمعلوم أنه بعد اختفاء القائد التريعي، فقد من ينهج نهجه أو يتم ما بدأه، بل على العكس من ذلك، سارع جل قواد دكالة للاستسلام للسيد الجديد، إما حفاظا عن مواقعهم الاجتماعية والقبلية ...، أو طلبا للسلامة.

وانطلاقا من هذه الاعتبارات نستنتج أن المقاومة الدكالية إبان هذه الفترة، اتسمت بالضعف والتسليم، لأسباب عدة يمكن إجمالها في:

- طغيان الطابع السهلي المنبسط، الذي جعل المجال فاقدا للمناعة التضاريسية والمصدّات الجغرافية 37، الأمر الذي جعل كل تحرك دكالي مسلح هو ضرب من ضروب الانتحار.
- تواضع القدرات العسكرية وقدم المعدات الحربية الدكالية.
- غياب قيادة كاريزمية تلتف حولها القبائل الدكالية، لقيادة غمار المقاومة.
- سيادة المصالح الذاتية الضيقة لبعض النخب الدكالية.

فضعف المقاومة الدكالية لأسباب جغرافية وعسكرية، ليس وليد مرحلة الحماية، بل بدأ منذ الاستعمار البرتغالي للمنطقة، حيث يؤكد الباحث أحمد بوشرب، أن دكالة هي المنطقة الوحيدة التي استطاع البرتغاليون الحصول فيها على مكتسبات سهلة، مقارنة مع باقي مناطق الساحل المغربي 38، والسبب في اعتقاده، هي التضاريس المنبسطة، وكثافة السكان القريبة من الثغور التي سهلت

على المستعمر مهمة التحكم في المنطقة، حيث يقول:" لم تكن القبائل تجد مأوى تلجأ إليه، ذلك أن الجبل الأخضر، وجبال بني ماكر غير منيعة..." وبهذا تكون دكالة فاقدة لعامل وازن استفادت منه قبائل الشمال على وجه الخصوص، وهو قرب الجبال المرتفعة من الثغور المحتلة 39، هذا فضلا عن التفوق الواضح للبرتغاليين من حيث نوعية السلاح المستعمل، والذي كان ناريا، في الوقت الذي كان فيها السلاح الدكالي بدائيا 40.

الهوامش:

[1]– الخديمي (علال)، *مقاومة الأطماع الفرنسية بدكالة في بداية القرن العشرين*، ط 2، ندوة علمية بعنوان: دكالة وتاريخ المقاومة بالمغرب، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2010، ص. 146.

[2] - Archive national de Rabat, Carton n°F160, *Une lettre de chef de l'annexe de Sidi contrôleur civil chef de la circonscription des Doukkala, Benour à monsieur* le 4.1919, p .

[3] – الخديمي (علال)، *مقاومة الأطماع* ...، م.س، ص. 148.

[4] - A.N.R, Carton n°P15, *Lettre à monsieur* le *contrôleur civil chef de la circonscription des Doukkala*, 1919, p 2. .

[5] – الخديمي (علال)، *مقاومة الأطماع*...، م.س، ص ص. 150–151.

[6] – الشياظمي (محمد)،" *أزمور بعد الجلاء البرتغالي سنة 1541/948*، *معلمة المغرب*"، ج 2، مطابع سلا، 1998، ص. 360.

[7] - B.E.M, « *Azemmour* », vol VI, n°16, Avril 1937, p 116. .

[8] – الهيوز(بديعة)، *موقف فرنسا من احتلال داماد لأزمور من خلال وثيقة غير منشورة*، ندوة علمية تحت عنوان: أزمورحاضرة دكالة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الجديدة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2007، ص. 127.

[9] – الخديمي (علال)، *مقاومة الأطماع*...، م.س، ص ص. 152– 153.

10 – M(Bellaire), *Villes et tribus*…1 t op., p. 64.cit. .

11– B.E.S, « *Azemmour* », vol VI n°16, Avril 1937, op.cit, p. 56. .

12 – الهيوز(بديعة)، *موقف فرنسا...*، م.س، ص. 127.

13– نفسه، ص. 128.

14– نفسه.

[15] – ميشوبلير، *أزمور وضواحيها*، ترجمة وتعليق محمد الشياظمي، مطابع سلا، 1989، ص. 83.

[16] – Christian(Feucher)، *Mazagan (1514-1956)*, l'Harmattan, Paris, 2011, p. 179. .

[17]– الخديمي (علال)، *مقاومة الأطماع*...، م.س، ص. 155.

[18] - B.E.M, « *Azemmour* », vol VI, n°16, Avril 1937, op. cit., p. 116.

[19]– الخديمي (علال)، *مقاومة الأطماع*...، م.س، ص. 152.

[20] - A.N.R, Carton n°P15, *Lettre à* ..., op. cit., p. 3. .

21- ركوك (علال)، *المقاومة وأحداث من* التاريخ الإجتماعي *في الأدب الشفوي المغربي (1890-1956)*، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة بني يزناسن، سلا، 2001، ص. 203.

22- للتوسع في الموضوع، أنظر مجلة المناهل العدد 90/89، السنة 2011، ص. 213.

23- A.N.R, Carton n°P15, *Lettre à...*, op. cit., p. 3.

24- Feucher(Christian), *Mazagan (1514-1956)*, p , 2011, Paris l'Harmattan. 179.

25- Idem. -

26- Idem. -

27- الخديمي (علال)، *مقاومة الأطماع...*، م.س، ص. 156.

28- Feucher(Ch), *Mazagan (1514-1956)*, op. cit. , p. 180.

29- الخديمي (علال)، *مقاومة الأطماع...*، م.س، ص. 156.

30- ركوك (علال)، *المقاومة وأحداث...*، م.س، ص. 204.

31- جريدة السعادة، *حادثة الجديدة*، العدد 579، الأربعاء 10 غشت 1912، ص. 3.

32- دوتوي (جان)، ترجمة عوام (عبد اللطيف)، *" إعلان الحماية على مدينة آزمور"*، مجلة المناهل،ع 90/89، س 31، يونيو 2011، ص. 243.

33 – ركوك (علال)، *المقاومة وأحداث*، م.س، ص. 204.

34- دوتوي (جان)، *إعلان الحماية...*، م.س، ص. 243.

35- Feucher(Ch), *Mazagan (1514-1956)*, op.cit. p. 181 ,.

36- A.N.R, Carton n°P15, *Lettre à ...*, op. cit., p. 4.

37- جمال (عبد اللطيف)، *المجال الجغرافي والمقاومة المسلحة، نموذج منطقة دكالة*، ط 2، ندوة علمية، تحت عنوان: دكالة وتاريخ المقاومة بالمغرب، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2010، ص. 53.

38- بوشرب (أحمد)، دكالة *والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور وقبل 28 غشت 1481 أكتوبر 1541*، دار الثقافة، 1989، ص. 10.

39 – نفسه، ص. 22.

40- جمال (عبد اللطيف)، *المجال الجغرافي...*، م.س، ص. 52.

المرأة في الاسطغرافية الاباضية

د. نبيلة عبد الشكور، جامعة الجزائر 2

بلغت المرأة في المغرب الأوسط مكانة مرموقة في المجتمع ، وهي تقوم بشأن كبير وخطير إلى جانب الرجل في مختلف مجالات العمل من خلال إسهامها الإيجابي في التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي أحرزت على أرض الواقع منذ تأسيس الامارات المستقلة بالمغرب الاسلامي، وبفضل قيادة الحكام وأئمة بني رستم، ورؤيتهم وجهودهم الدؤوبة على مختلف الأصعدة بما في ذلك الاهتمام بالمرأة وتحسين أوضاعها ورعاية شؤونها والأخذ بيدها. كما توضحه النقاط الآتية:

1- لقد أقبلت المرأة الرستمية1 على العلم والمعرفة خصوصا بأمور دينها فكانت تشارك في الحلقات في المساجد والكتاتيب، وقد تزامن ذلك مع بداية انتشار المذهب الخارجي الإباضي في المغرب الأوسط من طرف علماء ومشايخ الإباضية 2 الذين كانوا متشبهين بسيرة الخلفاء الراشدين .

وقد وردت في المصادر بعض إشارات تؤكد وجود بعض عادات الأسر الأميسية أو بعض بقاياها على الأقل، لدى هذه الإمارة، الأولى، أن ستة من شيوخها عرفوا بأسماء أمهاتهم، الأول والثاني الشيخ عروة 3 وأخيه الشيخ أبو بلال مرداس 4 ابنا أدية، الثالث والربع الشيخان أبو روح وأخيه مازن ابنا كنانة 5 والخامس الشيخ أبو خزر يعلى بن زلتاف 6، ثم السادس وهو الشيخ عمر بن دمو الحمدانية بنت درجو 7 امرأة يمكتن، كذلك عرف أحد أحفاد الإمام عبد الرحمان بن رستم باسم أمه وهو الأمير المدراري الشهير بابن أروى 8 بنت عبد الرحمان بن رستم.

والثانية، كانت المرأة الإباضية تتدخل في الشؤون العامة، كما أن تأثير الأم على أبنائها وتوجههم بدا واضحا، إذ ترعرع مؤسس الدولة عبد الرحمان بن رستم في القيروان، فحفظ القرآن وتعلم اللغة العربية ومبادئ الإسلام تحت رعاية أمه وزوجها 9، كانت أمه تشجعه على التوجه إلى المشرق وبالضبط مدينة البصرة 10 حيث مدرسة الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، في سنة 135 هـ / 725 م 11 التقى عند الإمام أبي عبيدة بوفد من المغرب وكم كانت هذه المنشورة مفيدة بالنسبة إليه وحازا له على التعلم ومناظرة المذهب الإباضي.

والثالثة، أن المرأة الإباضية لها مكانة متميزة في الاسرة والمجتمع، كانت لا تكره على الزواج ممن لا ترضاه لنفسها وخاصة نساء بيت الإمامة، ذلك لأن المذهب الإباضي الذي يعتنقه أهلها ، يُحتّم موافقة المرأة على من يتقدم للزواج منها. فقد قصدت دوسر بنت اليقظان الإمام يوسف وهي تشكو إلى أبي عبد الله الشيعي 12 غدر الإمام يقظان من أبيها، ووعدته بالزواج إذا ما تأثر لأبيها ، فقبل أبي عبد الله الشيعي بها – وربما يبدو أنها كانت جميلة كذلك

إلى جانب كونها ذكية وشجاعة لهذا القرار الذي اتخذته – فأحضر أبو عبد الله الشيعي يقظان وتمثل بين يديه، وسأله عن اسمه فأجاب: " أنا يقظان، فقال، بل أنت حيران، ما الذي دعاكم إلى قتل أميركم فسلبتم ملكه، وأطفأتم نور الإسلام بغير سبب، وألقيتم بأيديكم إلينا بغير قتال"13، ثم قتله أبو عبد الله الشيعي بفظاعة 14.

ورغم ان دوسر استطاعت ان تأثر لأبيها، إلا انها لم تنتصر على الرجل الذي أحبها وأراد الزواج بها، وعندما طلب يدها، علم أنها فرّت مع عمّها يعقوب بن الإمام خفية نحو مدينة وارجلان 15، فتبعها بجيش" وعندما دخل المدينة، انتهبها وانتهك حرمتها وقتل أهلها وكل بيت الإمامة من الرستميين "16 سنة (296 هـ/909 م)، على أية حال فقد كان استشهاد دوسر رمزا لسيرة المرأة الإباضية الصالحة، الثائرة لأبيها، والرافضة لزوج لا ترضاه لنفسها، وهي نموذجا لما وصل إليه مستوى المرأة في المجتمع الرستمي من البذل و العطاء والتضحية.

أما الرابعة، فإن المرأة في المجتمع الرستمي كان لها في مجال العلم شأن معتبر بالنسبة إلى عصرها كحفظ القرآن الكريم بقراءته و رواياته و رواية الحديث، و دراسة مبادئ المذهب الإباضي والأمور الفقهية، وقد اشتغلت بعضهن بالشعر كأم يحي 17 ، وبعضهن الأخريات كامرأة معافرية من ذرية أبي الخطاب المعارفي، فقد أخبرنا الدرجيني 18 أنها: " عندما توفي قالت وهي تبكيه :" لما مات أبو الخطاب، مات الحق، فبقيتم يا زواغة هامة ببطون كالأخرجة، وعائم كالأبرجة، ونعال مبلجة، وأحكام متعوجة "، وأضاف الدرجيني قائلا إنما عبرت بقولها مات الحق عن فقد من يحكَم الحق من آل أبي الخطاب ".

كما اشتهرت الفقيهة أخت 19 عمروس بن فتح النفوسي 20 ولا نعلم لها اسما ولا كنية بالعلم والتدين والعقل، وقد أملت على أخيها كتاب المدونة "، لأبي غانم الخراساني فكتبها كلها، وكانت تحسن التصرف في المواقف الحرجة، وهذا يدل على رجاحة عقلها و حسن تدبرها. ويقال عنها لما خرجت مع بعض نسوة قبيلة نفوسة في موقعة "مانو " أخذت أسيرة معهن من جيش الأغالبة، خشيت على شرفهن فأفتت لهن بما يصونهن، بحيث أمرت أن تستخلف كل واحدة منهن عن نفسها من يزوجها لمن أرادها بسوء 21. وهو من كمال عقلها وعلمها وفقهها في الدين وكانت منهن مدرسات ومعلمات شغلن مقاعد التدريس، واهتممن بأمور التلاميذ والاعتناء بهم مثل ما كان في عهد الإمام أبي القاسم يزيد بن مخلد حيث كانت له زوجة صالحة ومجتهدة تدعى " الغاية " 22، وكانت تساعده في أمور التربية والتعليم وأمور النفقة والإيواء على الطلبة، بل كان أئمة الإباضية يستشيرون بعض العالمات في الدين والفقه، وقصد العامل أبو عبيدة عبد الحميد الجناوي 23 إلى عجوز نفوسة 24 التي كانت مشهورة بالعلم والدين والصلاح فاستشارها في مسألة قبول أو عدم قبول المنصب الذي كلفه به الإمام عبد الوهاب، فقالت له:" هل تعلم في بلادك من أهل زمانك أقوم منك بما كلفت به وأحق بتقليدها ما تقلدت؟ قال : أما في أمور

الرجال فلا ، قالت : فادخل إذن فيما قلدك الإمام، وإلا فإني أخشى أن تهشم عظامك في نار جهنم، فقد قامت عليك الحجة " 25، ولما رجع إلى أهله قبل المنصب وأحسن.

كما شاركت بعض النساء في مجالس الجدل التي كانت تعتقد حلقاتها من حين لآخر،" فأخت الإمام أفلح "التي لا نعلم لها اسما ايضا، برعت في علم الحساب والفلك والتنجيم 26، وهذه امرأة أخرى تدعى " بهلولة " 27 اشتهرت بالعلم حتى أصبح بيتها مزارا للعلماء الذين كان من بينهم أبو ذر ابن وسيم ولم يكن أئمة الإمارة الرستمية فيما يتعلق بتعليم المرأة وتربيتها، والعناية بتكوينها مقتصرة على الحُرات فقط، بل شمل حتى الإماء، وهذا ما يفهم من ما ذكره بعضهم أن إماء نفوسة في ذلك العهد إذا خرجن إلى الحطب والبساتين لا يرجعن حتى يذكرن جميع مسائل " كتاب ماطوس" 28.

نستنتج من هذا النص أن الأئمة الرستميين كانوا يوجهون عناية كبيرة لتربية المرأة سواء كانت حرة أو أمة لأن الاعتناء بها يؤدي لا محالة إلى إصلاح المجتمع ، لأن المرأة كما يقال نصف المجتمع فكلما صلحت المرأة صلح المجتمع.

أما الخامسة، فإسهاماتها في المجتمع الرستمي في المجالات العديدة: الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وقيامها بنشر الدعوة السرية لصالح المذهب الإباضي في جبل نفوسة قبل قيام الإمامة الرستمية، فقد ناضلت في هذه المسألة إلى جانب أخيها الرجل بحسب مكانتها وكفاءتها، وكثيرا ما كان الائمة والشيوخ يعقدون دعواتهم السرية في بيوت الشيخات أمثال "هند " بنت المهلب و"عاتكة " و"سعيدة المهلبية "وغيرهن 29، اللواتي كن يشاركن في جمع الأموال والتبرعات.

2- أما في المجال السياسي فقد برز بعضهن: شأن زوجة أبي يوسف حجاج بن وفتين الذي اشترك في مؤامرة دبرها "خلف بن السمح " للخروج على طاعة الدولة الرستمية ، ولما عاد إلى بيته صاحت هذه الزوجة في وجهه قائلة له :"إليك عني يا بائع دينك " 30، كما استطاعت زوجة أبي اليقظان أن تؤثر على زوجها وترغمه على إسناد ولاية العهد إلى ابنها أبي حاتم كما استطاعت " دوسر" بنت أبي حاتم أن تقوم بشأن كبير واضحا في الأحداث السياسية الأخيرة التي أدت إلى سقوط الدولة الرستمية 31.

3- كذلك، أدت المرأة الرستمية شأنا كبيرا في المجال الاجتماعي، وهذا بفضل اعتراف الرجل الإباضي لمكانتها في المجتمع، وحقها في الحياة كما نصت عليه تعاليم الإسلام. فاهتم بشأنها الائمة وشيوخ العزابة، وسنّوا لها بنودا في دستورهم لحماية حقوقها وكرامتها ، فكان لها حق في التملك ولها حقّ التصرف في مالها وما تملك ، ويحرم الوقف إذا كان سيسلبها حقها الشرعي في الميراث .

هذا كله ضمن المنظومة الاجتماعية الإباضية المعروفة باسم " العزابة "، والتي تندرج فيها هيئة نسوية خاصة تتولى شؤون المجتمع النسوي ورعايته وتنظيمه ضمن القوانين الشرعية، وكل ما يخص مجالات التربية وإعداد البنت الإباضية والزوجة الصالحة و أم المستقبل " 32. وانتظمت هذه الهيئة في مجلس نسوي معروف باسم " الغسالات أو الغاسلات "، ويعرف باسم اللغة المحلية (الأمازيغية) " تِمْسِيريدينْ " 33، بمعنى أنهن يقمن بغسل الأموات من النساء والأطفال دون البلوغ أو سن سبع سنين، و ما زالت هذه الهيئة النسوية تزاول هذا العمل بمنطقة وادي ميزاب إلى يومنا هذا .

ومنهن أيضا يتألف " المجلس الديني للنساء " ويصل عدده إلى اثنتي عشرة امرأة ، ويتم انتقاء هؤلاء النسوة من مختلف عشائر البلدة من صالحات الأسر بشروط معينة، أي أن يكنّ متعلمات حافظات للقرآن ومن ذوي الأخلاق الكريمة والسمعة الطيبة فضلا عن حضورهن لدروس الوعظ والإرشاد في الحلقة أو في المسجد 34.

أما عن طريقة تعيين إحداهن عضوا جديدا في الهيئة ! فبعد أن يتم اختيارها تتجه الغسالات إلى دار شيخ العزابة، فيناقشن معه الأمر بوساطة محارمه أو تتولى أكبرهن سنا الحديث معه من وراء حجاب، أو يتفاوضن معه في القضية، وفي الأخير فإن القرار يعود إلى رئيس مجلس العزابة وأن تقبل الغاسلات بذلك الحكم.

كذلك الأمر بالنسبة لاتخاذ مجلس الغاسلات للقرارات المتعلقة بالزواج والأعراس والمآتم أو أية قضايا أسرية واجتماعية أخرى، ويبقى رئيس العزابة هو المرجعية الأساسية لمجلس الغاسلات وهن مخلصات وأمينات له. ويعين على رأس هذا المجلس النسوي رئيسة تعرف في بعض القرى " ماما شيخة " 35 وفي مناطق أخرى بـ " كبيرة الغاسلات ".

أما مكان مقر المجلس فيكون في إحدى أجنحة المسجد، وهو يُبنى خصيصا لهن بمكان مجلس التلاوة بالمسجد ويفصله عنه جدار خفيف تعلوه تحت سقف الجناح كوة صغيرة جدا، أصبحت الآن مغطاة بقطع صغيرة من الزجاج بشكل مائل لينفذ منه الضّوء والصوت من داخل المسجد دون أن يرى أي طرف الآخر حيث يسمعن كل ما يدور في المسجد من صلاة وأدعية وأذكار أو من تلاوة للقرآن، ودروس في التوجيه والوعظ والإرشاد.

وأسهمت المرأة الرستمية بقسط وافر في تطوير المجتمع اقتصاديا بالإضافة إلى القيام بالأعمال المنزلية وشأنها الكبير في خدمة البيت وتربية النشء، فهي تشارك في صناعة الأواني التقليدية الفخارية والخشبية والمنسوجات الصوفية التي كانت تشارك بها في التجارة والإنتاج المحلي، وازدهار الأسواق بالصناعات اليدوية النسائية، وهذه الظاهرة مازالت حاضرة إلى حد الآن في منطقة وادي ميزاب بجنوب الجزائر إذ تقوم المرأة الميزابية (حاليا) بشأن مهم في مجال الحفاظ على الصناعات التقليدية كنسج الزرابي والقشاشيب وغيرها 36.

الخاتمة:

إن المرأة الرستمية كان لها حق اختيار الزوج، لا تكره على الزواج من من لا ترضاه لنفسها، وذلك لأن المذهب الإباضي الذي يعتنقه أهلها يحتم موافقة المرأة على من يتقدم للزواج منها ، كما أنه يعطيها حقها في التملك، فلها حق التصرف في مالها وما تملك، ويُحَرّم الوقف إذا كان سيسلبها حقّها الشرعي في الميراث. ولم يكن الحجاب ليمنع المرأة في مشاركتها في الحياة العامة، بل استطاعت أن تترك بصمات واضحة على المجتمع الإباضي في المغرب الإسلامي الذي احتلت فيه المراة مكانة سامقة لم تحظ بها في مناطق أخرى.

الهوامش:

1- نسبة الى الإمارة الرستمية التي تأسست المغرب الأوسط سنة 160 هـ/776 م واستمرت حتى سنة 296 هـ/909 م ، وقد أسست هذه الدولة على يد عبد الرحمان بن رستم[2] وهو فارسي الأصل خارجي المذهب ، وتميز نظام الحكم الرستمي بالبساطة في العيش والزهد في الحياة ، انظر، بحاز إبراهيم : الدولة الرستمية ، ط1، لافوميك، 1985، الجزائر، ص،ص 7،15، جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، م، و، ك، الجزائر، 1984، ص ص 40، 23.

وذكر ابن خلدون أنه: « من ولد رستم الأمير الفارسي الذي قاد الفرس في معركة القادسية ، قدم إلى إفريقية بعد إسلامه مع طلائع الفتح الإسلامي فاستقر بها، واعتنق المذهب الإباضي بعد وصولها إلى إفريقية» العبر، ج6، ص246. ينظر أيضا بحاز إبراهيم: عبد الرحمان بن رستم، م، و، ك، 1990، الجزائر، ص ص 11، 4.

2- حول موضوع الإباضية ينظر: أبو زكريا يحي بن أبي بكر: سير الأئمة و أخبارهم، تحقيق، إسماعيل العربي، ط1، مطبعة أحمد زبانة ، 1979، الجزائر ، ص ص 2،12، بكلي عبد الرحمان: فتاوى البكري، المطبعة العربية، غرداية، 1982،جزءان، علي أمعمر: الإباضية- دراسة مركزة في أصولهم و تاريخهم- المطبعة العربية، د.ت، غرداية، لجزائر، الدرجيني : طبقات المشايخ بالمغرب ، حققه وقام بطبعه إبراهيم طلاّي ، مطبعة البعث، د.ت، قسنطينة ، ج1، ص ص40،41،47. ينظر أيضا ، بلحاج محمد: مميزات الإباضية ، نشأة وتأصيلا و تفريعا و سلوكا ، مطبعة دار البعث، 1991 ، قسنطينة ، ص ص 4،15

3- أول من نادى< لا حكم إلا لله > في حفين، رفع السيف لضرب – الأشعث – الذي يدعو إلا وقف الحرب في حفين ووقع السيف على عجز بغلته. قاما في العراق على عبيد الله بن زياد أيام- يزيد بن معاوية- اشتهر بالتقوى والزهد والشجاعة، ت (58هـ/678م) ، انظر، الدرجيني : م،س،ج1،ص7، الشماخي : كتاب السير،ط حجرية ،1301هـ/ 1883م ، قسنطينة، ص67.

4- هو مرداس بن حدير بن عامر بن عبيد بن كعب الربعي الحنظلي التميمي و هو أخو عروة، (ت61هـ/680م)، تابعي، عالم، وزاهد، لا يخاف لومة لائم، صاحب الكرامات و الأقوال المأثورة، عارض بالحجة و الدليل وبشجاعة المتطرفين، ثابت على مبدئه، ينظر الدرجيني: م،س ج1، ص7، الشماخي: م،س،ص66، 67.

5- وهي أمها وقيل جدتهما، الدرجيني: م،س،ج1،ص7.

6- وهي أمه، وهو ابن أيوب، الدرجيني: م،س،ج1،ص8.

7- من مدينة- إيفاطمان- الواقعة بين الحرابة والرحيبات من جبل نفوسة من أجلّ علماء الإباضية، تقي، زاهد، مجاهد وهو أول من علم القرآن بجبل نفوسة، الشماخي: م،س،ص142،143، عوض محمد: نشأة الحركة الإباضية، ط مطابع دار الشعب، 1399هـ/1978م، عمان،ص51.

8- ابن عذاري:البيان المغرب ، ج1،ص157.

9- بحاز: عبد الرحمان بن رستم، ص9، ينظر أيضا، علي أمعمر: م،س،ج4،ص135.

10- الشامخي: م،س،ص123، محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، مطبعة دار العودة، 1396هـ/1976م، بيروت، ص108.

11- بحاز: الدولة الرستمية، ص95

12- هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد، لقب بالمعلم، نشر دعوة العبيديين بالمغرب، أصله من اليمن، أرسله عبيد الله إلى المغرب ليجمع له الأنصار لتحقيق أهدافه، و استطاع أن يؤثر في قبيلة كتامة و يحملها على مبايعة سيده المهدي سنة (286هـ/899م)، و اتخذ من قلعة إيكجان حصنا له، قبل أن يزحف على ميلة ثم القيروان و بذلك مهّد العرش لعبيد الله، و في سنة (298هـ/910م) قتله المهدي في رقادة خوفا على مستقبل ملكه، ينظر، القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات البشراوي، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص ص 30،40،41،98.

13- الدرجيني: م،س،ج1،ص94.

14- نفسه، ج1،ص95.

15- هي واحة كبيرة بها مدينة قديمة، و هي أهم مركز إباضي ابتداء من القرن (الثاني الهجري/الثامن الميلادي)، يحد هذه المنطقة شرقا أطراف- الصحراء الجزائرية- وجهات الزاب، و غربا منطقة وادي ميزاب، و جنوبا مدينة- إسدراتن- التي أنشأت بعدها، و شمالا صحراء و واحات و مدن مثل- توقرت- و- وادي أريغ- و- أسوف- و عرف وارجلان بعدة أسماء مثل:- واركلا- ،- وارقلا- ،- واقلان- الإدريسي: القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص ص43،197.

16- الدرجيني: م،س،ج1،ص94.

17- كانت أم يحي شاعرة ،حفظت ثمانين بيتا من الشعر بسماع واحد، ينظر،الشامخي:م،س،ص ص، 72، 73 ، 87، 107، 110 ، أبو زكريا: م،س،ص179.

18- الدرجيني: م،س،ج1،ص115.

19- الشماخي: م،س،ص106.

20- عالم إباضي، ورع، مجتهد، قاض إمام الرستميين «عبد الوهاب» على جبل نفوسة، فهو من أهل الخمسين الثانية من المائة الثالثة، هكذا ذكره الدرجيني: م،س،ج1،ص8،ينظر صالح بن عمر اسماوي: العزابة و دورهم في المجتمع الإباضي بميزاب، رسالة ماجيستير، 2001، جامعة الجزائر، ق1،ص307.

21- اسماوي: م،س،ق1،ص307.

22- الدرجيني: م،س،ج1،ص ص120،121.

23- و هو عامل جبل نفوسة في عهد الإمام الإباضي الرستمي عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم، الدرجيني : م، س، ج1،ص121.

24- هو لقب تشريفي يطلق على المرأة المسنة ذات الكلام المسموع و الرأي عند جماعتها و قبيلتها، وعادة ما تكون متدينة ومتعلقة لأمور دينها الحنيف.

25- الدرجيني : م،س،ج1،ص ص70،71.

26- عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، دار النهضة العربية، بيروت، 1991، ج1، ص275.

27- الشماخي: م،س،ص217، امعمر علي يحي : م، س، ص232.

28- عالما و فقيها و عاملا في مدينة طرابلس ، وقد رتبه الدرجيني في الطبقة الخامسة ، فهو من علماء النصف الأول من القرن الثالث الهجري / 9 م ، ينظر : الدرجيني : م،س ،ج 2، ص301 .

29- نفسه ، ج2،ص ص 301 ، 305 .

30- الشامخي : م،س،ص184، علي يحي معمر: م،س،ص321.

31- موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية ، منذ تأسيسها إلى منتصف (ق5 هـ/11م)، مطبعة أحمد زبانة، 1979، الجزائر، ص342.

32- اسماوي : م،س،ق1،ص307.

33- تمسيريدين : ج (بكسر التاء و سكون الميم و كسر السين و الراء ممدودة و الدال ممدودة و سكون النون) مفرد " تامسيرَتْ " (بفتح التاء و سكون الميم و كسر السين ممدودة و فتح الراء و سكون التاء) أنظر اسماوي : م،س،ق1، هامش ص 308.

34- اسماوي : م،س،ق1،ص309.

35- أشهر " شيخات " مجاهدة مشهورة في- ميزاب- بمواقف الثورية إبان الاحتلال الفرنسي لميزاب سنة (1300 هـ/1882م) و هي "ماما بنت سليمان " ولدت في مدينة غرداية سنة (1280هـ/1863م) و نشأت في جو عائلي محافظ متدين، حفظت نصف القرآن عن ظهر القلب و تعلمت أصول الدين و اللغة و مبادئ المذهب الإباضي ، مزدوجة اللغة (العربية و البربرية و الكتابة بها)، جاهدت في سبيل إعلان الحق الحق و الدفاع على البلاد، فتحت منزلها كمدرسة لتعليم القرآن و الحديث ، و قامت بترشيد النساء و وعظهن ، و في سنة (1324 هـ/1906م) عينت " ماما شيخة " رئيسة المجلس النسوي خلفا للمرحومة الشيخة " ماما بنت الحاج " و كانت لا تخاف لومة لائم، ينظر، اسماوي : م، س، ص310.

36- Goichon (A.M) : op cit, pp 43,45,46.

المصادر والمراجع :

1 / . أبو زكريا ، يحي بن أبي بكر: سير الأئمة و أخبارهم، تحقيق، إسماعيل العربي، ط1، مطبعة أحمد زبانة، 1979، الجزائر،

2 / . بكلي عبد الرحمان : فتاوى البكري ، المطبعة العربية ، غرداية ، 1982 ، جزءان

3 / . ابن خلدون ، عبد الرحمن : العبر، ج6،

الدرجيني : طبقات المشايخ بالمغرب، حققه و قام بطبعه إبراهيم طلاّي، مطبعة البعث، د.ت، قسنطينة، ج1،

4 / . الشماخي : كتاب السير،ط حجرية ،1301هـ/ 1883م ، قسنطينة ،

5 / . ابن عذاري:البيان المغرب ، ج1.

6 / . القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات البشراوي، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.

7 / . الإدريسي: القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق،_تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983،

ثانيا : المراجع :

8 / . بحاز إبراهيم : عبد الرحمان بن رستم ، م، و، ك ، 1990، الجزائر

9 / . ////////////// : الدولة الرستمية ، ط1 ، لافوميك ، 1985 ، الجزائر،

10 / . جودت عبد الكريم يوسف : العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، م ، و، ك ، الجزائر ، 1984،

11 / . علي أمعمر : الإباضية – دراسة مركزة في أصولهم و تاريخهم – المطبعة العربية ، د.ت ، غرداية ، الجزائر

12 / . بلحاج محمد : مميزات الإباضية ، نشأة و تأصيلا و تفريعا و سلوكا، مطبعة دار البعث ، 1991 ، قسنطينة .

13 / . عوض محمد: نشأة الحركة الإباضية، ط مطابع دار الشعب، 1399هـ/1978م، عمان.

14/ . محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، مطبعة دار العودة، 1396هـ/1976م، بيروت

15 / . صالح بن عمر اسماوي: العزابة و دورهم في المجتمع الإباضي بميزاب، رسالة ماجيستير، 2001، جامعة الجزائر، ق1.

16 / . عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، دار النهضة العربية، بيروت، 1991،

(3) موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، منذ تأسيسها إلى منتصف (ق5هـ/11م)، مطبعة أحمد زبانة، 1979، الجزائر.

17- Goichon (A.M): La vie Féminine au M’Zab, librairie orientaliste, 1927, Paris

المخطوطات الموريتانية: جهود الجمع والفهرسة

د. محمد الأمين ولد أن – جامعة نواكشوط

المقدمة:

أثمرت المدرسة التقليدية الموريتانية (المحضرة) نتاجا علميا ضخما ما يزال أغلبه محفوظا بين ثنايا المخطوطات، وهو يعبر عن مستوى النهوض العلمي الذي بلغته البلاد في تلك المرحلة من تاريخها، وليس أدل على ذلك من آلاف المصنفات التي شملت مختف العلوم والمعارف.

ولا يخفى على أحد أن أوضاع المخطوطات في بلد حديث النشأة مثل موريتانيا تبقى متردية إلى حد يصبح معه العلاج مضنيا أو مستحيلا، فهي مبعثرة بين الخزائن والمكتبات الموزعة بين أرجاء البلاد الشاسعة. وقد تعرض جزء كبير من تلك المخطوطات لعوامل التلف بسبب سوء الحفظ وضعف طرق الصيانة، وهو ما تم التنبه إليه عند ما تزايد الوعي لدى ملاك المخطوطات بضرورة وضع أساليب جديدة لصيانة هذا الموروث الثقافي وحفظه.

لقد عرفت موريتانيا الاهتمام بالمخطوطات منذ سبعينيات القرن الماضي (20م)، حيث قيم بمجهود كبير لجمع المخطوطات الوطنية وحفظها وصيانتها، والتي يقدر عددها بأكثر من 40.000 مخطوط. ومنذ سبعينيات القرن الماضي تم القيام ببعض المساعي والجهود من أجل حفظ التراث الموريتاني المخطوط وصيانته وتحقيقه ونشره.

ويسعى هذا العمل إلى تسليط الضوء على واقع المخطوطات الموريتانية، وجهود جمعها وحفظها وفهرستها. وهو ما سنتعرض له من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: المخطوطات الموريتانية

المحور الثاني: خزائن المخطوطات

المحور الثالث: جهود جمع المخطوطات وحفظها وفهرستها

1- المحور الأول: المخطوطات الموريتانية

آ- تعريف المخطوط:

أورد الباحثون والمختصون في مجال المخطوطات عدة تعريفات للمخطوط، إلا أن أغلبهم التزم بإلحاق لفظ مخطوط بكلمة كتاب، فيقال: الكتاب المخطوط، إلا أنه ليس كل ما كتب باليد يسمى مخطوطا، إذ يستثنى من ذلك الكتابة باليد على الألواح الطينية والجلود والنقش على الأحجار والصخور.

والمخطوط من خط الرجل الخط بيده أي كتبه1، وجاء في القاموس المحيط: (الخط الكتابة بالقلم)2. ومن هنا يعرف المخطوط بأنه ذلك الكتاب المكتوب بخط اليد، سواء كان في شكل لفائف أو في شكل صحف ضُم بعضها إلى بعض على شكل دفاتر أو كراريس3، وبهذا المعنى تخرج الرسائل والنقوش والصكوك على حدود معنى المخطوط.

ولعل أشمل تعريف للمخطوط وأحدثه هو تعريفه بأنه: (كتاب لم يتم طبعه بعد، أي أنه مازال بخط المؤلف أو بخط ناسخ غيره، أو أخذت عنه صورة فوتوغرافية أو أن يكون مصورا بالمايكروفيلم عن مخطوط أصلي)4.

ب- بداية الاهتمام بالمخطوطات في موريتانيا

ترجع البدايات الأولى للاهتمام بالمخطوطات الموريتانية من حيث الجمع والحفظ إلى سبعينيات القرن الماضي، فقد تم القيام بجهود لإحصاء المخطوطات ووضع خريطة لتوزيعها الجغرافي، ومعرفة وتشخيص وضعيتها، والتعريف بها، وفي هذا السياق نظم في نواكشوط أول ملتقى دولي سنة 1977 بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لدراسة وتشخيص واقع المخطوطات العربية في غرب إفريقيا.

وضمن جهود الاهتمام بالمخطوطات تم إنشاء المعهد الموريتاني للبحث العلمي، الذي وضع برنامجا طموحا لحفظ المخطوطات الموريتانية وصيانتها، فأرسل عدة بعثات إلى مناطق البلاد المترامية الأطراف لإحصاء خزائن المخطوطات وأسماء ملاكها. وقد استطاع المعهد جمع 6600 مخطوط بشتى الطرق (الشراء، الإهداء، الوديعة ...). كما قام أيضا بتصوير 3000 مخطوط ومجموعة كبيرة من الوثائق والعقود والرسائل التاريخية.

كما قام المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية منذ إنشائه سنة 1979 بجمع وفهرسة أكثر من 2000 مخطوط تم تحقيق بعضها من قبل طلاب المعهد في إطار إعداد رسائل التخرج.

ج- مصادر المخطوطات الموريتانية:

لقد اهتم الشناقطة قديما بالعلم والحرص الشديد على اقتناء المخطوطات وشرائها بأغلى الأثمان، فقد ازدهرت سوق المخطوطات في هذه البلاد حتى بيع القاموس المحيط بعشرين بعيرا، والحطاب على مختصر خليل بفرس5، ولذا جمعوا منها الكثير بشتى الطرق.

يقدر عدد المخطوطات الموريتانية بما يزيد على 40.000 مخطوط موزعة بين مناطق عدة مختلفة من البلاد. وهي اليوم تشكل خزانة غنية ومتنوعة تشمل مجالات علوم: القرآن، الحديث، التاريخ، الفقه، السيرة، الأدب وعلوم اللغة..إلخ. وأغلب هذه المخطوطات مستورد من المغرب والجزائر وتونس والأندلس ومصر وإيران وغيرها من البلاد الإسلامية. بينما لا يتجاوز عدد المخطوطات التي ألفها موريتانيون 10.000 مخطوط.

تعددت المصادر والوسائل التي جمع بها الموريتانيون القدماء هذا الكم الضخم من المخطوطات، ويمكن تقدير الحصول عليها بالوسائل التالية:

– رحلات الحج: تعتبر فريضة الحج في الإسلام من أهم الدوافع الأساسية التي دفعت آلاف الحجاج الموريتانيين للسفر إلى ديار الحجاز لتأدية هذه الفريضة، وكان أصحابها يقومون باقتناء وجلب الكتب، ولدينا الكثير من الشواهد الدالة على جهود العلماء في هذا الشأن والذين عادوا بأحمال من الكتب، ومن أبرز هؤلاء الفقيه سيدي محمد بن حبت الذي جلب الكثير من المخطوطات، واستمر اهتمامه بجمعها حتى بلغ ما لديه 1400 مخطوط6. وكذلك الشيخ سيدي المختار الكنتي (ت 1226هـ) الذي كانت تأتيه قوافل الكتب من فاس والقيروان ومصر7، وسيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم العلوي (ت 1233هـ) الذي عاد من رحلته إلى الحج بأحمال من الكتب تقدر ب 1025 سفرا، والشيخ سيديا الكبير (ت 1284هـ) الذي جمع في رحلاته الطويلة أكثر من 6000 مخطوط، وحفيده هارون ولد بابا (ت 1398هـ) الذي زار عدة بلدان وعاد بكثير من المخطوطات والوثائق النادرة8.

– التأليف المحلي: يعتبر كتاب الإشارة في تدبير الإمارة لمحمد بن أبي بكر المرادي الحضرمي (المتوفى سنة 489هـ) أقدم مؤلف موريتاني في هذه البلاد، فقد كان من عادة العلماء الموريتانيين التأليف في مختلف مجالات المعرفة، إذ قل ما نجد أحدا منهم إلا ولديه تآليف في ميدان اختصاصه، وتكفي الإشارة إلى أن الشيخ محمد المامي (ت 1282هـ) ترك آثارا علمية تقدر بأربعمائة مخطوط، والفقيه محمد يحيى الولاتي (ت 1330هـ) ألف في حياته 114 كتابا. كما يمكن أن نستدل بالعمل الذي قام به الباحثان المختار ولد حامدن (ت 1414هـ) وآدم هيموفسكي حيث تضمن الجرد الذي قاما به ل 2054 مخطوط لقرابة 394 مؤلف موريتاني9.

ويقدر عدد المخطوطات المحلية التي ألفها علماء موريتانيون بأكثر من تسعة آلاف مخطوط.

– النسخ: أولى الموريتانيون اهتماما بمهنة نسخ الكتب، فقد اشتهرت أسر وقبائل كثيرة بخط الكتب.

اشتهر الموريتانيون بشغفهم بالمخطوطات، إذ لا تخلو خيمة أو دار من مخطوط، ولهذا يعتقد بعض الباحثين والمهتمين بالمخطوطات أنه يصعب تقدير عددها إذا اعتبرنا كل ما هو مخطوط من وثائق وعقود ورسائل وفتاوى فقهية، فالعدد يكون بالملايين، أما إذا اختصرنا على الكتب، فإن العدد يقدر بأكثر من 40.000 مخطوط موزعة بين 700 خزانة عمومية وخصوصية في مختلف القرى والمدن والأرياف الموريتانية10.

المحور الثاني: خزائن المخطوطات الموريتانية

تتوزع المخطوطات الموريتانية مؤسسات رسمية ومكتبات أهلية موزعة على أماكن شتى من البلاد، ومن أهمها:

1– المعهد الموريتاني للبحث العلمي بنواكشوط

2– المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية بنواكشوط

3– مكتبات ولاتة

4– مكتبات تيشيت

5– مكتبات شنقيط

6– مكتبات وادان

7– مكتبات تجكجة

8– مكتبات النعمة

9– مكتبة أهل الشسخ سيديا بأبي تلميت

المحور الثالث: جهود جمع المخطوطات وحفظها وفهرستها

ترجع البدايات الأولى لجمع المخطوطات الموريتانية إلى النصف الأول من القرن العشرين، فقد نشر المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون في العدد الثامن من مجلة العالم الإسلامي الصادرة باللغة الفرنسية سنة 1909 مقالا عنوانه "مكتبة صحراوية" عرض فيه لقائمة من المخطوطات الموريتانية. كما نشر بول مارتي في كتابه "الإسلام في بلاد البيظان" الصادر في باريس 1916 قائمة لمكتبة الشيخ أحمد بن سليمان11.

وفي هذا السياق أيضا نشر المحتار ولد حامدن وألبير لاريش سنة 1950 مقالا بالفرنسية وذلك في نشرة المعهد الوطني لإفريقيا السوداء بعنوان: "المكتبات في بلاد شنقيط"12.

كما قام المختار ولد حامدن والباحث السويدي آدم هيموفيسكي سنة 1965–1966 بجهد لإحصاء المخطوطات الموريتانية، حيث أفضى هذا الجهد إلى فهرسة 2054 مخطوط لحوالي 394 مؤلف موريتاني، وقد نشره الخليل النحوي ملحقا في كتابه بلاد شنقيط المنارة والرباط13.

وفي سنة 1988 صدر في بيروت "فهرس المخطوطات العربية بموريتانيا" من إعداد الأستاذ أحمدو ولد عبد القادر والباحث الألماني ألريش روبيشتوك. وفي نفس السنة أيضا قام الأستاذ الأمريكي شارل استيوارت من جامعة إلينوي بفهرسة مكتبة أهل الشيخ سيديا ببوتلميت، كما أنجزت مكتبة الفرقان الإسلامية بلندن سنة 2003 مع شركاء وطنيين فهرسا لمخطوطات ولاتة والنعمة14.

وضمن نفس الجهود قام المعهد الموريتاني للبحث العلمي منذ إنشائه بإحصاء أسماء ملاك المخطوطات وأماكن وجودهم والقيام بزيارات ميدانية لخزائن المخطوطات لمعرفة وضعيتها وظروف حفظها وإعداد برامج متكاملة لحفظها وصيانتها15.

ولتسهيل مهمة الباحثين والمهتمين وتمكينهم من الاطلاع على محتوى خزانة المخطوطات بالمعهد تم القيام بجهود متواضعة في مجال الفهرسة، فتم إعداد فهرس مخطوطات16، نشر الجزء الأول منه سنة 1996، وهو يضم 455 مخطوطا. وقد اعتمد على الشكل التالي:

رقم التسجيل – العنوان – الموضوع – عدد الأجزاء – اسم المؤلف ولقبه – تاريخ ولادته – وفاته – الناسخ – تاريخ ومكان النسخ – مصدر الكتاب – عدد الصفحات – عدد الأسطر في الصفحة – البداية – النهاية – حالة المخطوط – تاريخ التأليف – نوع الخط – عدد الأوراق – قياس الأوراق – الملاحظات17.

كما تم إصدار عدة فهارس للمخطوطات:

- فهرس مخطوطات شنقيط
- فهرس مخطوطات وادان
- فهرس مخطوطات تيشيت
- فهرس مخطوطات ولاتة

الخاتمة:

تزخر الكثير من الخزانات والمكتبات في موريتانيا برصيد معتبر من المخطوطات، أصبح محل اهتمام عدد كبير من الدارسين والباحثين الوطنيين والأجانب نظرا لقيمتها العلمية والفنية، والحفاظ عليها يعني الحفاظ على الهوية الوطنية العربية والإسلامية. ومن أجل تثمين هذا التراث المخطوط كان لا بد من قيام مؤسسات بجمع المخطوطات وحفظها، كالمعهد الموريتاني للبحث العلمي والمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية.

إن الجهود التي تم القيام بها لحد الساعة والتي مكنت من إقامة خزانة تضم أكثر من ستة آلاف مخطوط في المعهد الموريتاني للبحث العلمي، وأكثر من 2000 مخطوط في المعهد

العالي للدراسات والبحوث الإسلامية ونسخ وتصوير عدة آلاف أخرى، تبقى جهودا متواضعة في ضوء وجود إحصاءات تشير إلى أن لدى موريتانيا أكثر من أربعين ألف مخطوط موزعة على خزائن خاصة ومكتبات للمخطوطات بالصحراء، محفوظة في ظروف قاسية، حيث تتعرض للحرارة والغبار، من ما يعرضها للتلف والضياع.

وعلى الرغم من الشأن الكبير الذي تم القيام به من خلال التعرف على أماكن وجود المخطوطات الوطنية، فإنه يمكن ملاحظة نواقص كثيرة، وليس أقلها:

- قلة الوسائل والإمكانيات المادية
- نقص الكادر البشري المتخصص
- غياب خطة لرقمنة المخطوطات وإتاحتها لأكبر عدد من المستفيدين
- انعدام برامج للتحقيق والنشر.

ولا شك أن مزيدا من البحث في هذا المجال سيسلط الضوء على جوانب مهمة من واقع المخطوط الموريتاني، مما يستوجب التنبيه إلى ضرورة القيام بعمل جبار من أجل إنقاذ هذا الموروث الثقافي المهم.

الهوامش:

1- أحمد بن محمد علي الفيومي، المصباح المنير، دار الحديث، القاهرة، 2003، ص106.

2- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الكتاب الحديث، الجزائر، 2004، ص687.

3- عبد الستار الحلوجي، المخطوط العربي، مكتبة الصباح، الرياض، 1989، ص15.

4- فهمي سعد وطلال مجذوب، تحقيق المخطوطات بين النظرية والتطبيق، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1993، ص13.

5- تنجه بنت أحمدو، فهرسة المخطوطات في المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، شعبة المكتبات والتوثيق والأرشيف، السنة الجامعية: 2012-2013، ص37.

6- الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987، ص154.

7- المرجع نفسه، ص112.

8- مقابلة مع د. أحمد ولد حبيب الله، باحث بالمخطوطات، بتاريخ 2013/10/04.

9- الخليل النحوي، المرجع السابق، ص385.

10- أحمد ولد محمد يحيى، "تجربة المعهد الموريتاني للبحث العلمي في مجال صيانة وحفظ التراث المخطوط الموريتاني"، مجلة الوسيط، العدد الحادي عشر، السنة 2011، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، ص125.

11- ربيعة بنت محمد يسلم، المخطوطات العربية والرقمنة، شعبة المكتبات والتوثيق والأرشيف، السنة الجامعية 2012-2013، ص38.

12- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

13- الخليل النحوي، المرجع السابق، ص535 وما يليها.

14- ربيعة بنت محمد يسلم، المرجع السابق، ص38.

15- أحمد ولد محمد يحيى، المرجع السابق، ص126.

16- تم إعداد هذا الفهرس من قبل الباحثين أحمد بن محمد يحيى وسيد أحمد بن محمد سالم من قسم المخطوطات بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، والأمريكي شارل ستيوارت من جامعة إلينوي.

17- مقابلة مع الأستاذ محمد ولد أطفيل، رئيس قسم المخطوطات بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، 2013/07/27.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أحمد بن محمد علي الفيومي، المصباح المنير، دار الحديث، القاهرة، 2003.

2- أحمد ولد محمد يحيى، "تجربة المعهد الموريتاني للبحث العلمي في مجال صيانة وحفظ التراث المخطوط الموريتاني"، مجلة الوسيط، العدد الحادي عشر، السنة 2011، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط.

3- الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987.

4- فهمي سعد وطلال مجذوب، تحقيق المخطوطات بين النظرية والتطبيق، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1993.

5- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الكتاب الحديث، الجزائر، 2004.

6- عبد الستار الحلوجي، المخطوط العربي، مكتبة الصباح، الرياض، 1989.

7- تنجه بنت أحمدو، فهرسة المخطوطات في المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، شعبة المكتبات والتوثيق والأرشيف، السنة الجامعية: 2012-2013.

8- ربيعة بنت محمد يسلم، المخطوطات العربية والرقمنة، شعبة المكتبات والتوثيق والأرشيف، السنة الجامعية 2012-2013.

9- مقابلة مع د. أحمد ولد حبيب الله، باحث بالمخطوطات، بتاريخ 2013/10/04.

10- مقابلة مع الأستاذ محمد ولد أطفيل، رئيس قسم المخطوطات بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، 2013/07/27.

الشخصية الإسلامية للمجتمع الجزائري وأثرها على الفكر المقاوم بالجزائر المستعمرة

د.خير الدين شترة، جامعة المسيلة، الجزائر

المقدمة:

لقد تنوَّعت أشكال المقاومة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي الدخيل، تراوحت بين المطالبة بالتغيير الجذري الراديكالي والفوري مع الأخذ بنواميس المواجهة المتوفرة، حيث اتخذت لها أساليب عدة كالمواجهة العسكرية التي سميت في الأبجديات التاريخية المعاصرة بالمقاومة الشعبية المسلحة، والمقاطعة الاقتصادية والاجتماعية والهجرة من الأرض التي استولى عليها الرومي؛ وبين المطالبة بالتغيير المهادن الآجل مع إتباع أساليب وأدوات المواجهة التي تستمد مكوّناتها من ذاتية المجتمع وهويته كالتعليم العربي الإسلامي والعمل الفكري والأدبي والنشاط الاجتماعي والديني، وكما لا يمكن وضع إطار زمني محدد لكلا الشكلين على أساس السابق واللاحق، أيضاً لا يمكن أن نعطي الأولوية لأحدهما على الآخر، ففي النمطية اللفظية الخاطئة التي انطبعت لدى الذهنية الجزائرية بصفة عامة ولدى المهتمين بتاريخ الجزائر الحديث بصفة خاصة، من أن صورة الرفض للوجود الاستعماري إنما تجسّدت في شكل المقاومة الراديكالية فقط دون غيرها، وأن الوطني الوحيد هو من حمل سلاحاً، وغيرهُ سُميَّ بمسميات قلَّت أو كثُرت تشترك في أنها ليست وطنية، ولا تنتمي إلى التيار الوطني، على شاكلة التيار الديني الإصلاحي، أو التيار السياسي النيابي.... أو أن الشهيد من قُتل في المواجهة العسكرية دون غيرها، رغم أن شهداء القضية الجزائرية كثروا وتنوّعوا؛ فمنهم من استشهد بقلمه (كالأديب والصحفي..)، ومنهم من استشهد بفكره وعلمه (كالمدرسين والأئمة والخطباء والدعاة والمربين..) وهلمَّ جراً.

حتى أننا عندما نريد أن نسوّق صورة المجاهد الوطني في ذهنية أطفالنا نرسم لهم رجلاً جزائرياً يحمل بندقية، رغم أن نسبة الذين حملوا البندقية في وجه الاستعمار الفرنسي إبان الثورة التحريرية أقل بكثير من نسبة الذين واجهوا الاستعمار بالأساليب الأخرى كالعمل الصحفي والأدبي والسياسي والنقابي والطلابي والعلمي والتعليمي والإيديولوجي ....وهذا ليس دافعه الجبن أو مخافة الهلاك من المواجهة المسلحة وإنما هي المعركة التي تقتضي المواجهة على أكثر من صعيد. حتى عندما جئنا لنُشيِّد تمثالاً لمؤسس الدولة الجزائرية الأمير عبد القادر شيّدناه وهو يحمل سيفاً لا كتاباً أو قلماً رغم أنه كما كان رجل سيف ورمح كان أيضاً رجل فكر وقلم وثقافة... فالمسألة أن القضية الجزائرية لم تنتصر في نهاية الأمر كل هذا الانتصار الباهر لولا تكاتف كل المخلصين من أبنائها من اليمين إلى اليسار.

ومن دون غمط حق فئة على أخرى...فالكل سواء من دعاة التغيير الراديكالي (الذين لقبوا فيما بعد بالتيار الاستقلالي)، أو التغيير الأفقي الآجل، المعتمد على الأسلوب التربوي والتعليمي والصحفي والتأليفي....كلهم خدموا القضية الجزائرية...ومن الجحود أن ننكر جهود أهل العلم والأدب والفكر والتربية في بناء النهضة الجزائرية وإن كانت تعمل تحت ظل الإدارة الاستعمارية الفرنسية كالأئمة والقضاة والمفتيين والصحفيين والنواب السياسيين ..وغيرهم، فالمطلوب الآن مصالحة تاريخية شاملة تُعطي لكل حق حقه، والحق هنا يُقاس بمقدار ما تمَّ تقديمه قرباناً وفداءً للوطن، وتضحية وبسالة لأجل أن نعيش نحن في ظل حرية وارفة، وكرامة ضامنة للعيش باعتزاز.

فبجهود الجزائريين الذي قاوموا المغتصب المحتل بالسلاح وبالفكر والكلمة وبالدعاء.. والتي انطلقوا بها منذ النصف الأول من القرن 19م ومنتصف القرن 20م. وإنتاجهم المتنوع وفكرهم الإصلاحي المتنور، ما كانت الجزائر المستعمَرة تنهض من كبوتها وتُعلن عن وجودها في ثورة عارمة حيّرت الاستعمار وأذنابه، وغيّرت مجرى التاريخ ليس للجزائر فقط بل حتى لدى أقطار أخرى كثيرة. فالتأليف والتعليم والكتابة الصحفية....أثناء فترة الاحتلال الفرنسي كانت تُشكل وسيلة من وسائل الكفاح الوطني ضد الاحتلال الأجنبي، وضد من شوَّه ماضي الجزائر، وذلك لأنها كانت ترمي إلى إثبات الوجود القومي والمليّ وإحياء الوعي الوطني لدى الجزائريين.

1. المعطى التاريخي المؤثر في بناء البعد الروحي للمجتمع الجزائري:

وصل الإسلام إلى الشمال الإفريقي عن طريق عقبة بن نافع واستقبله سكان هذه المنطقة برحابة صدر, عدا في بعض الأماكن , حيث كان الأمازيغ – وهم السكان الأصليون في المغرب العربي – يعتقدون أن المسلمين الفاتحين لا يختلفون عن غيرهم من الوندال والفنيقيين والرومان الذين تعودّوا على غزو منطقة المغرب العربي وكان الأمازيغ يتصدّون لهذه الغزوات ببسالة . وبعد فترة وجيزة انقلب هذا الاعتقاد رأساً على عقب حيث أصبح الإسلام هو الدين السائد في منطقة المغرب العربي وأهم مقوّم لحياة المغاربة الذين انطلقوا في خدمته حيث ساهموا في فتح الأندلس وفي إيصال الإسلام إلى جزء كبير من أوروبا، وغداة سقوط الأندلس بدأت شواطئ المغرب العربي تتعرض لاعتداءات الأسبان والبرتغاليين بدافع الثأر من المسلمين الذين أشادوا حضارة للإسلام في الأندلس .

وأثناء هذه الحملات الصليبية التي كان يتعرض لها المغرب العربي على مدى مئات السنين انطلقت الخلافة العثمانية في إسطنبول – دار السلام – وشرعت في توسيع رقعتها باتجاه الأقاليم العربية والإسلامية, واستغاث حينها ولاّة الجزائر وأمراؤها بالخلافة العثمانية التي أمرت أسطولها البحري في البحر الأبيض المتوسط والذي كان على رأسه خير الدين وبابا عروّج

بالتوجه إلى السواحل المغاربية وتوفير الحماية للمسلين في هذه المنطقة, وبموجب هذه الدعوة أصبحت الجزائر فعليّا تحت الوصاية العثمانية وذلك بدءًا من عام 1519 ميلادي وإلى غاية 1830 تاريخ احتلال فرنسا للجزائر وبقية الدول المغاربية في وقت لاحق.

وقد استغلت فرنسا وقتها الضعف الخارجي والتشتت الداخلي للجزائر فأرسلت أسطولها الذي احتل الجزائر العاصمة انطلاقاً من سيدي فرج، ولم يمر الاحتلال الفرنسي دون مقاومة عارمة وقوية أبداها الشعب الجزائري بقيادة شيوخ الإصلاح والزوايا وحفظة القرآن الكريم, ومنهم الأمير عبد القادر الجزائري والشيخ بوعمامة والشيخ المقراني وغيرهم من شيوخ المقاومة الذين كان مصيرهم جميعاً إمّا الاستشهاد أو السجن ومن ثمّ النفي. ومع هؤلاء استشهد مئات الآلاف من الجزائريين على يد القوات الفرنسية التي وبمجرد أن بسطت سيطرتها على الأراضي الجزائرية شرعت في تحويل المساجد إلى كنائس, وشرعت في القضاء على اللغة العربية والتعليم العربي, وترافق هذا المشروع الاستعماري مع مشروع تغريبي ما زالت الجزائر تعاني من آثاره إلى يومنا هذا .

انطلاقاً من هذه المعطيات التاريخية الموجزة يمكن القول بهذا الشأن أن الحركة الوطنية الجزائرية ظلت تعتمد إلى حد كبير على الدين طيلة العهد الاستعماري، فسواءً تعلق الأمر بحركة الجهاد التي استمرت طيلة القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين أو تعلق الأمر بالنضال السياسي منذ الحرب العالمية الأولى، فإن العمود الفقري في كل تحرك ضد القوى الاستعمارية هو في نظرنا العامل الديني. ونعني أن الأمر كان كذلك حتى بعد ظهور منظمة النجم، وقد ازداد هذا العامل ظهوراً وقوةً أثناء الثورة التحريرية ولم يكد يختفي إلاّ منذ برنامج طرابلس 1962م. وليس غرضنا هنا تقييم إيديولوجية النخبة الوطنية المقاومة منذ 1830م ولا التداخل الفكري الذي حدث في برامج وأهداف المنظمات الوطنية منذ 1919م وإلى 1962م، وإنما غرضنا محاولة البحث عن العامل أو العوامل التي كانت وراء ظهور هذه النخب المقاومة والمنظمات الوطنية، فهل كان الدين وحده وراء ذلك؟ أو كانت العلمانية وحدها وراءه؟ أو كان هناك خليط من هذا وذاك؟

ولعله من المفيد التذكير ببعض العناصر المتعلقة تعلقاً مباشراً بالموضوع؛ إن الحملة الفرنسية ضد الجزائر قد قررها شارل العاشر اليسوعي المتحمس، وباركها البابا وأيَّدتها الكنيسة في فرنسا وفي غيرها من أوروبا. وبعد نجاح الحملة تهاطل على الجزائر المنصرون، وأخذت السلطات العسكرية تهدم المساجد وتحوِّل بعضها إلى كنائس وتستولي على الأوقاف الدينية، وكل هذا يُعطي للغزو الفرنسي طابعاً صليبياً واضحاً لا يختلف كثيراً عن الطابع الصليبي الذي ميَّز الحروب الصليبية القديمة المعروفة في المشرق ثم في الأندلس.

ثم إن القوانين الاستثنائية التي أصدرتها السلطات الاستعمارية بشأن الجزائريين كانت كلها تقوم على الروح الصليبية، ولو كانت في ظاهرها تخفي ذلك. ويدخل في ذلك قانون إلغاء القضاء الإسلامي، وقانون الجنسية الصادر سنة 1865م وإهمال التعليم الإسلامي وإطلاق الحرية للمبشرين ولا سيما منظمة الآباء البيض والأخوات البيض، وتسليط المستشرقين الفرنسيين للطعن في الإسلام وتراثه، وعدم تطبيق مبدأ «فصل الدين عن الدولة» بالنسبة للدين الإسلامي[1]. كل ذلك وغيره من القوانين الاستثنائية تجعل من الوجود الفرنسي ليس مجرد سلطة احتلال سياسي واستغلال اقتصادي ولكن قوة صليبية تحمل معها أضغان الماضي بكل بشاعته.

فبماذا ردَّ الجزائريون على ذلك؟ إن المقاومة التي أعلنوها في المدن والأرياف كانت بالأساس دينية أيضاً، أي أنها كانت من جنس الفعل، فالغزو الصليبي قابلوه بإعلان الجهاد، وسمو قتيلهم شهيداً وفائزاً بالجنة، ومعركتهم جهاداً في سبيل الله، وعدوهم هو الكافر بدين الله وشريعته، ورفعوا شعار معركتهم بالشهادتين، وشبهوا الكثير من معاركهم الفاصلة بغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم كبدر وأحد، وكانت الصيحة المؤثرة في حماستهم هي الله أكبر، وكلمة سرهم عند تفجير الثورة هي عقبة وخالد، واستمدوا من التراث الإسلامي وأعلامه ألقاباً توارت فيها أسمائهم الحقيقية كسي محمد وسي علي وسي عمر وسي بومدين وسي الجيلالي... وتنادوا فيما بينهم بخطاب القرابة المعنوية المستمدة من الأخوة الإسلامية كأنهم جسد واحد رغم أن الواقع الجغرافي والعرقي غير ذلك، فكانوا يبدؤون التنادي فيما بينهم بـ: يالخاوة، وإذا بحثنا في تاريخ الجزائر قديمه وحديثه فإننا لن نجد أي رمزية دينية كانت أم دنيوية للتاريخ الميلادي ليوم تفجير الثورة 01 نوفمبر لكن الحقيقة –كما يقول عالم الجزائر الشيخ العلامة أحمد حماني رحمه الله– نجدها في التاريخ الهجري المصادف لـ 1 نوفمبر وهو ليلة 11 ربيع الأول 1374هـ وهو ميلاد خير البشرية سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فكأنهم أرادوا من خلال هذه المقاربة التاريخية تشبيه ميلاده صلى الله عليه وسلم بميلاد الأمة الجزائرية المسلمة من جديد.

لقد كانت ثورة نوفمبر شعبية في طموحاتها وفي كفاحها ضد العدو المحتل، وما حققته هذه الثورة من انتصارات تلو الانتصارات إلا دليل قاطع، على أنها جماهيرية المحتوى والشكل بتحطيمها أسطورة فرنسا القوة التي لا تقهر، فكانت صرحًا من خيال، فهوت أمام عزيمة الرجال الذين آمنوا بالثورة قلباً وروحاً فباعوا أنفسهم في سبيل الله لتحيا الجزائر عربية إسلامية . فالثورة الجزائرية لم تكن مُسيَّرة أو مُوجهة من طرف زعيم واحد بل كان زعيمها هو الشعب الجزائري، فهي ذات عقيدة إسلامية، ذلك أن دخول الإسلام إلى المغرب الأوسط كان عامل وحدة وجلب عقيدة ساهمت في توحيد السلوك والاتجاهات، ولغة وحّدت التفكير والشعور، وبمعنى آخر فالعقيدة الإسلامية خلقت حضارة عربية إسلامية مكَّنت الجزائريين من الالتفات حولها فصاروا أقوياء متماسكين، فالإسلام هو الذي جسَّد القيم العليا للشعب الجزائري وساهم في حماية

الشخصية الوطنية من الذوبان في الشخصية الأوربية وحفظ للشعب الجزائري كيانه وشخصيته. ومقومات هذه الشخصية هو الإسلام لأنه مشعل الثورة فإنه لولا الدعوة إلى الإسلام والالتفات حول هذه العقيدة وتعاليمه القيمة التي تدعوا إلى مقاومة الاستعمار باسم الإسلام والجهاد في سبيل الله والوطن. لكان في الإمكان ذوبان السكان المحليين في مجتمع الأوربيين. وبفضل الانتماء العربي الإسلامي استطاعت الثورة الجزائرية أن تفرض وجودها على الصعيدين الداخلي والخارجي [2].

فالإسلام هو الذي جسَّد القيم العليا للشعب الجزائري وساهم في حماية الشخصية الوطنية من الذوبان في الشخصية الأوربية، وحفظ للشعب الجزائري كيانه وشخصيته. ومقومات هذه الشخصية هو الإسلام لأنه مشعل الثورة، فلولا الدعوة إلى الإسلام والالتفات حول هذه العقيدة وتعاليمها القيمة التي تدعوا إلى مقاومة الاستعمار باسم الإسلام والجهاد في سبيل الله والوطن. لكان في الإمكان ذوباننا في مجتمع الأوربيين. وبفضل الانتماء الروحي للإسلام والمتجذر في نفسية المجتمع الجزائري؛ استطاعت المقاومات الشعبية، والتيارات الصوفية والدينية والثقافية والأحزاب والحركات والجمعيات الوطنية أن تفرض وجودها وتحقق غايتها. وهذه هي رسالة الشهداء الحقيقية. فهلا وعيناها..

ولو أن الفرنسيين غزو الجزائر اقتصادياً واستراتيجياً كما فعل أقرانهم الانجليز بالهند مثلاً، لكان من المحتمل أن تكون ردود الفعل الجزائرية غير دينية. ومع ذلك فالجهاد بالمفهوم الجزائري عندئذ كان يحتوي المعنى الديني المحض، أي الحرب في سبيل الله وحده وطلب الشهادة أملاً في دخول الجنة، ويحتوي أيضاً المعنى السياسي الصافي وهو الحرب في سبيل تحرير الوطن من الغازي المغتصب، أملاً في العيش الكريم وابتغاءً للحرية، وهذا المفهوم للجهاد هو عين الوطنية أو «الوطنية السياسية». ونحسب أن الجهاد بالمفهوم الإسلامي الحقيقي لا يخرج عن الدين والسياسة، خلافاً لما نعته به أعداء الإسلام وهو الحرب المقدسة. (la guerre sainte) فالجهاد الحقيقي يعني طلب الشهادة وطلب الحرية معاً[3].

لقد أدى انضمام الجزائر إلى حظيرة الأمة العربية وانتشار الدين الإسلامي والثقافة والدماء العربية في وقت مبكر إلى صبغها بالصبغة العربية الإسلامية[4]. فعرفت الجزائر من حيث الاختيار الديني ما عرفته الأقطار الإسلامية الأخرى غير أن الجزائر عرفت فيما بعد وحدة مذهبية (المالكية)، ويكفي أننا لا نجد فيما بعد القرن الرابع عشر ديناً غير الإسلام[5] وسكان المنطقة يفهمون الدين على أنه أساس الوطنية ولا يقولون مغربي أو جزائري أو مصري أو سوري أو عربي بقدر ما يقولون مسلم، فالوعي إذن كان وطنيًا ولكن بالمفهوم الديني « وأظن أن المستعمرين لو لم يكونوا مسيحيين ولم يمسوا الدين الإسلامي بمحاولة نشر المسيحية في

المناطق البربرية على الأخص لكان من الصعب بث الوعي ضدهم في بداية الأمر باعتبارهم مستعمرين يسلبون سيادة الدولة ويتصرفون في مقدراتها»[6]. ومن هنا فقد كان الفكر القومي غير قادر على القيام بنفس الدور الذي قام به الدين الإسلامي في لحم الشعب الجزائري ببعضه البعض ودفعه للمساهمة والتفاعل، وعلى هذا فالتواصل بين شرائح المجتمع الجزائري الحادث هو تواصل معنوي ورباط ديني عقدي أو قل عرقي لغوي أكثر منه تواصل طبيعي ومناخي متوحد« وبالتالي فقد كان الدين الإسلامي على طول التطور التاريخي لهذه المنطقة أهم عامل في توحيد الشعب الجزائري، واستطاع أن يصب كل جماعاتهم في كتلة متجانسة»[7].

وانطلاقاً مما سبق فلقد شكّل الإسلام أهم مقوّم من مقومات الكيان الجزائري ما من شك في ذلك لقد صهر كل المقومات الأخرى واستوعبها بصورة تركيبية، فقد ارتبطت به ثقافة المجتمع وطقوسه اليومية وأعطى الكيان الوطني كل عناصر الوحدة والبقاء ومكّن الجزائريين من عناصر تحديد شخصيتهم وصاغ وعيهم الجماعي بالنسبة إلى العالم، وبكلمة أخرى فقد مثّل فضاء تكوينهم الفكري والنفسي والاجتماعي، ولاعتبارات تاريخية لم يرقَ شُعور الجزائريين بالعروبة إلى مصاف شعورهم بالإسلام[8] ، وعدم إدراك العروبة بمعزل عن الإسلام كان يجعل الجزائريين يستغربون وجودًا عربيًا مسيحيًا، بل أن إدراك ذلك كان أمرًا مربكًا لهم تمامًا وهو ما لم يحصل إلا في فترات متأخرة فقط[9].

ولقد أدرك بعض الفرنسيين بأن المسلمين الجزائريين كانوا يحاربون فرنسا بوحي من شعورهم الديني الذي يقف وراءه انتماؤهم إلى الوطن الإسلامي العريض وسيستمر هذا الشعور إلى غاية سنة 1930م، أين تمتزج نزعتهم الإسلامية مع فكرة القومية العربية[10]، هذا على الرغم من الحصار الذي ضربه الاستعمار الفرنسي حول الجزائريين بُغية عزلهم عن بقية العالم الإسلامي، ولعل الأحداث السياسية التي يمكن أن نعتبرها سبباً رئيسيًا في بعث هذه المشاعر كانت ردود أفعال الجزائريين حولها لا تنطلق إلا بعيون مسلمة[11]. فالفكرة العربية الإسلامية ليست بالجديدة على الجزائريين، فهي موجودة منذ أيام دولة بني زيان، ثم تبلورت فيما بعد خلال الحملات الأوروبية على الجزائر في مطلع القرن السادس عشر (16م) حيث انتهت هذه الحملات بارتباط الجزائر بالدولة العثمانية..غير أن هذا الاتجاه قد قوي بعد الاحتلال الفرنسي وخصوصًا على عهد الأمير عبد القادر الذي قامت دولته على أساس ديني[12].

كما يتجسد الوعي العروبي هذا في محافظة الجزائريين على شخصيتهم رغم المسخ الاستعماري للتاريخ واللغة والثقافة والدين عن طريق تصفية مؤسسات التعليم والعبادة وإحلال الثقافة الفرنسية والمسيحية مكانها فالجزائريون كما قال كاتب من النخبة عباس فرحات[13] :«كانوا دائماً واعين لعلاقتهم بالعالمين الإسلامي والعربي وكانوا دائمًا غيورين على انتمائهم الإسلامي

وجزائر سنة 1830م كانت لا تفكر في حدودها الطبيعية ولكن في الحدود التي تفصل الإسلام والمسيحية فقط» فهو يقول :«الجزائر ككل كانت جزءاً من كل».

والجزائر قد بادرت إلى ريادة الجامعة الإسلامية بزعامة حمدان خوجة والأمير عبد القادر وابن إسماعيل والشيخ الحداد، والونيسي، وابن الموهوب[14]، وعندما وصلت النسخة الشرقية من الجامعة الإسلامية إلى الجزائر في أوائل القرن العشرين كانت قد طوّرت نسختها الخاصة التي بدأت في الحقيقة من القرن التاسع عشر[15].

ومن أهم دوافع التفاعل هو نضوج آثار مفكري الجزائر والعاملين الأولين فيها، الذين وهبوا حياتهم للتربية الدينية والتعليم ففتحوا المدارس العربية وحرروا الصحف وأرسلوا البعثات وفتحوا المساجد والنوادي كما أن قساوة الاستعمار الفرنسي وفضاعته وجبروت المستعمرين وعداوتهم الصليبية وتبرمهم من الإسلام والمسلمين في الجزائر كان من أهم هذه العوامل، يضاف إلى ذلك «إقبال الجزائريين الفطري إلى مساندة إخوة الدين والعرق وبفضل دعاية العلماء والمصلحين فتكوّنت في أول القرن العشرين في الجزائر طائفة كبيرة من العلماء أعدوا إعدادًا صالحًا ليكونوا أوتاد النهضة وشبابها روح الأمة ودرعها..» [16].

إن من يقرأ في هذه المرحلة المتقدمة مشاعر الجزائريين نحو الإسلام والعروبة يدرك فعلاً أن إحساسهم بانتمائهم إلى العالم الإسلامي إحساس لم ينبت فجأة أو هو وليد الظروف الحالية، ويصور لنا الشيخ الإبراهيمي هذا الإحساس بقوله: «... داوي الكلوم يا شرق فمنازلنا استشفينا بك نجد الراحة والعافية ونظفر بالأدوية الشافية... ومازالت أفئدتنا تهوى إليك فتصافحها حرارة الإيمان وبرد اليقين وروح الإيمان...» [17]، وإذا استعرضنا أدب الجزائر خاصة الشعر منه في التاريخ وجدنا الشعراء والكتاب يلحون على العروبة وعلى الإسلام الذي أدى دور حامي العروبة بأقطار المغرب العربي وهذا راجع إلى الحرمان الذي كان يحسّه الجزائري في ممارسة دينه وعروبته بالجزائر فحتى العرب المشارقة كانوا يعتبرون أن الجزائري فرنسياً والجزائر جزء من فرنسا، وهو ما جعل محمد العيد آل خليفة يحس بغربة في بلده ويؤكد دوام عروبته:

إن الذي يبغي إندما *** جك في سواك لأحمقُ

لا يمحي شعب بشار *** ات الرسول مطوقُ

في ذات السياق يذكر ابن باديس سنة 1937م «أن الاتحاد الإسلامي، والوحدة العربية بالمعنى الروحي والمعنى الأدبي والمعنى الأخوي هما موجودان، تزول الجبال ولا يزولان، بل هما في ازدياد دائم بقدر ما يشاهد الناس من عمل في الغرب ضد العروبة والإسلام ..» ويضيف أيضاً:«...لو كان لعرب الجزائر حركة مطلقة كغيرهم من الأمم لظهر ذلك الشعور بأوضح المظاهر وأشدها تأثيراً، وحسبهم تاريخهم القديم شاهداً»[18].

والهادي الزاهرى صاحب (شعراء الجزائر) يؤكد هذا التعلق بروافد المشرق العربي في فترة كانت فيها القطيعة المفروضة من طرف المستعمر تزيد التعلق عمقاً وترفض جسور التواصل معه، ويُعدد الزاهري الدوريات التي يسيرها المواطن من الشرق ويُسمي الشعراء الذين كانت دواوينهم ومختارات أشعارهم مثار المناقشات الأدبية ونموذج الصياغة في المدارس والمعاهد، فلا يكاد في تعداده ذلك يغفل شاردة ولا واردة تناقلتها الأندية الأدبية في المشرق حتى لكأن الحصار الذي فرضه الاستعمار الفرنسي على المنطقة في وجه التواصل العربي الإسلامي تلاشت غيومه وتهاوت أسواره الحديدية[19]، وفي مطلع قصيدة محمد العيد السابقة نلاحظ إلحاحه على الماضي التليد مما يُنمي عن إحساس عميق بالعروبة والارتباط بالأمة الإسلامية ويؤكد ذلك أيضاً بقوله أيضًا:

وما نحن إلا من سلالة يعرب *** فمن رام عنها فصلنا باء بالرغم

سلام كأزهار الربى طيب الشذى *** على قح في عروبته شهم

و في موضع آخر نلاحظ مفدي زكريا لا يمل من الحديث عن العروبة والوحدة:

وفي الشرق إخوان كرام أعزة *** عروبتنا كم عبّدت بيننا الطرقا

هي الوحدة الكبرى فمن رام قطعها *** فقد رام أن يسْتَلَّ من صلبنا عرقا

رسول الشرق قل للشرق إنا *** على عهد العروبة سوف نبقا[20]

إن الهدف من هذه الإشارات السريعة هو التذكير بأن الحركة الوطنية الجزائرية –التي تشكلت إيديولوجيتها الثورية انطلاقاً من أرضية الشمال الإفريقي والواقع الاستعماري [21] لم تفصل في مجمل مسعاها بين الحرية والوحدة وأن الوطنية تعني في أدبيات تلك الحركة رفضًا لواقع الاحتلال الفرنسي وتطلعًا قويًا للغد الأفضل وتضامنًا صادقًا مع الشعوب العربية والمغاربية وكذا الشعوب المقهورة في إفريقيا وآسيا، وعمومًا ومن دون الخوض في الأسس التي بُنيت عليها هذه الشخصية وارتباطها الأكيد بالوعي العربي والإسلامي أو تطوراتها مع الشخصيات الوطنية والحركات السياسية على مدار الأرضية التاريخية للجزائر يمكن أن نستنتج هذا الارتباط من طبيعة تعامل الاستعمار الفرنسي مع الجزائريين « فمن خلال تعامله ندرك حقيقة الشخصية الجزائرية تاريخيًا وثقافيًا وحضاريًا، حيث سماهم بالمسلمين رافضًا تسميتهم بالجزائريين والقصد من ذلك هو إنكار عروبة الجزائر وإسلاميتها والعمل على محو مقوماتها...» [22].

2. أدوار النخبة في صياغة الهوية الروحية للمجتمع الجزائري.

لقد اضطلعت النخبة الجزائرية بدور تاريخي، حيث كانت لها مواقف نادرة في فترة الاستعمار المظلمة، وقد دلَّ ذلك على وعيهم وتفطنهم لوجودهم الرسالي وتنبههم لسائر المشاريع والمخططات الاستعمارية الفرنسية التي كانت تحكيها الصليبية العالمية ضد الوجود العربي

الإسلامي في الجزائر كلها، كما جسّدت أدوارهم هذه حرصهم وتأكيدهم الدائم للحفاظ على مقومات هويتهم الحضارية.

ومن مظاهر البر والعرفان ذلك الحب العميق الذي تُكنّه هاته النخبة المثقفة لوطنها، وذلك العمل الدائب من أجل التعريف بالجزائر وقضيتها التي أصبحت بواسطة الجمعيات الثقافية والأحزاب السياسية، والنوادي الفكرية، والجرائد والصحف المطبوعة.... قضية معروفة ساهمت النخبة بالكتابة عنها في مختلف الصحف وإقامة المهرجانات وجعلها مناسبة لإبراز الجزائر، وكذلك لتخليدها على صفحات الأسفار المطبوعة كما فعل طلبة الزيتونة عند إهداء مجلتهم الثمرة الأولى إلى الجزائر... التي لم ترى من الأبناء الذين يحسبون لحرمة الأمومة حسابها ويفقهون للكرامة معناها- إلا النادر القليل، «إلى الأم الحنون والوطن المفدى بالنفس والنفيس: الجزائر العزيزة الناهضة نهدى كعنوان على الطاعة والولاء والتضحية والجهاد في سبيل مرضاتها وهنائها؛ هاته القطرات المنعشة علها تُثلج صدرها المحترق، وتخفّف نوعاً ما من كمد كبدها الجريء الملتهب، فتبتسم للمستقبل الزاهر، وتنشرح نفسها للأمل السعيد..» [23].

وفي الجملة فإن المعركة التي كانت دائرة بين القديم والجديد وبين السنة والبدعة وبين المستقل والمندمج ... والتي كانت الجزائر مسرحاً لها، قد ساعدت على بروز نخبة تتميز بنقمتها وثورتها على البرنامج التكويني المتحجر من جهة؛ وعلى أشكال ابتذال الهوية من جهة أخرى، ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المبحث هذه الملاحظة البليغة التي أبداها "غاستون فلتران" في الفصل المنشور بجريدة الديبيش كولونيال بتاريخ 11 ماي 1910م عقب مظاهرات واعتصامات الطلبة الزيتونيين: «تمثل مظاهرة الطلبة أثراً طبيعياً ومنطقياً من آثار قضية بسيطة وملموسة بالنسبة إلى الجميع أعني هجوم الأفكار الجديدة على معاقل الأفكار القديمة»[24]، وقد كانت طائفة (علماء الجزائر) الذين يقيمون شعائر الدين ويعملون بتعاليمه عاملاً مهماً في التمسّك بالقومية الجزائرية والتعاليم الإسلامية، فبذلوا جهوداً موفّقة في سبيل التقريب بين العرب والبربر، وإيجاد كتلة إسلامية متحدة. كما عملوا على نشر العلوم الدينية وتقوية الروح الوطنية بين المواطنين وتطهير النفوس من السموم الفرنسية[25]. وتحت شعار الوعظ والإرشاد ونشر التهذيب والتعليم الديني بين أبناء وبنات الجزائر وتأسيس النوادي الثقافية للعناية بالشباب وتربيتهم تربية اجتماعية ودينية، كانت النخبة الجزائرية تخوض في الأمور السياسية في كل ما يتصل بمستقبل الوطن ومقوّمات الشخصية الجزائرية، وقد عملت على توجيه الشعب الجزائري توجيهاً عربياً وإسلامياً ووطنياً يخالف تمام المخالفة سياسة الاحتلال الرامية إلى:

- تشجيع الطرق الصوفية الضّالة التي تعمل على نشر الشعْوذة وإخماد العقل.
- فرنَسة الجزائر فرنَسة كاملة في اللغة والثقافة والفكر والاتجاه.

- فرض التجنيس على الجزائريين بقصد سلخهم من شخصيتهم الوطنية العربية الإسلامية وإدماجهم في الكيان الفرنسي العام وبالتالي تصبح الجزائر جزءاً مكمّلاً لفرنسا.
- العمل على نشر المسيحية والقضاء على مقومات الدين الإسلامي[26].

حيث « كادت سياسة البدع والأراجيف تؤثر على الشعب الجزائري لولا أن قيّض الله لهذا الشعب بعض العلماء المخلصين الذين التفوا حول الشيخ عبد الحميد بن باديس وأخذوا يدافعون عن مبادئ دينهم وصَفاء لغتهم، فلم يهِنوا ولم يضعُفوا على الرغم من اضطهاد الاستعمار لهم وتكالُب الرجعية حولهم»[27]، لقد كان برنامج النخبة الجزائرية تعليمياً وتربوياً في آن واحد، فمن الوجهة التربوية الدينية أرادوا الرجوع بالإسلام إلى ترك المراجع التقليدية للمذهب المالكي، وأخذوا في سبيل ذلك مقاومة المعتقدات الباطلة والسحر والشعوذة، ومن الوجهة التعليمية الثقافية سعوا إلى لمّ شَتات المجموعة الإسلامية بالتقريب بين السنيين والأباضيين والعرب البرابرة بدون ميّز في الجنس أو الأصل قصد خلق كتلة واحدة من المسلمين الجزائريين[28].

وقد اهتموا أولاً وبالذات بالناحية التربوية فبثّوا تعليماً مهيئاً على الطريقة الشرقية تقليدياً ومستوحى من مبادئ الوحدة العربية في آن واحد، وبفضل إرادتهم وقوّة عقيدتهم واجه العلماء والمصلحون التصوّف الشاذ والمرابطة الرّاكدة، وناصروا غايات التجديد، فأنشأوا حتى بالمداشر والدواوير مدارس حرّة لنشر مبادئ اللغة العربية والتربية الإسلامية، وكان هدفهم الأسمى هو إنشاء جامعة كبرى على غرار الجامعة الزيتونية تكون مركز إشعاع للثقافة العربية.

وامتدت حركة العلماء التربوية والتعليمية إلى الأوساط العمالية والمهنية والترفيهية بفرنسا والجزائر حيث أسّسوا نوادي تربوية ترمي إلى إنقاذ الإخوان الذين هم بصدد الانغماس في الرذيلة وفي الشارع ومدّهم بتربية الفكر الصحيح حسب التعاليم الدينية[29]؛ وقد لاحظ الصحفي التونسي ابن محمود نور الدين الذي زار منطقة وادي سوف عام 1952م أدواراً مميّزة للنخبة العلمية الجزائرية من خلال نشاطها الدؤوب في نشر الدين الصحيح واللغة العربية في أوساط ساكني وادي سوف «قام أحد متساكني «وادي سوف» من خريجي الزيتونة فضّل تأسيس مدرسة لتعليم العربية وتحمّل تبعات ما يكلّفه هذا المشروع من العمل المضني على إعطاء دروس بالعربية في المدارس النظامية، ولم يكن خريج الزيتونة هذا إلا الشيخ الطاهر التليلي المحرز على العالمية من جامع الزيتونة.. ففي أكثر الأحيان كان الناس يُقبلون من تلقاء أنفسهم على العائدين من الدراسة أثناء العطلة يرغَبون إعطائهم دروساً في اللغة العربية وشؤون الدين الإسلامي... ويقطعون لذلك المسافات الشاسعة بين القرى والمدن بدافع الرغبة الجامعة في التعلّم»[30].

كما أن النخبة الجزائرية واكبت الثورة المسلحة وتلاحمت معها التحامًا عضويًا من أولها إلى آخرها وأدّت دورًا بارزًا مشرفًا في كل معاركها العسكرية والسياسية والتنظيمية داخل الجزائر

وخارجها، وضحت بالغالي والنفيس في سبيل إنجاحها وانتصارها، كما قدّمت شهداء عديدين يعدّون بالعشرات والمئات عانوا من كل ما عاناه شعبهم من الآلام والتعذيب والتشريد والتقتيل إلى أن تحررت بلادهم وشعبهم وتحقق الاستقلال الوطني، كما أن أهم سِمة وصفة فصلوا بها أنفسهم عن النخبة الفرنسية الأوربية المستعمرة هي الإسلام...

الخاتمة:

لقد كان للإسلام دورٌ بارزٌ وأساسي في كفاحنا الوطني منذ حملة الاحتلال عام 1830م إلى ثورة الاستقلال عام 1962م[31]، إن الأعمال الجليلة التي قدمتها النخب بشهادة تقارير المخابرات الفرنسية ومراسلات القناصل والعملاء تدل دلالة واضحة أن هؤلاء وغيرهم هم جيل تربى على الوطنية والعروبة والإسلام وسوف تبرز الدورة التاريخية أن هؤلاء هم الذين كانوا وقُود الثورة. ورائدهم في ذلك الطالب الزيتوني الشهيد قاسم زيدون (زدور) وأمثاله ممن قضوا نحبهم شهداء، وهؤلاء هم الذين كان من الأجدر بنا أن نتذكرهم ونحتفل بهم. وفي نهاية هذه الدراسة نستطيع أن نحدد المجالات العامة التي كانت انعكاساً بارزاً لنشاط النخبة الجزائرية ودورها في صناعة الفكر المقاوم للمجتمع الجزائري المستمد مقوماته من الهوية الإسلامية للمجتمع في ثلاثة أمور:

- إيقاظ وبعث الوعي الوطني بين الجزائريين.
- ربط الجزائر ثقافياً وحضارياً بثقافة وحضارة اللغة العربية والقرآن.
- المحافظة على الشخصية الإسلامية الجزائرية.

الهوامش

1. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، الجزائر: دار البصائر، 2007، ص16.
2. أحمد الخطيب،الثورة الجزائرية،بيروت، دار العلم للملايين،1958م. ص225.– راجع:طلاس(مصطفى)،الثورة الجزائرية،دمشق:دار طلاس،1984م ص352.
3. على الدين (هلال)، " إشكالية التوحيد العربي "، شؤون عربية، ع 43، تونس: سبتمبر 1985م، ص 65.
4. مرسى (مصطفى)، " اتحاد المغرب العربي "، التعاون، ع14، مصر: جوان 1989م، ص 114.
5. الكثيرى (مصطفى)، الخصوصية التاريخية والحضارية لبلدان المغرب العربي، عمان: شركة الشرق الأوسط، 1986م، ص 22.
6. الأزهر (علال)، المسألة القومية والنزعة الأمازيغية وبناء المغرب العربي، الرباط: دار الخطابي للطباعة والنشر، 1988م، ص 36. راجع أيضاً:– زنيبر(محمد)،"دور الثقافة في بناء المغرب الكبير"، المستقبل العربي،ع 79، بيروت:سبتمبر 1985م،ص.ص(50–23).

7. ألفرد (بل)، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، تر: عبد الرحمان البدوى، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1987م، ص 42.

8. هنري (كلود) وأندرى (برينان) وايف (لاكوست)، الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي، تر: محمد عيتاني، بيروت: منشورات المعارف، ص.ص(133- 138).

9. بلقزيز (عبد الإله) وآخرون، الحركة الوطنية المغربية والمسألة القومية، بيروت: م.د.و.ع، 1992م ،ص 21.

10. للتوسع أكثر راجع:

- Merad (Ali), Le Réformisme Musulman en Alegria (1925 à 1940). Paris:1967. P 37.

11. ناصر (محمد)، المقالة الصحفية، مج1، الجزائر: ش.و.ن.ت، 1978م، ص 158.

12. بلاسي (نبيل أحمد)، الاتجاه العربي الإسلامي ودوره في تحرير الجزائر، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م، ص 220.

13. عباس (فرحات)، ليل الاستعمار (حرب الجزائر وثورتها)، تر. أبو بكر رحال، الجزائر: منشورات أناب. 2005م، ص 134.

14. للتوسع راجع: عميراوي (أحميدة)، دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية، قسنطينة: دار البعث. 1987م.

15. أبو القاسم (سعد الله)، الحركة الوطنية الجزائرية، ط4،ج2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992م، ص 124.

16. دبوز (محمد علي)، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2. الجزائر: المطبعة العربية، 1971م، ص.ص(5-3).

17. ركيبي (عبد الله)، قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، الجزائر: م.و.ك. 1983م، ص 19.

18. الخرفي (صالح)،الجزائر والأصالة الثورية، الجزائر : ش.و.ن.ت، 1977م، ص.ص(139 – 141) .للتوسع حول قضية مشاعر الجزائريين الإسلامية والعربية- يراجع مقال:- عمر بن قدور، "الشعور الإسلامي في الجزائر "، اللواء القاهرية،ع 1945م، س 07، مصر:1906/02/07م.

19. الخرفي (صالح)، في رحاب المغرب العربي، بيروت: دار المغرب الإسلامي، ب.ت ، ص 172.

20. ركيبى (عبد الله)، قضايا، ص.ص(28-24).

21. قنانش (محمد)، المواقف السياسية بين الإصلاح والوطنية، الجزائر:(ش، و، ن، ت)، ب، ت، ص 33.

22. بلاسي، المرجع السابق،ص 38. راجع: السيد(رضوان)،مفاهيم الجماعات في الإسلام،بيروت:دار المنتخب العربي،1993م،ص.ص(37-36).

23. الثمرة الأولى (إصدار ج.ط.ز.ج)، تونس: مطبعة الشباب، 1937م.، ص25.

24. العياشي(مختار)، البيئة الزيتونية (1945-1910)م، تر:حمادى الساحلي، تونس:دار التركي للنشر، 1990م، ص16.

25. جوهر (حسن محمد)، مرسي (محمد أبو الليل)، الجزائر: مصر، دار المعارف، 1965م، ص55.

26. للتوسع راجع: تركي (رابح)، "الصراع بين جمعية العلماء وإدارة الاحتلال"، الثقافة، ع85، ص. ص(183– 202).

27. أحمد الخطيب، الثورة الجزائرية (دراسة وتاريخ)، بيروت دار العلم للملايين،1958م.، ص122.

28. جوليان (ش،أ)، أفريقيا الشمالية تسير، تونس: الدار التونسية للنشر، 1976م.، ص135.

29. نفسه، ص136.

30. الجابري (محمد)، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس، تونس: الدار العربية للكتاب 1983م، ص43.

بوعزيز (يحي)، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، الجزائر: د.م.ج، 1999م ، ص 369.

الآثار البيئية الاجتماعية والاقتصادية للتهيئة الهيدرومائية في الضفة الشمالية لنهر السنغال

د. اباب ولد بنيوك، جامعة انواكشوط

المقدمة:

عرفت المنطقة موجات جفاف حادة كان من أبرز نتائجها اختفاء كلي للزراعات المطرية وتراجع الزراعات الفيضية وهلاك معظم الثروة الحيوانية، وقد أدت هذه العوامل إلى هجرة واسعة النطاق نحو المدن وأختل النظام الاقتصادي الذي كان يحكم المنطقة بعد أن أصبحت الزراعة نشاطا ثانويا. لذلك لجأت الدولة الموريتانية بالتشارك مع دول منظمة استثمار نهر السنغال إلى القيام بمشاريع للتهيئة الهيدرومائية على ضفاف نهر السنغال من أجل تنظيم مياهه والمحافظة على منسوب معين يسمح بتوفير كميات كافية من المياه لممارسة الزراعة المروية دون ارتباط بالذبذبات المناخية التي أصبحت دورية، وشرعت الدولة في تهيئة المناطق المروية ،هذا من جهة ،ومن جهة أخرى الاستفادة من مياه الأمطار التي تقدر كمياتها سنويا في عموم البلاد ب 150مليار متر مكعب تهطل خلال فترات قصيرة ،يفقد جزء كبير منها بالتبخر ولا يستفاد الا بما نسبته 3%.

هذه الحصيلة المائية المهمة بالنسبة لموريتانيا التي لا يتجاوز عدد سكانها حسب احصاء السكان2013 حوالي 3500000 نسمة تظل "سرابا بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا"1 ، فأغلب مدن البلاد تعيش حالة من العطش، وطرق تزويد السكان بالمياه لا تزال بدائية، ناهيك عن أن كمية مهمة من مياه النهر تذهب إلى البحر مباشرة دونما استفادة.

إن قيام تهيئة مائية ناجحة ومستديمة ليس بالأمر الهين، لكنه ضرورة ملحة لضمان الاستفادة من المصادر المائية القائمة .فالتوسع الاقتصادي والنمو الديموغرافي والحضري الذي تسجله المنطقة ،وسلوك هذه القطاعات اتجاه الموارد المائية واستمرارها بهذا الشكل في ظل محدودية الأخيرة وما يرافقها من تغيرات بيئية، قد تؤدي في النهاية إلى عدم قدرتها على مواكبة هذه التطورات.

ومن أجل تجنب ما قد يترتب على غياب التوازن الدقيق القائم من أخطار ومشاكل خصوصا في بلد يعتمد بالأساس في تزويده بالمياه على مصدر خارجي (نهر السنغال) وبنسبة 95% ،فإنه لابد من التحكم في تلك الموارد بشقيها ذي المنشأ الخارجي والمنشأ الداخلي من خلال إعداد سياسة مائية تعتمد على تهيئة ناجحة تسمح بصيانة المياه وحفظها بما يضمن الاستفادة منها حاضرا ومستقبلا.

سنحاول من خلال هذا المقال معالجة موضوع التهيئة الهيدرومائية وآثارها المختلفة ضمن ثلاث محاور أساسية هي:

المحور الأول المكونات الأساسية للتهيئة الهيدرومائية في المنطقة

المحور الثاني التهيئة الهيدرومائية وآثارها البيئية

المحور الثالث: التهيئة الهيدرومائية وآثارها الاجتماعية والاقتصادية

التعريف بمنطقة الدراسة:

تمتد الضفة الشمالية لنهر السنغال على مساحة تصل 22000كلم مربع ،وتشمل المناطق المحاذية لضفة النهر من أربع ولايات هي كيديماغا وكوركول ولبراكنة واترارزة. كما يوضح الشكل التالي.

تحتضن المنطقة أهم مخزون من الأراضي الزراعية يقدر ب 90 ألف هكتار ومساحات رعوية مهمة تقدر ب 30 ألف هكتار ،كما تتميز بوجود أهم مصادر المياه السطحية ممثلة في وادي نهر السنغال وروافده الأساسية مثل اودية كوركول الاسود وكوركول الابيض والكرفة.

المحور الأول: التهيئة الهيدرومائية ومكوناتها الأساسية

1-السدود المتركة وتشمل السدود المشتركة بين الدول الثلاثة المطلة على النهر، وتنحصر في سدي اديامًا ومانانتالي.

آ- سد اديامًا:

سد اديامًا هو سد متحرك يفتح أثناء فترة الفيضان من أجل ضمان فيضان عادي للنهر، ويسد في الفترة التي يكون فيها الفيضان ضعيفا، حتى يقوم بإعاقة المياه المالحة من الصعود إلى النهر التي كانت تصل في بعض الأحيان لمسافة 350 كلم خلال فترة التحاريق، ويوفر مخزونا هاما من المياه العذبة يصل أحيانا إلى حوالي 250 مليون متر مكعب. يمكن السد من ري مساحات زراعية هامة تتراوح بين 42000 هكتار عند الارتفاع 1,5م، و 100 ألف هكتار عند الارتفاع 2,5 م2 ، وقد حسن من درجة امتلاء بحيرة اقيير واركيز وهذا ما سمح بري مساحة 20000 هكتار إضافية (منظمة استثمار نهر السنغال).

بلغت التكاليف الإجمالية لمشروع السد 36 مليار افرنك غرب افريقي، ممولة من طرف الصندوقين السعودي للتنمية والكويتي للتنمية، وصندوق ابو ظبي، والتعاون الفرنسي والصندوق الأوروبي للتنمية والبنك الإفريقي للتنمية وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي. بلغت مساهمة موريتانيا في المشروع 22% في حين كان نصيب السنغال 46% ومالي 32%، 3.

ب-سد مانانتالي:

يقع على الرافد الأساسي لنهر السنغال وهو البافينغ، تبلغ قدرته التخزينية عند المستوى العادي للاستهلاك 11 مليار متر مكعب، على مساحة غمر تقدر ب 477كلم مربع، وتقع على ارتفاع 208م فوق مستوى سطح البحر، ويصل ارتفاع السد 65م. وهو عبارة عن سد سطحي – كهربائي – مائي صمم لغرض احتجاز مقدار كاف من الماء للمتطلبات والأهداف المتعددة.

يمكن إجمال الأهداف الرئيسية للسد فيما يلي:

–تنظيم مستوى دائم لصبيب النهر في حدود 300 متر مكعب في الثانية، وإحداث فيضان صناعي يصل مستوى تصريفه إلى 2500متر مكعب في الثانية، لمدة شهر من 15 أغشت إلى 15 شتنبر بغية ضمان زراعة فيضية خلال فترة زمنية تصل إلى 15 سنة 4، حتى لا يتعرض السكان الذين يعتمدون على هذه الزراعة للخطر، ويسمح بممارسة الزراعة المروية على مساحة تقدر ب 375000 هكتار موزعة بين الدول الثلاثة, يصل نصيب موريتانيا منها 125000 هكتار.

–ضمان تسهيل الملاحة من قرية آمبيد يدي بمالي إلى منطقة سان الويس عند مصب النهر على مسافة تصل إلى 935 كلم خلال السنة، من أجل التبادل التجاري خصوصا أن النقل البحري بين الدول المطلة على النهر (المعروفة بمنظمة استثمار نهر السنغال) لا يزال ضعيفا.

– توفير 800 مليون كيلو وات من الطاقة الكهرومائية في الساعة موزعة على الدول الثلاثة، تصل نسبة موريتانيا منها حوالي 15%, أي ما يقارب 120 مليون كيلووات، تستفيد منها عواصم الدول الثلاثة.

استغرق انجاز السد الفترة الممتدة من يناير 1982 إلى ابريل 1984 بتكلفة وصلت 160 مليار فرانك غرب إفريقي.

1–2–السدود المحلية

آ–سد فم الكلته:

يقع هذا السد على وادي قورقول الأسود في الضفة اليمنى للنهر، وهو أحد روافد نهر السنغال الذي ينبع من هضبة العصابة من داخل أراضي موريتانيا، على بعد 70كلم من موقع السد نفسه.

تصل طاقته التخزينية حوالي 500 مليون م^3، وقد شيد من الخرسانة على شكل قوس وبارتفاع أقصى يصل إلى 35 مترا، وتصل مساحة بحيرة خزانه 7500 هكتار.

ب–السدود التلية:

تقام السدود عادة في المناطق التي تتوفر على كميات مطرية مهمة، قصد الاستفادة منها واستغلالها في تكثيف الزراعات المروية، وتوفير مياه الشرب للسكان والحيوان. غير أن هذه المنشآت تحتاج إلى توفر ظروف طبوغرافية مثل وجود انحدارات مهمة تسمح بتدفق المياه بكميات كبيرة في اتجاه محدد.

إن أغلب هذه السدود الموجودة في المنطقة هي سدود تقليدية رملية تسمى محليا (لقليك)، يتم إنشاؤها بشكل فردي، وفي أحسن الأحوال تكون بمبادرة من أعيان القرية بهدف توفير المياه

وزراعة الأرض، ومثل هذه السدود لا يخضع إنشاؤها لأي دراسة، ولا توجد لها إحصاءات، ولا يعرف حجم مياهها، رغم أنها تنتشر بشكل واسع في المنطقة.

ج-السدود المدعمة:

تتميز باحتوائها على بعض التجهيزات ويتم بناؤها بمهارة عالية مقارنة بسابقتها، مع الأخذ بالاعتبار لتقنيات بناء السدود، حيث يكون اختيار موقع السد عند النقطة ذات الانحدار الأكبر، وتترك فيه فتحة تسمى المفرجة وهي تسمح بمرور المياه عبرها عند حصول ضغط كبير أو أثناء إفراغ السد. و هي أيضا ترابية ولكنها مضغوطة ومقواة أحيانا، ويوجد لها مسيل، وتختلف كمية المياه المحجوزة ومساحة الأرض التي تغمرها من سنة لأخرى باختلاف كمية الأمطار.

تتميز هذه السدود بكثافة المادة داخلها، فالعازل الداخلي يمنع ترشح أو تسرب المياه عبر بناء السد. ظلت هذه السدود الركيزة الأساسية والوحيدة تقريبا في إنتاج الحبوب والخضروات التي يعتمد علي عليها السكان في معيشتهم. يقدر عددها في موريتانيا عموما بحوالي 394 سدا، تحتضن منها منطقة الدراسة 16 سدا مدعما، بعضها في حالة سيئة بفعل مياه الفيضانات أو نتيجة لغياب الصيانة، إضافة إلى عشرات السدود التلية بسيطة الإنشاء، التي تستخدم أساسا للزراعة خلال فصل الخريف.

الجدول1: أهم السدود المدعمة المقامة في المنطقة ومساحاتها وحجم المياه بداخلها

المنطقة	نوع السدود	عدد السدود	مساحتها بالهكتار	السدود سيئة الحالة	ارتفاع المياه في السد بالمتر	حجم المياه المتوقع
سيلبابي	مدعمة	6	630	2	1,5	945م^3
امبود	مدعمة	10	695		1,5	1042م^3
المجموع		16	1352	5	1,5	1987م^3

المصدر: ادارة السدود والهيدرولوجيا، وزارة المياه والصرف الصحي بموريتانيا،2010

2-الآبار:

تعتبرا لآبار إحدى أهم مكونات التهيئة الهيدرومائية في المنطقة، ذلك أن اغلب ساكنة المنطقة تعتمد عليها، ففي منطقة سيلبابي مثلا يعتمد حوالي 64,5% من الساكنة على مياه الآبار في التزود بمياه الشرب، أما في كيهيدي فتصل النسبة حوالي 45,6، 5.

الشكل2: تطور عدد الآبار في موريتانيا

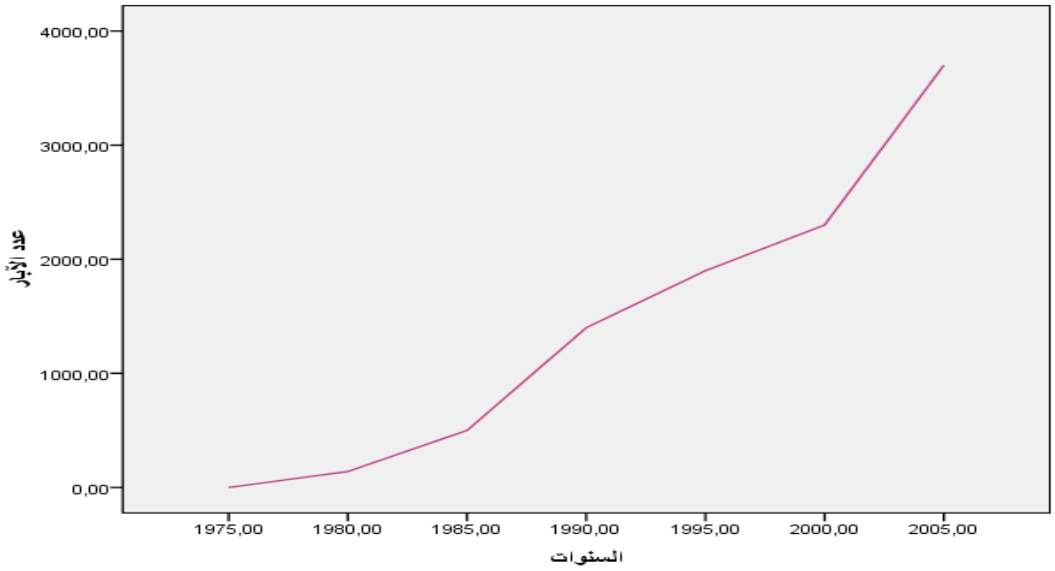

المصدر: من عمل الباحث بإستخدام برنامج spss، ومصدر المعلومات (Direction de l'Hydraulique et de l'Assainissement,2008)

عرف عدد الآبار تطورا ملحوظا خلال السنوات السابقة، يأتي ذلك استجابة للتطور الديموغرافي وما رافقه من تزايد في أعداد القرى والتجمعات السكانية.

الجدول2: تطور عدد الآبار في منطقة الدراسة

المنطقة	2001	2003	2005	2007	2010
سيلبابي	191	211	221	239	271
امبود	231	293	309	321	347
كيهيدي	42	58	72	85	98

المصدر: Centre des resources des eaux, 2010

الجدول3: تطور عدد الآبار والسدود مقارنة بأعداد القرى في منطقة الدراسة لسنة 2010

الاسم	كيهيدي	مقامة	امبود	سيلبابي
عدد القرى	98	84	347	172
عدد الآبار	69	73	131	151
عدد السدود	0	0	10	6
نسبة الآبار إلى القرى	0,7	0,86	0,37	0,55
نسبة السكان إلى عدد السدود	0	0	34,7	44,8

المصدر: إدارة السدود و الهيدرولوجيا,Recenssement National de population 2010 en 2000,

يعكس هذا الجدول مجموعة من المعطيات يمكن اعتمادها كمؤشرات لتحديد مدى تغطية المنطقة بالمياه الصالحة للشرب، ومنه يلاحظ أن منطقة مقامة تحتل الصدارة في مستوى درجة التغطية بمياه الآبار بمؤشر يصل 8آبارلكل 10قرى، بينما في كيهيدي تراجع المؤشر إلى 7آبار لكل 10قرى، على مستوى منطقة امبود سجل المؤشر تقريبا 4آبار لكل 10قرى.

المحور الثاني: التهيئة الهيدرومائية وآثارها البيئية

أدى بناء السدود إلى تغيير نظام الجريان المائي في المنطقة بشكل عام، حيث حدث تحكم شبه تام في نظام جريان النهر، فمثلا عند منطقة باكل اختفت تلك القيم العليا والدنيا للتصريف قبل إنشاء سد مانانتالي ،واستبدلت بقيم مضبوطة ومحكم فيها وتخدم الأغراض البشرية لساكنة المنطقة.

1-أثر السدود على النظام الهيدرولوجي والبيئي للنهر

- ✓ تأثير سد مانانتالي على جريان النهر

يبين الجدول التالي متوسط التصريف الشهري للنهرعند باكل في حالة وجود السد (تصريف طبيعي) وعدم وجوده (تصريف اصطناعي)

الجدول4 متوسط التصريف الشهري للنهرعند باكل في حالة وجود السد وعدم وجوده

الأشهر	أدنى تصريف		أقصى تصريف	
	تصريف طبيعي	تصريف اصطناعي	طبيعي	اصطناعي
مايو	9	280	32	341
يونيو	104	377	300	406
يوليو	170	450	1385	624
اغشت	2274	1407	5831	3079
شتنبر	3320	2654	6746	5924
اكتوبر	1623	1514	3955	3563
نوفمبر	950	544	1455	1437
ديسنبر	246	336	465	515
يناير	137	344	250	344
فبراير	81	350	140	350
مارس	45	314	84	315
ابريل	19	285	42	348

المصدر: Gpoupe mantali 1977

من المعطيات الواردة في الجدول 4 يتبين مدى تأثير السد على نظام الجريان في النهر خاصة أثناء فصل التحاريق (من سبتنبر إلى يونيو)، حيث نلاحظ أن معدل التصريف أثناء فترة التحاريق أصبح مرتفعا مع وجود السد، مقارنة مع المعدل الطبيعي قبل انجاز السد، والعكس أثناء الفيضان، حيث تراجعت قمم الفيضان العليا المعروفة قبل انجاز السد إلى قمم مضبوطة ومحكم فيها. حيث يتم تخفيض تصريف الفيضان من 3320متر مكعب في الثانية إلى 2650 متر مكعب في الثانية في المتوسط، ، كما يلاحظ من خلال الجدول أن الإيراد الطبيعي لنهر السنغال كان متذبذبا قبل إنجاز سد مانانتالي من سنة لأخرى، بالمقابل يصل التصريف في بعض الأحيان إلى مستوى عال تنتج عنه كوارث طبيعية كما حدث سنة 1958 حيث تضررت منه العاصمة انوكشوط التي تقع على بعد 200 كلم من المصب وكذلك سنة 2003.

- ✓ تأثر سد اديامًا على جريان النهر

أدى وجود سد اديامًا إلى إحداث تغيرات في النظام المائي في منطقة الدلتا, حيث كانت تتسرب المياه المالحة في الداخل إلى مسافة 200 كلم 6. وتؤدي إلى امتلاء بحيرات، اقيير في السنغال واركيز وآفطوط الساحلي في موريتانيا. رغم ذلك فإن لهذا السد آثار سلبية تمثلت في حجز الطمي الذي كان يحمله النهر كل سنة مع الفيضان بمقدار يصل في المتوسط إلى 150غ للمتر المكعب في السنة، ولا تسمح الخزانات بمرور إلا 20% فقط لكل سنة من الرواسب7، كما كان من نتائج هذه السدود ارتفاع مناسيب المياه الجوفية المالحة.

إجمالا فقد ساهم سد مانانتالي في الحد من التقلبات السنوية للفيضان خصوصا تلك المترتبة على سنوات الجفاف التي تعرفها المنطقة. إضافة إلى الدور الكبير الذي لعبه عامل الجفاف في خفض قيم الفيضان، فإن هناك عومل أخرى تحول دون الاستفادة من كمية المياه التي تجري عبر هذا النهر منها:

-جزء كبيرا من المياه يضيع يقدر ب 0,8 مليار متر مكعب كل سنة، نتيجة التبخر على طول المجرى المائي بين منطقة باكل ومنطقة اديامًا بطول 750 كلم وبعرض 300م، بمعدل تبخر قدره 10مم لليوم 8.

-جزء من المياه يضيع بفعل التبخر في المساحات الفيضية, فمثلا كل منطقة مروية قدرها 100 ألف هكتار تفقد خلال ثلاثة أشهر نتيجة التبخر كمية قدرها 9,0 مليار متر مكعب.

1-2-السدود والحماية من الظواهر الهيدرولوجية الكبرى (الفيضانات):

تتميز الهيدرولوجيا في منطقة الدراسة بتعاقب فترات الجفاف والفيضانات، واعتبارا لهذا المعطى فإن السدود تصمم لمواجهة سنوات متتالية من الجفاف الحاد، ولتلعب دورا حاسما في التحكم في الحمولات. تشكل الحماية من الفيضانات أحد الأهداف الرئيسية للتخطيط المائي حيث مكنت السدود التي أنجزت من تفادي الفيضانات المهمة التي كانت تعرفها المنطقة، كما قللت من أثر

فيضانات أخرى، كان من المحتمل أن تؤدي إلى كوارث كبيرة مثل ما حصل خلال عامي 1999 و2003 في مناطق مختلفة من منطقة الدراسة، كما يبين الجدول.

الجدول5: خسائر منطقة الدراسة خلال فيضانات 2003

الخسائر	كيهيدي	مقامة	امبود	سيلبابي
الاسر المتضررة		634	118	1144
الاسر بدون سكن		114	57	188
المساكن التي سقطت		143	79	1044
الحيوانات التي نفقت		1258	531	
خسارة مساحات زراعية بالهكتار	115,53			

المصدر: MAED,2004

المحور الثالث: التهيئة الهيدرومائية وآثارها الاجتماعية والاقتصادية

ساهمت التهيئة الهيدرومائية التي عرفتها المنطقة في إحداث تحولات على مستوى النظام الزراعي في المنطقة وفرضت تغيرات كبيرة على مستوى تطور الإنتاج وتوفر فرص العمل، كما أثرت على هياكل الملكية وطرق الاستغلال.

1-السدود والتنمية الزراعية:

تعتبر المردودية الزراعية للسدود مهمة، ذلك أن أغلبها يتميز بوجود تربات ناضجة نسبيا مكونة من رمال تحتوي على نسبة عالية من الطمي و السلت والحصى. تزرع على امتدادها العديد من أنواع الحبوب مثل الذرة و الدخن و الفاصولياء، إضافة إلى زراعة الخضروات.

يقدر إنتاج السدود في موريتانيا عموما بحوالي 18% من إنتاج الحبوب خلال الفترة الممتدة من 1995إلى 2005 9، ويرتبط ذلك الإنتاج بشكل كبير باتساع مساحة السد التي تتسع وتضيق حسب أهمية الأمطار التي تعرفها المنطقة.

الجدول 6: يبين مقارنة بين التساقطات السنوية ومساحة السدود على مستوى المنطقة وإنتاجها.

النوع	2001	2003	2005	2007	2009
مساحة السدود	1600	670	560	1321	1483
الانتاج	1419	1050	983	1621	1287
المعدل السنوي للتساقطات	447,5	305	407,5	353,5	429

المصدر:إدارة القرض الزراعي، وزارة التنمية الريفية، 2010، إدارة الهيدرولوجيا والسدود، 2010

2-التشغيل الزراعي:

مكنت التهيئة الهيدرومائية من خلق فضاء مهم من الوحدات الزراعية يتمايز من وحدات قروية ذات طابع ريفي تسيطر عليها بشكل كبير عمالة النساء وبنسبة تقدر ب70% ووحدات مروية كبرى وخصوصا مزرعتي قورقول1 و قورقول2 فإن نسبة العمال الموسميين تصل حوالي 64% بينما العمالة الثابتة أو الدائمة لا تتجاوز 12% ،والنسبة الباقية تحتلها العائلات. يهيمن الذكور على نسبة عالية في هذه الوحدات بنسبة 98%، وتتركز أيام العمل على فترة التشتيل التي تستمر من اسبوعين إلى ثلاثة ويحتاج الهكتار خلالها مابين 10إلى 15عامل 10.

عموما فقد أحدثت التهيئة الهيدرومائية بما وفرته من مصادر مائية دائمة تغيرات هيكلية طالت جوانب عديدة من القطاع الزراعي كالملكية العقارية ونظم الإنتاج والتشغيل أدت إلى تعدد الأنماط وتنوع المحاصيل الزراعية، وقد ساهمت هذه الظروف في تطور عدد العاملين في هذا النشاط من 2040 عامل سنة 1976 إلى 42700 سنة 2003.

الجدول7: تطور عدد العاملين في القطاع الزراعي على مستوى الضفة اليمنى للنهر

السنوات	الذكور	الإناث	الجميع
1976	1870	170	2040
1988	29650	2274	31924
1994	23840	1780	25620
2003	37300	4400	42700

المصدر: محمد أحمد ولد السيد، 2006

الخاتمة:

ساهمت سنوات الجفاف وما رافقها من تناقص في معدلات الأمطار إلى تراجع حجم الموارد المائية، لذلك لجأت الدول المطلة على النهر إلى إنشاء العديد من السدود بغية تعويض النقص الحاصل في الأمطار. وقد ساهمت هذه المنشآت المائية في توفير كميات ضخمة من المياه، كما سمحت بممارسة الزراعة على مساحة قدرها 375000هكتار موزعة بين الدول الثلاثة المطلة على النهر، يصل نصيب موريتانيا منها حوالي 125000هكتار.

الى جانب ذلك ساهمت مكونات التهيئة الهيدرومائية المختلفة في التخفيف من حوادث الفيضان والآثار البيئية المترتبة عليه.

إن استغلال هذه المنشآت ظل متواضعا وبعيدا عن الأهداف التي أنشئت من أجلها خصوصا ما يتعلق بالتهيئة الهيدروزراعية التي كانت تهدف بالأساس إلى إنشاء مناطق للزراعة المروية بغية تكثيف الإنتاج الزراعي وتنويع الأنشطة الريفية والمساهمة في الحد من الهجرة إلى المدن.

مكنت التهيئة الهيدرومائية بشكل فاعل من تحسين الظروف الاقتصادية والاجتماعية لساكنة المنطقة من خلال زيادة الانتاج وتوسيع الرقعة الزراعية المروية وتطور نسبة اليد العاملة. كما مكنت من تفادي العديد من الأخطار البيئية جراء الفيضانات وتنظيم حركة مياه النهر من خلال نسق متزن يأخذ بعين الاعتبار فترتي الفيضان والتحاريق.

الهوامش:

1- سورة النور، الآية 38.

2- (OMVS,IRD,2001).

3- (O.M.V.S, 1980).

4- (omvs,IRD,2001).

5- (MAED,2004).

6- (Mélani Bonneau, 2001)

7- (OMVS,IRD,2001).

8- (OMVS,1995).

9- (اباب ولد بنيوك،2012).

10- (اباب ولد بنيوك،2012).

المصادر والمراجع:

- (OMVS,IRD,2001) OMVS et IRD,2001 : Impacts potentiels de la gestion des ouvrages et des eaux de surface du fleuve Sénégal sur l'agriculture irriguée. Rapport des synthèses version provisoire, 33 pages
- MAED,2004: Rappory sur la Mise en œuvre du cadre Strategi de lutte contre la pauvrete ,Mauritanie,61p
- Mélani Bonneau, 2001 : Besoins en eaux de l 'agriculture irruguée et de l'agriculture de décrue dans la vallée du fleuve sénégal IRD , AGRO, 100
- وزارة المياه والصرف الصحي ،ادارة السدود والهيدرولوجيا، 2010
- M H A S Centre des resources des eaux, 2010
- Gpoupe mantali 1977
- وزارة التنمية الريفية أدارة السياسة والتعاون والمتابعة والتقييم،2010
- O.M.V.S, 1980 O.M.V.S, 1980: Etude Socio-économique du bassin du fleuve Sénégal,(4parties)- Partie A : Présentation générale du bassin du fleuve, réédition 1984, partie B : Le milieu traditionnel, réédition 1984. Partie C : L'introduction de la culture irriguée. Ed. Provisoire 1980. Partie D : Interprétation des résultats dans le domaine du développement rural. Ed.provisoire.
- (OMVS,1995) OMVS,1995 : évaluation des effet sur l'environnement d'aménagements prévus dans le Bassin du Fleuve Sénégal/ Rapport partiel sur Forêts/ Gannett Fleming Corddry Carpenter USA. P124

- محمد أحمد ولد السيد المسألة المائية في الضفة المتوسطة من نهر السنغال ،رسالة دكتوراه غير منشورة ،جامعة تونس 2006)
- اباب ولد بنيوك ،التغيرات البيئية وأثرها على تنمية الموارد المائية ،رسالة دكتوراه غير منشورة في الجغرافيا ،جامعة سيد محمد بن عبد الله ،فاس ،2012.

جريمة الاستعمار الفرنسي في حق اللغة والمجتمع
(حالة الجزائر نموذجا)

د.كتور مصطفى شريك، مخبر الشباب والمشكلات الاجتماعية
جامعة محمد الشريف مساعدية سوق أهراس، الجزائر

المقدمة:

إن أي مجتمع من المجتمعات له من الخصوصية التي تميزه، ويستأثر بها عن غيره من المجتمعات، مما يجعل خصوصيته أمرا بالغ الأهمية في تمييز مختلف المجتمعات، ومجمل البيئات، عن بعضها البعض، ذلك أن لكل جماعة طابعها الخاص، فما بالك بالمجتمعات التي لها ثقافتها الخاصة، وعاداتها وتقاليدها المتواقعة، ومجمل أشكال السلوك المختلفة، والمعاملات المعهودة وهو سنة الله في الكون لقوله تعالى﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾1، وهذا الاختلاف هو موروث يتجسد في العادات والتقاليد والأعراف وحتى طرائق الاتصال والتي من بينها اللغة، بحيث أن لكل واقع ما يجعل أفراده تتعامل مع البيئة التي يوجدون فيها تتراوح بين القبول والتحاشي، وعند قراءة تاريخ الأمم والدول، نجد أن هناك الكثير من الملامح والسمات التي تميز بينها، وتفرز لكل مجتمع أو أمة "ما" خصائصها على مدار تموقعها في سجل التاريخ، إذ تلعب هذه السمات الدور الأساس في تحديد مدى قوة هذا المجتمع أو ذاك في إرساء أعمدة البقاء والاستمرارية، أو تحدي أمواج الفناء والتلاشي، وقد لا تلعب لغة القوة وحدها باعتبارها عنصرا أساسا في تثبيت صور البقاء ومواجهة الاندثار، بقدر ما تتواجد عناصر أخرى تشد من أحزمة المجتمع وتدفع به إلى إثبات الوجود ومنها: عنصري الثقافة والشخصية. ولما كانت اللغة هي واحدة من المميزات التي تتباين فيها المجتمعات البشرية، فإن أمرها يعدو من الأهمية والحيوية ما يدفع إلى اعتبارها أحد مقومات المجتمع، وأبرز أركانه على الإطلاق، كيف لا وهي أداة الاتصال بين مكونات المجتمع من أفراد وجماعات، ويجعل منها حلقة الوصل بينهم، لتصبح بمثابة شريان الحياة الاجتماعية، مما يفسر اعتبارها أساس جميع الظواهر والعمليات والتفاعلات الاجتماعية. وسوف نتناول الموضوع في هذه النقاط:

أولا: ثنائية اللغة والمجتمع

إن اللغة هي المطية، كما يقول ابن خلدون، التي حمل عليها الإنسان أعباء نفسه وهواجسه وأفراحه وتصوراته وإلهاماته وأحقاده ونبله وشراسته وحنوه، وعلومه وفلسفاته واكتشافاته... فضلا عن حمله لها بينه وبين إخوانه وجيرانه وبني جنسه، وإلى الأجيال والأمم من غير بني جنسه، فتسلسلت عبر التاريخ علامات رقيه في كل ميدان، مكونة مسيرة مترابطة الحلقات متراصة الصفوف من الكلمات واللغات واللهجات والمصطلحات والأصوات متنوعة النغمات والأشكال في

ظاهرها، ولكنها جميعا موحدة الهدف، وهو التعبير عن الإنسان"2، وبذلك تشكل اللغة الأداة التي من خلالها يتم التواصل بين الأفراد والجماعات، وتوريث ثقافة المجتمع جيلا بعد جيل، حتى يستطيع بذلك المجتمع تحقيق الاستمرارية والديمومة والبقاء، وكما يقول الأستاذ عبد الله شريط، فإنه مهما يكن من أمر، فإن اللغة والفكر لا يمكن الفصل بينهما، وكذلك لا يمكن الفصل بين اللغة والعاطفة، وبين اللغة والوسط الاجتماعي، وبين اللغة والمستوى الحضاري، وباختصار بين اللغة والإنسان، واللغة قد تؤدي إلى التآلف بين الأجناس أو إلى تشتت في صفوف الإنسانية أو تصدعات في بيئة المجتمع الواحد3، وقد لعبت اللغة دورها الحضاري انطلاقا من أنها تمثل عند الكثير المكون المعقد، والكل المركب، الذي لا يمكن فكه، كما هو الحال على حد اعتبار قول رائد اللسانيات الحديثة– فرديناند سوسير– الذي يرى أنها "نظام محكم وقائم على التضامن بين مختلف أجزائه المكونة له، بحيث أن قيمة الجزء الواحد منه لا تظهر أو تتم إلا باقترانه مع الكل"4، وأنها كما قال – ابن خلدون– في مقدمته المشهورة هي "عبارة عن المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن قصد لإفادة كلام، فلابد أن تصير الملكة مقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهو في كل أمة حسب مصطلحاتها"5، وهو في تحليله هنا يتناول اللغة من منظور عضوي، وكأنه أمام عملية تشريح، وأن التعبير باللسان من خلال التبليغ عن طريق اللغة هو استجابة لحاجة عضوية، وهذه الاستجابة تمر بثلاث مراحل كما بينها عبد الله شريط وهي6:

- أولا: تصور الحقائق.
- ثانيا: إثبات العوارض الذاتية لهذه الحقائق أو نفيها عنها.
- ثالثا: إذا استقرت الصور العلمية في الضمير فلابد من بيانها والتعبير عنها لصقلها وتصحيحها.

وهنا يؤكد ابن خلدون بأن اللغة هي الأداة للتعبير عما يختلج في فكر الإنسان، وهي التي تساهم في المحافظة على النوع البشري واستمرار بقائه.

وإذا كانت اللغة لا تنبت من فراغ، وإنما هي صورة لأهلها صعودا وانحدارا، تقدما وانحسارا، وأهميتها كبرى، لأنها هي إحدى مقومات الأمة نظرا لدورها في تجذير الشعور بالانتماء إلى مجموعة لها خصوصياتها الثقافية، وهي إحدى العناصر الأساسية للهوية التي لا يقتصر مضمونها على التضامن المكون للذات الجماعية، بل يمتد إلى الفاعلية التاريخية التي تتجلى– عبر اللغة– في المقدرة على المشاركة في الإنتاج الحضاري، أي في الإضافة الفكرية، لأن الهوية بناء تاريخي متجدد، وهذا يعني أن اللغة هي في صلب ديناميكية التطور، وهي ليست مجرد وسيلة للتخاطب، وليست وعاء يختزن أفكارنا، ومشاعرنا، ومعتقداتنا، ورسائلنا فحسب، بل هي قناة الاتصال بجذورنا الموروثة...، تحشد الإمكانات لتحقيق عنصر الجذب ولاستمرار

التبعية الفكرية، ومن ثم الحضارية"7، وهو ما ينطبق على اللغة العربية التي هي أيضا تنبت في الأراضي الخصبة، ولها من الحضوة ما يجعل منها جزءا من الشخصية العربية والإسلامية، والسمة التي تميز الأمة العربية والإسلامية وتجعل منها واحدة من بين الأمم التي تضرب بجذورها في عمق النشأ الإنساني، وما قدمته للإنسانية من حضارة كما عبر عن ذلك الأستاذ عبد الكاظم العبودي عن دور العربية الحضاري في قوله "إن الحضارة التي حملتها اللغة العربية تتميز في لا عنصريتها أو انتسابها لعرق معين أو لقوم دون غيرهم، بل اتسمت في بعدها الإنساني وتقبلها من لدن جميع الأمم التي وصلها الإسلام وسطر بها القرآن الكريم وانتقلت إلى أصقاع واسعة من العالم، منها ما استوطن فيها العرب الفاتحون أو المهاجرون من المسلمين من شتى القوميات ناقلين معهم ثقافتهم ولغاتهم دون فرض بالإكراه على الشعوب الأخرى، لقد حافظت كل الشعوب الإسلامية على لغاتها في ظل الحضارة الإسلامية وتعايشت وتفاعلت مع اللغة العربية باستمرار، حتى كتب في اللغة العربية كبار العلماء واللغويين من غير العرب مؤلفاتهم دون تعصب أو خوف أو قلق على لغاتهم القومية"8.

ثانيا: العربية في الجزائر: المكانة والانتماء

لو لم يرتبط المجتمع الجزائري بالعربية كلغة دين، أو لغة عرق، لأختارها عن فطرة، ولتمسك بها، فكيف هو الحال وهي لغة الماضي التليد لهذا الشعب، ومجده الغابر، ولغة عزته، ولغة إيمانه الراسخ، بما يمثله ذلك من ارتباط روحي وعقائدي، وتشابك حقيقي مع تعاقب العصور، وتواصل التاريخ، لأنها كما قال ابن باديس "الرابطة بين ماضينا وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواح أسلافنا وبها يقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين، وهي وحدها اللسان الذي نعتز به"9، هي اللغة العربية التي تمثل واحدة من رموز الهوية الوطنية، الجامعة بين شرائح هذا الوطن الممتد على كافة الأرجاء، وهي السبيل الأوحد لمد جسور الالتفاف حول وحدة هذا الوطن المترانح والمترامي، ولتبقى العامل الأكيد في تأكيد ما للغة من ميزة في جمع الروابط، على الرغم من أن ابن باديس يؤكد على أنه "ليس هناك من ينكر أن الأمة الجزائرية" كانت مازيغية من قديم عهدها" وأن جميع الأمم التي اتصلت بها لم تستطع "أن تقلبها عن كيانها" ولم "تخرج بها مازيغيتها أو تدمجها في عنصرها بل كانت هي التي تبتلع الفاتحين فينقلبون إليها ويصبحون كسائر أبنائها"9، هذا الاعتراف الصريح من ابرز رواد النهضة الإصلاحية في الجزائر لا يخفي حقيقة التجانس بين العربية والأمازيغية، ليتشكل وطن واحد تجمعه وحدة الدين، ووحدة اللسان، لأن الامازيغ دخلوا الإسلام واعتمدوا العربية كلغة دين وتواصل، وأصبحت بذلك اللغة العربية هي لسان كل الجزائريين، رغم محاولات الحملات الاستعمارية في تحريك رياح الفتنة بين الجزائريين، ونشر الفرقة بينهم، مثلما فعلت الإدارة الفرنسية في الجزائر عندما "عملت على تمزيق الوحدة الوطنية للشعب الجزائري بإثارة النعرة العصبية والقبلية، والتفريق بين العرب

والبربر، فزعمت أن البربر ينتمون إلى سلالة أوربية، وأن لهم لغة وأعرافا خاصة، وكيانا مستقلا ينبغي أن يحافظوا عليها..."10 وعندما أصبحت اللغة داخل معركة الاستعمار صمد المجتمع الجزائري ضد كل المحاولات، وزاد ذلك إسراره على التمسك بلغته، حتى ذلك الذي كان يعتبر العربية جاءت مع الفتوحات الإسلامية، لم يستدر بظهره، ويترك العربية تصارع موج التحدي، بل كان من السباقين للذود عنها، لأن كل الجزائريين شعروا أن العربية تمثل لهم الارتباط بالمعطى التاريخي، وإحدى مقومات الثقافة الوطنية الممتدة عبر تتالي الأزمنة والعصور، وكما تمثل الالتئام والتآخي والترابط الاجتماعي بين أفراد المجتمع، مما يجعل من العربية لغة الذات والاجتماع والثقافة والتاريخ والانتماء. ووجد الفرد الجزائري أن لغته لها من الأهمية ومن التميز والتخصص بما قدمته لسائر ومختلف الحضارات الإنسانية، وللعلم والمدنية كما قال الشيخ البشير الإبراهيمي (رحمه الله) "لو لم تكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران ولم تكن لغة متسعة الآفاق غنية بالمفردات والتراكيب– لما استطاع أسلافكم (يخاطب الجزائريين) أن ينقلوا إليها علوم اليونان– وآداب فارس والهند ولا لزمتهم الحاجة إلى تلك العلوم بتعليم تلك اللغات ولو فعلوا لأصبحوا عربا بعقول فارسية وأدمغة يونانية ولو وقع ذلك لتغير مجرى التاريخ الإسلامي برمته. لو لم نكن اللغة العربية لغة عالمية لما وسعت علوم العالم وما العالم إذ ذاك إلا هذه الأمم التي نقل عنها المسلمون"11 ، هذه الصلة الوثيقة بين الجزائري ولغته جعل من كليهما باق مستميت، فلا العربية في دارها تداس وتحتضر، ولا الجزائري في أرضه يهان ويحتقر، فكلاهما متلازمان، على ممر الأزمنة والحقب، حتى ما تعرض له المجتمع من حملات واعتداءات صليبية على يد مجرمي الاستعمار من سياسة إجرام منظمة، لم تنل منه أو من لغته، لان العربية متجذرة في عمق كل فرد.

لقد تميز الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر، بمظاهر عدة جعلته يترك بصماته الجرمية على واقع هذا المجتمع، خاصة مع تلك المشاريع والسياسات الهدامة التي سعت الإدارة الاستعمارية إلى تبنيها، حتى يصل مجرمو الاستعمار إلى أهدافه التي رسموها على مدار فاق القرن وربع القرن، وهي كلها مساعي خسيسة لطمس كل ما يرتبط بثوابت المجتمع، وما يمتد إلى ماضيه الضارب في عمق التاريخ، سياسة إجرامية بشعة، أولى جناياتها كانت ضرب اللغة، حيث صوبت السهام نحو اللغة العربية والعمل على إحلال لغة بديلة عنها، حتى يستطيع هذا المستعمر المستدمر من تمرير مختلف المشروعات التي لا تقل عن تلك الجريمة شناعة وفداحة.

وجد الاستعمار الفرنسي أن المجتمع الجزائري لا ينظر إلى العربية على أنها لغة تواصل فحسب، أو لغة تعليم وحسب، ولا لغة انفعال وكفى، بل أداة وصال وارتباط، حيث قال الشيخ ابن باديس (رحمه الله) لا رباط "يربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر والمستقبل السعيد، إلا هذا الحبل المتين: اللغة العربية، لغة الدين لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية المغروسة"12

والممتدة في الضلوع، وبهذا الشعور تكون اللغة العربية بالنسبة للجزائري تسكن في أمكن مقدسة من جوارحه، وفي تموضع لا تمتد له الدسائس مهما طالت جرعات التسميم، ومهما كانت سبل التنكيل، لذلك عاشت العربية في حواضر الجزائر وبواديها معززة، لا تقاسمها أي ضرة، حتى ولو فرضت فرضا من قبل ساسة الجريمة ومنظروها، وظل المجتمع الجزائري يفاخر بها، ويمجدها، فتربى الأجيال على خُلُقِ قرآنها، وامتداد انتمائها، وتنشئ الألسن على بديع مفرداتها، وغنى تراكيبها، وبهذا الوجود كانت العربية قطعة من الشخصية الجزائرية بكل تفاصيلها، وشاهدا على انتساب هذه الدور إلى ديار العروبة والإسلام.

ثالثا: الاستعمار وأدوات الجريمة

لم تكتف الإدارة الاستعمارية ببسط هيمنها على كيان المجتمع الجزائري، وبمصادرة ممتلكاته، واستغلال خيراته، وامتلاك أراضيه، وطرد أبنائه إلى القرى المعزولة، والمشاتي المنعزلة، والقضاء على سبل عيش أفراده، بل حاولت بشتى الطرق إلى تمزيق عرى الشخصية الجزائرية، والنيل من كل ما يرتبط بشخصية الفرد الجزائري من تاريخ وحضارة وثقافة وتقاليد وأعراف، حيث سارعت إلى تضييق الخناق على مجمل المؤسسات العلمية والتثقيفية التي كانت تنشط لتعليم وتثقيف الجزائريين من مدارس وزوايا ومساجد وكتاتيب ورباطات، حتى تقضي على كل ما هو يرمز إلى العروبة، وهنا يذكر الشيخ –البشير الإبراهيمي– كيف تعاملت يد الإجرام الاستعمارية يوم أن وطأت أقدامها الأرض الجزائرية: "كانت الحكومة الفرنسية لأول عهدها باحتلال الجزائر وضعت يدها على مساجد المسلمين وأوقافهم، ووضعت سلطتها على أئمة المساجد وموظفيها باسم نظام جائر زينته للناس بعهود كتابية ووعود شفاهية صدرت من بعض رجالها العسكريين والمدنيين، مضمونها أنها تحترم الإسلام ومعابده وشعائره وقد حكم التاريخ على تلك العهود والوعود، وبين قيمتها للناس أجمعين"13، واستعمل المستعمر كل الطرق الدنيئة لتحقيق مشاريعه، وركز هجمته على اللغة والدين، لأنه كان يدرك تمام الإدراك أن هذين المقومين من ركائز الهوية الوطنية، وفي هذا يشير الشيخ –ابن باديس– في قوله: "علموا أن لا بقاء للإسلام إلا بتعليم عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه وأن لا تعليم له إلا بتعليم لغته، فناصبوا تعليمها العداء وتعرضوا لمن يتعاطى تعليمها بالمكروه والبلاء، فمضت سنوات في غلق المكاتب القرآنية ومكاتب التعليم الديني العربي والضن بالرخص، واسترجاع بعضها حتى لا يبقوا منها إلا على أقل القليل"14.

تفيد القراءة التاريخية أن أول ما بادر إليه المستعمر هو القضاء على بنية المجتمع، وتجريد الفرد من شخصيته، من خلال طرق وآليات عديدة منها أنه بادر إلى تعليم موازي لما هو معمول به في الواقع التربوي المحلي، من تعليم عربي بمختلف المؤسسات التعليمية المعروفة، كما بادر إلى تضييق الخناق على المؤسسات الموجودة، والقائمين عليها من معلمين ومدرسين وأئمة ومشايخ، فأقر المرسوم المؤرخ في 1850/07/14 القاضي بإنشاء 40 مدرسة، وتلاه المرسوم

المؤرخ في 1850/09/30 والقاضي بإنشاء المدارس الحكومية الثلاث التي كان الهدف منها هو تكوين مجموعة من الموظفين لتقلد الوظائف الدينية في شؤون الإمامة والفتاوى والقضاء والترجمة وغيرها من الشؤون الدينية والأهلية الخاصة بالجزائريين15.

ولما كانت للزوايا بعض النشاطات العلمية والتعليمية، وتقوية الروابط الاجتماعية بين فئات المجتمع الجزائري، وما ساهمت به إلى حد بعيد في حفظ ديانته وتقوية لغته، حتى إنها كانت في بعض الفترات المؤسسة الوحيدة للتعليم في الجزائر، وفي هذا يقول (ليون بيكي)، وهو مستشار الدولة الفرنسي "إن التعليم في الجزائر الآن قائم تحت إشراف الأهالي أنفسهم والزاوية حيث يتعلم بها التلاميذ القرآن وتفسيره هي المؤسسة الوحيدة للمستعمرة"16 لهذا جعلت الإدارة الاستعمارية من وظيفة المدارس الثلاث المنشأة هي منافسة الزوايا، وعرقلة تعليم اللغة العربية والثقافة الإسلامية، من خلال إحلال اللغة الفرنسية، ومنع التدريس بالعربية مثلما أشار الأستاذ – محمد الميلي– إلى تعليق الشيخ –ابن باديس–حول قانون 08 مارس 1938 الذي كما قال "وضع خصيصا لمحاربة اللغة العربية في الجزائر، وتجدر الإشارة إلى أن ابن باديس لم يقتصر على التنديد بالقانون المذكور، بل ذيل مقاله بدعوة كل معلم عربية نزعت منه رخصته، أو رفضت له رخصة، أو تعرض لإجراء حكومي، أن يكاتبه، كما يدعو كل جماعة تعتزم فتح مدرسة أن تراسله حتى يرشدها إلى ما يسميه بـ(الوجوه القانونية)"17، ولم يكن هذا القانون الجائر أول ما حرم الجزائريين من التعليم، بل سبقته قوانين وإجراءات كثيرة أكثر شدة وإيلاما وقسوة على الجزائريين مثل قانون الأهالي (الأنديجينا) الذي صدر سنة 1874 وهو قانون وصفه الأستاذ – محمد فريد– بعد زيارته للجزائر بقوله: "يعامل المسلمون في الجزائر بقوانين مخصوصة في غاية الشدة والصرامة، فهم محرومون من حرية الكتابة وحرية الاجتماع، بل من حرية السفر والانتقال، وحرية مطالعة الكتب والجرائد، والأغرب من جميع ذلك، بل الذي لا يمكن وقوعه من أكثر الأمم احتراما للقانون وتمسكا بالعدالة أنه يجوز لجهات الإدارة أن تسجن أي عربي مهما كانت مكانته ومنزلته بين قومه بمجرد اشتباهها في سلوكه أو في أمانته وإخلاصه لها، حتى بمجرد الظن أن وجوده مطلق السراح مضر بالأمن العام" 18، وكان مرسوم 13 فيفري 1883 المتعلق بالتعليم العمومي الفرنسي، وبرز أخطر من ذلك ما عرف بقانون 24 ديسمبر 1904 الذي يحظر أي مبادرة لفتح مؤسسة تعليمية، سواء كانت مدرسة، أو كتاب، ويمنع أي معلم عربي من ممارسة مهنته إلا برخصة تحدد نشاطه وفق شروط 19، وبلغت درجة محاربة اللغة العربية بعد ذلك ذروتها عندما أعلن عن القرار الذي أصدره(شو دان) وزير داخلية فرنسا، في 08 مارس 1938 والذي لاقى معارضة شديدة من قبل الطبقة السياسية والدينية في الجزائر، إذ اعتبر اللغة العربية لغة أجنبية، ومعاقبة كل من يتصدى لتعليمها بدون رخصة مسبقة بالسجن والتغريم 20.

حتى تدابير الجريمة الاستعمارية التي اتخذتها الإدارة الفرنسية لم تتوقف عند السجن لما له من تعويق للحركة وحرمان للحرية، ولا عند التغريم لما له من مصادرة للأموال وفرض للغرامات وقطع للأرزاق، بل حتى النفي والإبعاد وما انجر عنه من ترحيل وتهجير، وهي عقوبة طبقتها إدارة المحتل وكأنها تحاكم خارجين عن القانون، أو عصابات أشرار، كما حدث للشيخ البشير الإبراهيمي عندما نفي إلى آقلو بالأغواط (الصحراء الجزائرية) وعبر عن ذلك بقوله "... وارتاع الاستعمار بهذه النهضة التعليمية الخطيرة، وتربص بها، اشتعال الحرب الاخيرة، وقضى على معظمها بالتعطيل والاستيلاء على كثير من المدارس لاستعمالها في المصالح الحربية، واعتقال كثير من العلماء ورجال التعليم، ونفي قادتهم إلى الصحراء، منهم كاتب هذه السطور فقد قضى الثلاث سنوات للحرب منفيا في صحراء وهران"21.

وهذا يعني أن الإدارة الفرنسية الآثمة في الجزائر ما كانت تتساهل مع أي مبادرة أو مشروع لقيام نشاط تعليمي يعرف بالثقافة العربية ويدعو للتاريخ الإسلامي والوطني، فكانت بهذه اللامشروعية تهدم ثقافة المجتمع، وتقضي على أصالته، وتدوس على مقوماته، لأن جريمة الاستيلاء على المدارس وتحويلها إلى ثكنات عسكرية، وجريمة تدنيس المساجد وتحويلها إلى كنائس، وجريمة الاستحواذ على أوقاف الشعب وصرفها في خدمة المصالح الاستعمارية، كما اعترف بذلك الدوق– دومال Dauk Daumal– في تقريرله إلى حكومة باريس "قد تركزنا في الجزائر واستولينا على المعاهد العلمية وحولناها إلى دكاكين أو ثكنات، أو مرابط للخيل واستحوذنا على أوقاف المساجد والمعاهد"22 هو بحق جرائم ضد الإنسانية في حق المجتمع الجزائري، حتى أسماء المدن والشوارع الكبيرة لم تسلم من مخطط الجريمة الاستعمارية، فتم تغيير أسمائها، وأصبحت البلاد غير البلاد، والزائر للجزائر كما كتب الاستاذ –تركي رابح– "يظن نفسه أنه في بلاد أوربية وليس في بلاد عربية إسلامية"23، وهدف ذلك حسب مخطط الجريمة الاستعمارية هو فرض سياسوة لأمر الواقع وتنشئة الاجيال على مسميات ورموز لا ترتبط بماضيها الوطني والقومي.

حتى الزوايا التي كانت بمثابة الدرع الواقي والحامي للأمة من أي تغريب، عرفت يد الإجرام الاستعمارية كيف تستميل بعض من أصحابها، وتجعلهم في صفها، فما لبثت هذه الزوايا أن انحرفت عن رسالتها، وعن غايتها المحمودة، فتسلط عليها شيوخ جهلة، استغلوا مكانة الزوايا في قلوب العامة فخلعوا على أنفسهم صفات الألوهية، وأوهموا المريدين واستمالوا العامة لظواهرهم"24، وبذلك عرفت الإدارة الفرنسية كيف تخطط لجعل هؤلاء المشايخ تحت سلطانها، وفي خدمتها، وأدوات طيعة في يدها.

رابعا: جدران الصد والمناعة

التزييف والتحريف الذي تعرضت الثقافة الجزائرية على يد الإجرام المنظم الاستعماري، لم يزد أبناء المجتمع إلا إسرارا على رفع راية التحدي والصمود في وجه الهجمة الصليبية المغرضة، فقد أدرك الجزائريين ما كان يحيط بهم من دسائس، وخطط للإطاحة بكل رموز الهوية والشخصية الجزائرية العربية والغسلامية، وتنبهت نخبة المقاومة المنيعة التي كانت جدران المناعة إلى سياسة الكيل بمكيالين التي كانت تطبقها الإدارة، والتي كانت تمنع من يبادر إلى تبني أي مشروع لتعليم الجزائريين علوم اللغة العربية، وتعمل على اصدار في حقهم الأحكام القضائية، وبالمقابل تشجع كل يحترم قوانينها التعسفية الجائرة، ويتبنى مشاريعها المبيتة، كما بين ذلك الشيخ –ابن باديس–في قوله: "لقد فهمت الأمة من المعلمين المقصودين، فهم معلمو القرآن والإسلام، ولغة القرآن والإسلام، لأنهم هم الذين عرفت الأمة كلها ما يلقون من معارضة ومناهضة، وما يجدون من مقاومة ومحاكمة، بينما غيرهم من معلمي اللغات والأديان والمروجين لنصرانية في السهول والصحاري والجبال، بين أبناء وبنات الإسلام في أمن وأمان، بل في تأييد بالقوة والمال25.

ولما رأت إدارة الإجرام المنظم هذا التصميم على رفع التحدي والاستمرار في أداء رسالة تعليم أبناء الجزائريين علوم اللغة العربية، وتثقيف الناس وتوعيتهم رغم التهديد والوعيد، ورغم حدة وشدة الترهيب، بادرت إلى كثير من التدابير والعقابات في حق كل من يعمل على ذلك السبيل، ورغم ذلك حملت الجمعيات والنوادي والمؤسسات راية النضال والكفاح ضد سياسة التجهيل المتعنتة، ويقول في هذا الشأن الشيخ –ابن باديس– "قد فهمنا –والله– ما يراد بنا وأننا نعلن لخصوم الإسلام والعربية أننا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا، وسنمضي–بعون الله– في تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا، ولن يصدنا عن ذلك شيء فنكون قد شاركنا في قتلهما بأيدينا"26، وهكذا نشطت المساجد، والمعاهد، والمدارس، والأندية في إلقاء الدروس وتقديم المحاضرات، وأعيد الاعتبار للجوامع، والزوايا، والكتاتيب وتم تطوير عملها من دور للعبادة إلى مراكز للوعظ والإرشاد، وتعتبر تجربة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في العمل على بعث نهضة الأمة، وتحريك الشعور الوطني، والحفاظ على الدين الإسلامي، والذود عن اللغة العربية، تجربة رائدة، بفضل علمائها الأجلاء، وشيوخها العظام، وكتب عنها الشيخ –البشير الإبراهيمي– "اسم الجمعية يفصح عن حقيقتها، فهي جمعية علماء، يخدمون الإسلام بتبين حقائقه ونشر علومه بالجزائر، ومن كان له إلمام بحالة الجزائر، وما صنعه الاستعمار الفرنسي بها، يستشعر عند سماع اسمها كل ما رآه أو سمعه من آثار الاستعمار، ويستشعر مع ذلك أن طريق هذه الجمعية شاق، وأن أعمالها صعبة، وأن تبعاتها ثقيلة، والأمر في حقيقته كذلك"27، وأنها ولدت لتخدم

الجزائر، وتدافع عن مقوماتها الشخصية العربية الإسلامية، ومحاولة إيقاد شعلة الإصلاح الديني والعلمي، ووجودها لسببين، شرحهما الشيخ–البشير الإبراهيمي–في أمرين28:

– أسباب إلهية: "كان الداعي إلى تأسيسها عوامل إلهية، هي سننه في التطورات البشرية، وفي مجيء نصره للصادقين حين يستيئسون منه، وفي إمهاله للظالمين حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر".

– أسباب إصلاحية: "ولكن من الظاهر من أمرها، الذي يكتب وتناله القوانين هو أنها جمعية إصلاح ديني تحارب ضلالات العقائد، وبدع العادات، ومفسدات الأخلاق، وترجع بالمسلمين إلى ينبوع الدين، ومطلع هدايته من الكتاب والسنة".

وقال أيضا في مناسبة أخرى "جمعية العلماء –في حقيقتها–دفاع منظم قوي عن الإسلام والعروبة بهذا القطر، هيأه الله عناية بدينه ولغة كتابه، وهيأ له نوعا من العلماء ممتازا بقوة العلم وقوة الروح..."29، هذا الوجود الذي أكد عليه الشيخ هو معركة الأمية وسياسة التجهيل، ومعركة ضد التنصير وسياسة التمسيح، ومعركة ضد التغريب وسياسة الفرنسة، ومعركة ضد الانسلاخ وسياسة الإدماج، هي معارك كثيرة في حرب واحدة هي ضد الاستعمار وسياسة الاستدمار، وسعت الجمعية إلى العمل على الحفاظ على الهوية الوطنية، والدفاع عن مقوماتها الأساسية العربية والإسلام، وصيانتها من محاولات التشويه، والعمل على حماية التاريخ الفكري والثقافي الجزائري الممتد عبر الأجيال، لأن آلاف من الشباب العربي المسلم كما كتب – الإبراهيمي– "كان كالمجهول في نسبه، وكالجاهل لحسبه، ففتحت المحاضرات الحية، أذهانه على تاريخ أسلافه وفتقت ألسنته على آدابهم، فتقاسم على أن يقفوا الأثر، ويجدد ما اندثر، وأقبل على العلم حتى إذا ضاعت به الجزائر فارقها كالنحلة، ترحل إلى المكان السحيق، لترجع إلى خليتها بالرحيق"30، وتعددت أدوار الجمعية بين الدفاع عن الإسلام، ولغة الإسلام، حتى ترسي أرضية صلبة لبناء متين، وإعطاء تفسير صحيح لمعنى الوطنية الحقة، وحتى تجعل من الفرد الجزائري يعتز بانتمائه، ويفتخر بأصالته، وهو ما تركزت عليه أهداف الجمعية في تنشئة الأجيال، ويتبين ذلك في كلام الشيخ –ابن باديس– حول الدور والغاية من ظهور الجمعية "أهمها تكوين الإنسان الجزائري وبناء شخصيته على أسس متينة ترتكز دعائمها على أصول العقيدة، ومبادئها، وإعداد المواطن للحياة الدنيا والحياة الآخرة إعدادا متكاملا يشمل كافة جوانب شخصيته الروحية والجسمية والفكرية وغيرها حتى يصبح بإمكانه صنع النهضة التي هي الأساس في قيام الحضارة، وبناء مجتمع إسلامي فاضل متماسك يقوم على أساس من مبادئ الدين والأخلاق ويتحقق في ظله العدل وتكافؤ الفرص والتقارب والتماسك والتعاون بين فئات المجتمع مع المحافظة على الشخصية الإسلامية العربية بكل مقوماتها وبذل الجهد من أجل إثرائها وتجديده،

وتدعيم اللغة العربية الفصحى وحفظها من عوامل الضعف والاندثار والعمل المستمر على تقويتها وتجديدها ونشرها"31، كان السعي من الجمعية هو محاربة المخلفات السلبية للاستعمار من جهل وفقر وحرمان، والإصلاح الديني والعقائدي بتوجيه الأمة الوجهة الإسلامية الصحيحة، وبعث نهضة علمية وثقافية من خلال تأسيس دور العلم والمعرفة، وكان نصيب اللغة العربية الحظ الأوفر من اهتمام علماء الجمعية ورجالها، وتوسعت بذلك مؤسسات التعليم في كافة أرجاء البلاد، وعرفت التربية العربية الإسلامية طريقها إلى عقول أبناء المجتمع، وتنوير الشعب وبعث اليقظة فيه من خلال صحافة عربية تذكره بماضيه، وتفهمه بواقعه، وتحرره من عقدة المستعمر، وترشده إلى مرافئ الحيطة منه والحذر، وتدفع به نحو اليقظة والفطنة من براثن الفتنة المزروعة من قبل ساسة جريمة الاستعمار.

هكذا كانت الدعوة إلى بعث نهضة حقيقية بالمجتمع الجزائري، هدفها إحياء الشعور الوطني، وتبني تعليم عربي، يرسي بحق حركة تعليمية رائدة بالفعل، وجديرة بالبقاء والثبات، ونجح مساعي أبناء المجتمع الجزائري في الحفاظ على الهوية، وهكذا كانت جمعية العلماء المسلمين كفكرة، ثم لتصبح واقع، وتثبت موقفها من الطرقية التي عششت ليست في الجزائر فحسب، بل لم تسلم منها بقعة من بلاد الإسلام، كما وقفت في وجه الخرافات والبدع وشعارها في هذا الباب أن كل محدثة في الدين بدعة، وكل بدعة ضلالة"32، وموقفها من مشاتل التبشير التي زرعها الكاردينال لافيجيري والذي تعتبره مولود من مواليد القوة الطاغية... وأداة من أدوات السياسة في ثوب ديني وشكل كهنوتي33، كما كان لها التأثير البالغ في تنشئة الأجيال، وتحسين التربية الخلقية، والقضاء على مظاهر الجهل والأمية التي كانت أحد أوجه الوجود الاستعماري في الجزائر، لهذا كان لها موقفها من التعليم بل مساهمتها فيه، لأنه سعت إصلاح طرق التدريس والتعليم، فقضت في تعليمها بقسميه المكتبي والمسجدي على تلك الطرق التقليدية وغير المجدية والتي كان يباشر بها التعليم.

نافلة القول نؤكد على أن قيمة اللغة العربية في واقع المجتمع الجزائري، ومكانتها العالية في نفوس كل الجزائريين، تمثل منهج الحياة، إن لم تكن الحياة نفسها، لأنها لغة الدين والعرق والإحساس، فحسب قول–الشيخ البشير الإبراهيمي– "إن اللغة العربية هي لغة الإسلام الرسمية، ومن ثم فهي لغة المسلمين الدينية الرسمية، ولهذه اللغة على الأمة الجزائرية حقان أكيدان، كل منهما يقتضي وجوب تعلمها، فكيف إذا اجتمعا: حق من حيث إنها لغة دين الأمة بحكم أن الأمة مسلمة، وحق أنها لغة جنسها، بحكم أن الأمة عربية الجنس"34، بل إنها تمثل رمزية خاصة لهوية هذا الشعب، وحضارته، وتاريخه العريق، وثقافته التي بقيت ممتدة على مداد الازمنة والعصور، وبالتالي جريمة الاستعمار وأدواته في سلخ المجتمع من مقوماته الحضارية،

وتجريد المجتمع من كينونته الشخصية، لم تجد نفعا امام صمود الجزائريين وتمسكهم بحقهم في الحياة لأنهم يدركون أن اللغة والدين هو نبع الحياة، ولا مجتمع دون ثوابت البقاء ومقومات الوجود.

الخاتمة:

إن جريمة الاستعمار في حق اللغة والدين لهو جريمة تبقى عار على جبين ساسة الاستعمار وممجدي التاريخ الإجرامي في حق الشعوب والامم، وحتى لا ينسى المجتمع ما تعرض له من جرائم وانتهاكات في عرضه وأرضه لابد من ورود حقائق التاريخ في محتوى منهج التعليم، ومحور اهتمام الدارسين في مختلف ضروب المعرفة من دراسات تاريخية واجتماعية وسياسية حتى تبقى الذاكرة حية، والعبرة قائمة من دروس الماضي وعزته التي صنعها الآباء والأجداد.

الهوامش:

[1]- سورة الروم، الآية 22.

[2]- عبد الله شريط، التفكير الأخلاقي عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1975، ص571.

[3]- نفس المرجع، ص 573.

[4]- عبد الجليل مرتاض، اللغة والتواصل، دار هومه، الجزائر، 2000، ص 28.

[5]- ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب، بيروت، ط1 (الطبعة اللبنانية)، 1943، ص 1052.

[6]- عبد الله شريط، المرجع السابق، ص 578.

[7]- عبد الله مليطان، المؤسسة الإعلامية ولغة التواصل العربي، مداخلة في الندوة المغاربية "مساهمة اللغة العربية في التواصل والتضامن والوحدة بين أقطار المغرب العربي" التي نظمها المجلس الأعلى للغة العربية يومي 29-30 جوان 2003، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2003، ص 254.

[8]- عبد الكاظم العبودي، تأملات في الخطاب الجامعي، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2004، ص 14.

[9]- محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1980، ص 145.

[10]- نفس المرجع، ص 47.

11- حسن عبد الرحمان سلوادي، عبد الحميد بن باديس مفسرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 15.

12- آثار الشيخ البشير الإبراهيمي، الجزء 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1978، ص 260.

13- محمد الميلي، مرجع سابق، ص 145.

14- آثار الشيخ البشير الإبراهيمي (الجزء 1)، مرجع سابق، ص 335.

15- عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره (الجزء 3)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 243.

16- تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 3، الجزائر، 1981، ص 126.

17- حسن سلوادي، مرجع سابق، ص 181.

18- مبارك الميلي، مرجع سابق، ص 130-131.

19- حسن سلوادي، مرجع سابق، ص 15.

20- مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، السنة الرابعة، العدد 18/17، الجزائر، 1974/73، ص 72.

21- حسن سلوادي، المرجع السابق، ص 30.

22- مصطفى شريك، اللغة العربية والاستراتيجية الاستعمارية، مجلة اللغة العربية، العدد الممتاز، المجلس الاعلى للغة العربية، الجزائر، شتاء 2005، ص 367.

23- تركي رابح، مرجع سابق، ص 127.

24- تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة، موفم للنشر، ط 2، الجزائر، 2003، ص 81.

25- حسن سلوادي، مرجع سابق، ص 181.

26- محمد الميلي، مرجع سابق، ص 151.

27- نفس المرجع، ص 152.

28- الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، مشكلة العروبة في الجزائر، مجلة الثقافة، العدد 87، السنة 15، الجزائر، ماي/ جوان 1987، ص 421. .

29- نفس المرجع ، ص 421.

30- آثار محمد البشير الإبراهيمي، الجزء 3، مرجع سابق، ص 123.

31- نفس المرجع، ص 114.

32- حسن سلوادي، مرجع سابق، ص 168.

33- سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بمركزها العام بنادي الترقي بالجزائر، دار الكتب، الجزائر، 1982، ص 68.

34- آثار محمد البشير الإبراهيمي، الجزء 3، مرجع سابق، ص 123.

35- عبد الرحمن بن العقون، الإبراهيمي فقيد العروبة والإسلام، مجلة الثقافة، السنة 15، العدد 87، ماي/ جوان 1985، ص407.

المصادر والمراجع

1) القرآن الكريم.
2) عبد الله شريط، التفكير الأخلاقي عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1975.
3) عبد الجليل مرتاض، اللغة والتواصل، دار هومه، الجزائر، 2000.
4) ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب، بيروت، ط1 (الطبعة اللبنانية)، 1943.

5) عبد الله مليطان، المؤسسة الإعلامية ولغة التواصل العربي، مداخلة في الندوة المغاربية "مساهمة اللغة العربية في التواصل والتضامن والوحدة بين أقطار المغرب العربي" التي نظمها المجلس الأعلى للغة العربية يومي 29– 30 جوان 2003، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2003.
6) عبد الكاظم العبودي، تأملات في الخطاب الجامعي، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2004.
7) محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1980.
8) حسن عبد الرحمان سلوادي، عبد الحميد بن باديس مفسرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.
9) آثار الشيخ البشير الإبراهيمي، الجزء 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1978.
10) عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره (الجزء 3)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.
11) تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 3، الجزائر، 1981.
12) مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، السنة الرابعة، العدد 18/17، الجزائر، 1974/73.
13) مصطفى شريك، اللغة العربية والاستراتيجية الاستعمارية، مجلة اللغة العربية، العدد الممتاز، المجلس الاعلى للغة العربية، الجزائر، شتاء 2005.
14) تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة، موفم للنشر، ط 2، الجزائر، 2003.
15) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، مشكلة العروبة في الجزائر، مجلة الثقافة، العدد 87، السنة 15، الجزائر، ماي/ جوان 1987.
16) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بمركزها العام بنادي الترقي بالجزائر، دار الكتب، الجزائر، 1982.
17) عبد الرحمن بن العقون، الإبراهيمي فقيد العروبة والإسلام، مجلة الثقافة، السنة 15، العدد 87، ماي/ جوان 1985.